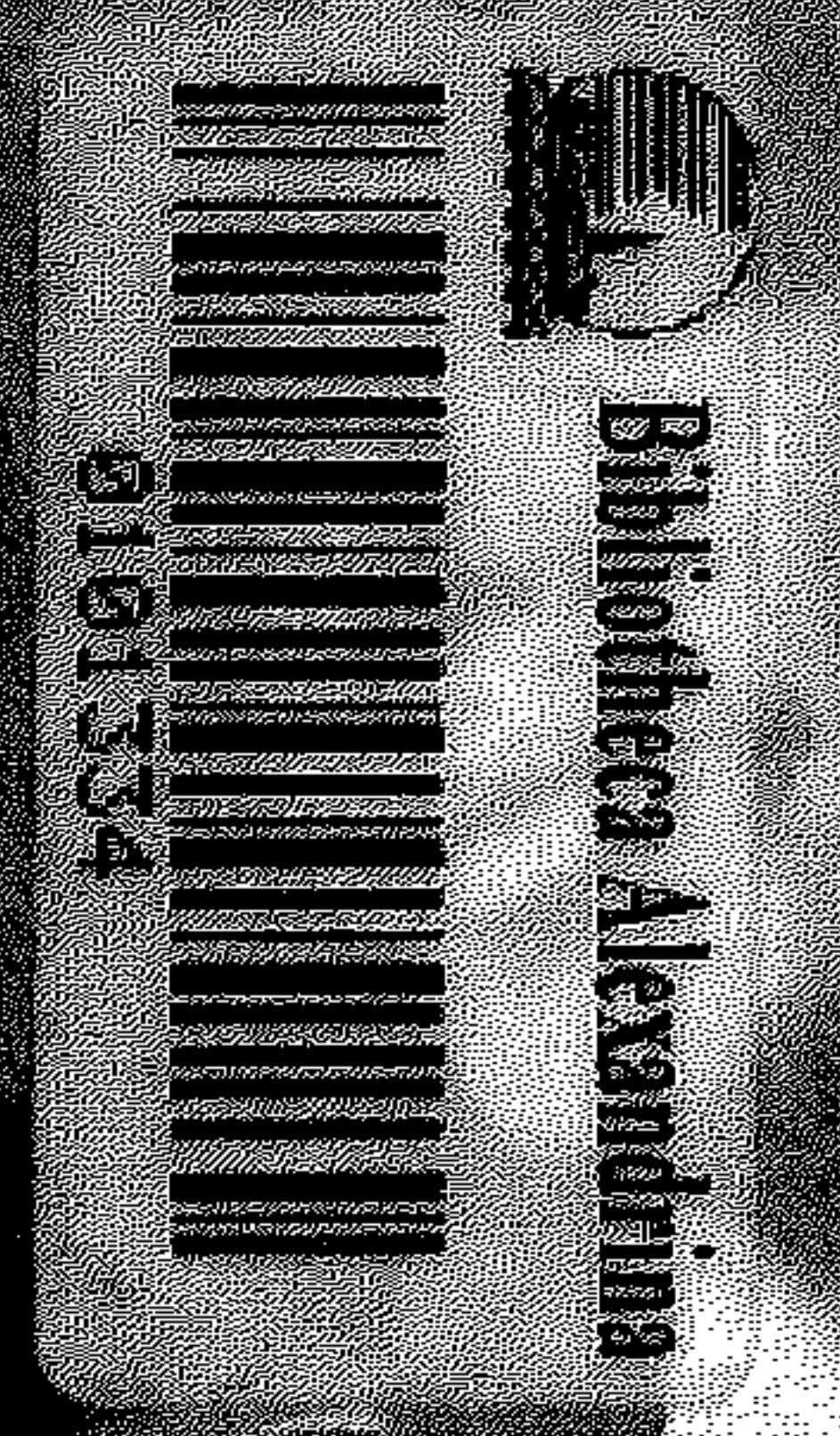


الألف
كتاب
الشارب
٢٢٢

محمود قيسم
الأدب
العربي
المكتوب
بالفرنسية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

علياء أبوشادى

الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية

محمود قاسم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

الفهرس

الصفحة

الموضوع

الفصل الأول :

السمات العامة للأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية ١١

الفصل الثاني :

الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية ١٩

قائمة بأسم الأدياء المصريين الذين كتبوا باللغة الفرنسية ٦٤

الفصل الثالث :

الأدب اللبناني المكتوب باللغة الفرنسية ٧٠

قائمة الأدياء اللبنانيين الذين كتبوا باللغة الفرنسية ٩٤

الفصل الرابع :

الأدب الفلسطيني المكتوب باللغة الفرنسية ٩٨

الفصل الخامس :

الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية ١٠٤

قائمة بأهم الأدياء الجزائريين الذين يكتبون باللغة
الفرنسية ١٤٨

الفصل السادس :

الأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية ١٥١

قائمة بأهم أدياء المغرب الذين يكتبون بالفرنسية ١٧١

الصفحة

الموضوع

الفصل السابع :

الأدب التونسي المكتوب باللغة الفرنسية ١٧٤

قائمة بأهم أدباء تونس الذين يكتبون بالفرنسية . . ١٨١

الفصل الثامن :

أدباء عرب . . يهود يكتبون بالفرنسية ١٨٣

الفصل التاسع :

أدب المهجر الناطق باللغة الفرنسية ٢٠٥

الفصل العاشر :

السينما العربية الناطقة باللغة الفرنسية ٢١٤

قبل أن تقرأ

ليس من المثير للجدل أن المرء عندما يتصفح أرفف أية مكتبة فرنسية فإنه يجد مجموعة كبيرة من الكتب عن الثقافة العربية المكتوبة أساسا باللغة الفرنسية في نفس الوقت الذي يلاحظ أن مثل هذه العناوين تكاد تكون غير موجودة في أرفف المكتبة العربية ؟

لا شك أن المرء سيصدم لو طالع هذا الكم الهائل من العناوين الخاصة بهذا الموضوع باللغة الفرنسية . والكثير من هذه الكتب قديم تاريخا وحديث أيضا . ورغم ذلك فإنه لا يوجد في المكتبة العربية كتاب واحد يدرس هذه الظاهرة . ويقدمها الى القارئ العربى .

وليس الكتاب الذى بين يديك فقط هو الأول من نوعه فى المكتبة العربية ، بل هو أيضا الأول من نوعه الذى يفرد مثل هذه الصفحات عن الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية فى كل الوطن العربى وخارجه . وفى عناوين الكتب التى رجعنا اليها نجد هناك تقسيمات واضحة للأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية حسب المناطق . وكأنه أدب معزول . فهناك أدب فى المغرب العربى وآخر فى مصر . وكأن جغرافية ليبيا على سبيل المثال قد حجزت بين الأدبين ، ثم هناك أدب ثالث فى لبنان . أما الكتب التى تتناول الأدب الفرنكفونى فهى تتعامل أساسا مع اللغة التى تجمع بين الأدباء فى أماكن عديدة من العالم . منها كندا وبلجيكا . وسويسرا وأفريقيا . وبعض المستعمرات الفرنسية القديمة المتناثرة فى العالم . ولم يكن أمامنا سوى أن نتتبع نفس المنهج فى الكتابة

وقد أوضحنا فى هذا الكتاب ، وفى خلال فصوله العديدة أن الأدب « العربى » المكتوب باللغة الفرنسية ليس أبدا أدبا فرنسيا . رغم أنه منشور فى دور النشر الفرنسية ، ورغم أنه مكتوب باللغة الفرنسية ، لكن اللغة لم تصنع أبدا هوية قومية مختلفة للكاتب الذى ولد عربيا . ولكن ظروف نشأته وتعليمه جعلته يتقن اللغة الفرنسية التى اعتبرت بالنسبة له لغة كتابة أولى . لكنها لم تطمس أبدا فيه هويته العربية . ولو شئنا أن نقيس ذلك بشكل واضح فإن الفصل الذى قدمناه عن الأدباء اليهود الذين كتبوا باللغة الفرنسية قد بين كيفية الاختلاف

بين الكاتب اليهودى الغربى الذى يعيش فى نفس المدينة باريس .
السفاريديم منهم حيث يعتبرون أنفسهم عربا يهودا . وهم لم يناصروا
اسرائيل فى سياستها ولم يقوموا بزيارتها ولم يتخلوا عن هويتهم
العربية . وظلوا يكتبون دوما عن سنوات الحنين التى عاشوها فى
مصر والمغرب العربى .

وقد شئنا أن نضع هذا المقياس لنوضح كيف أن الأدباء العرب
الذين يكتبون باللغة الفرنسية قد ظلموا كثيرا فى أوطانهم . وقد جاءت
المأساة من أن هذا الظلم وقع من جوانب عديدة . منها مقياس حركة
الترجمة من ناحية ، ومنها النظرة اليهم نظرة بها ريبة واضحة .
وقصدية كأن هذا الكاتب الذى قد اتخذ لنفسه لغة تعبير هى أساسا
للمستعمر قد جنح بذلك الى العمالة (!!) وهو تصور ساذج سمعته
من الكثيرين الذين علقوا على عالم البير قصيرى بعد أن ترجمت له أربع
روايات . ثم فى عالم اندريه شديد . حيث نظر البعض الى هذا الأدب
الذى يدور أغلبه فى الأحياء الشعبية باعتباره أدبا يشوه وجه
مصر . وأن مصر أبدا لم تكن هذه الصواري رغم أن هؤلاء أنفسهم
قد أعجبوا كثيرا بنفس العالم فى الروايات العربية التى كتبها أدباء من
طراز نجيب محفوظ ويوسف السباعى وأمين يوسف غراب وآخرون .

كما أن هذا الأدب قد تعرض للغبن فى عالمه العربى بشكل ملحوظ
حيث أن هؤلاء الأدباء لم يشكلوا تجمعا . وكانوا بعيدين ، جسمانيا ،
عن دائرة الحلقات الأدبية . وبذلك ترك الباحثون العرب الساحة
مفتوحة لأقرانهم الأجانب ، وخاصة الفرنسيين ، للاهتمام بهذا الابداع .
والغريب أن كاتب هذه السطور - على سبيل المثال - اكتشف هذا العالم
بالمصادفة . وفى فترة متأخرة حين وقعت عيناي على رواية «شحاذون
ومعتزمون» لقصيرى . وما أن قرأت الفصل الأول منها حتى شرعت فى
ترجمتها دون أن أكملها . ثم كان ذلك بمثابة مدخل الى قصيرى : الذى
ترجمت له بعد ذلك روايات « منزل الموت الأكيد » و « العنف والسخرية »
و « كسالى فى الوادى الخصيب » .

وكما سنرى ، فإن هؤلاء الأدباء يواجهون بازدياد واجبة أدبية . فهم
فى بلادهم العربية ينظر اليهم على أنهم كتاب أجانب يعيشون فى بلد
أجنبى . ومن المعروف أن أغلبهم قد رحل الى فرنسا بعد أن تقلصت
أنشطتهم فى مصر . وخاصة بعد أن توترت العلاقات مع فرنسا عقب
العدوان الثلاثى على مصر فى عام ١٩٥٦ ، ليلاده التى جاء منها . وعندما
تغيرت كتاباته ، تحت وقع الزمن لجا الى تجريد ابداعه من الزمان

والمكان • ولم ينظر أبدا الى المكان الذى « هاجر » اليه وعاش فوقه •
لكنه أبدا لم ينفعل به كمكان •• فهو ينظرون اليه كمهاجر ليس أبدا من
أبناء الوطن • وهو فى المقام الأول أيضا مثقف « فرانكفونى » ولم
تتعامل الأوساط الفرنسية أبدا معهم على أنهم فرنسيون حتى لو حصلوا
على الجنسية الفرنسية •

ولذا ، فان فى هذا الكتاب فصولا لم نرجع فيها الى الكتب الكثيرة
التي رجعنا اليها حين اعداد هذا الكتاب • ولكن هذه الفصول وليدة
نفسها مثل الفصل الخاص بالابداع الفلسطينى المكتوب بالفرنسية والقصل
الخاص بابداع الجيلين الثانى والثالث من المهاجرين العرب الذين يعيشون
اليوم فى فرنسا • ويحملون الجنسية الفرنسية • وهم أبناء المهاجرين
الأوائل الذين سافروا الى فرنسا عقب الاستقلال أو قبله بقليل •

وقد حاولنا فى هذا الكتاب أن نرصد ، بانوراميا ، الكثير من الأسماء
المهمة فى عالم الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية • فخصصنا شبه
قاموس صغير لكتاب كل بلد فى نهاية الفصل الخاص به • هذا بالاضافة
الى القاء الأضواء مركزة على أبرز الأسماء فى بلادها •• من خلال
البحث والتحليل والرصد لهذا الأدب •

هل هو أدب عربى •• ؟

أجل •• هو أدب عربى •• وقد جاء الأوان للاعتراف به ••
وتقديمه الى القارئ العربى •• وذلك بعد هذه الظلال الكثيفة التى ألقيت
عليه •• وانسحبت فوق بساطه •

المفصل الأول :

السمات العامة للأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية

انهم من وطن واحد • وجميعهم مهاجر الى لغة وطن لا يتكلم بها
وطنه • وهم واقعون في ازدواجية ثقافية واضحة • ثقافة البلاد التي
ولدوا فيها وانتموا اليها • وثقافة البلد الذي وجدوا أنفسهم يتكلمون
لغته • أو يختارونه مهجرا •

هذا هو حال أغلب الأدباء العرب الذين يكتبون أبداعهم باللغة
الفرنسية • إن لم يكن حال جميعهم • ولا شك أن هناك مجموعة من
السمات العامة التي يمكن أن تربط فيما بينها لب هؤلاء الكتاب إن
أبداعهم • أو حتى علاقتهم بالمجتمع الذي يعيشون فيه • سواء الذي جاءوا
منه أو القادمين اليه • وسوف نتحدث هنا عن مجموعة من أهم هذه
السمات :

□ ارتبط هذا الأدب في المقام الأول بوجود قوات احتلال فرنسية في
بعض البلاد ، فلا شك أن بعض الأدباء في المغرب العربي يعتبرون أن لغتهم
الأولى هي اللغة الفرنسية • وذلك بواقع أكثر من مائة وثلاثين عاما من
الاحتلال الفرنسي لكل من الجزائر وتونس والمغرب • وقد لعب الاستعمار
الفرنسي دورا خطيرا • لم يلعبه أي احتلال آخر في دول العالم العربي •
حتى فرنسا نفسها لم تلعب مثل هذا الدور في دول أخرى احتلتها في
المنطقة ، ولعل هذا يرجع الى عدة أسباب منها الفترة الزمنية الطويلة التي
ظلت فيها قوات الاحتلال في شمال أفريقيا • وأيضا لاقترب هذه المنطقة
جغرافيا من فرنسا •

هذا الدور الذي نقصده هو « الفرنسية » أو صيغ البلاد التي احتلتها
بكل ما هو فرنسي • وخاصة اللغة • وقد تنبه الفرنسيون الى أن اللغة

باعتبارها المنطوق الأساسى للبشر ، يمكن أن تزيد من انتماء المتحدث بها الى ثقافة هذه الدولة .

وعلى مدى أجيال متعاقبة تمكنت اللغة الفرنسية من أبناء المغرب العربى . ثم بدأت هذه اللغة تصبح لغتهم الأولى . ولم يعد صعبا على المواطن العربى الذى ينتقل بين بلاده وفرنسا أن يجد أى اختلاف بين اللغة التى يتكلمها فى أى من الأرضين . فزاد احساسه بالانتماء الى الأرض الفرنسية من ناحية . كما زاد ارتباطه بالثقافة الفرنسية من ناحية أخرى .

ولذا ، فإن الأدباء العرب الأوائل الذين كتبوا بالفرنسية . لم يجدوا أية غربة أو غرابية فى أن تكون كتاباتهم باللغة الفرنسية . مثل كاتب ياسين . ليس لأن الفرنسية هى لغتهم الأولى فقط . بل لأن علاقتهم باللغة العربية كانت واهية وضعيفة ، خاصة أن تميز الكاتب غالبا ، وأساسيا هو تمييزه فى اختيار مفردات لغته الأدبية .

ولذا ، لم يكن غريبا على الكاتب أن يكتب باللغة الفرنسية فى البداية . ولعل الأمر قد تغير كثيرا مع زيادة حركة التعريب فى شمال أفريقيا . وهنا بدأت الأسباب تتغير ، حيث بدأت اللغة العربية تعود الى حالة ازدهارها القديم . ولكن بعض المثقفين وجدوا أنفسهم يمتلكون ناصية اللغة الفرنسية أكثر . ثم وجد الكثير منهم أن الكتابة بالفرنسية أفضل لعدة أسباب منها أن الكاتب يمكن أن يتعايش طيلة حياته من عائد كتاب واحد لو نشره فى إحدى دور النشر الفرنسية ، بينما عائدات الكتب الصادرة فى العالم العربى هزيلة . ولا تقيم أية حياة كريمة أو غير كريمة للكاتب . ومن هذه الأسباب أيضا كثرة المحظورات الرقابية فى العالم العربى أمام الكاتب ، وانكماش حركة النشر والقراءة ، بينما ازدهرت هذه الأمور بشكل ملحوظ فى فرنسا .

ولو نظرنا الى نفس النقطة السابقة فسوف نجد أن السمة الثانية فى الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية مرتبطة فى غالب الأحيان بالمهجر . أى هجرة الكاتب . ومن المعروف أن الأدب العربى قد شهد فى بداية القرن ما يسمى بحركة الهجرة الأولى التى اتجهت نحو أمريكا اللاتينية . وقد شهدت هذه الحركة ازدهارا ملحوظا فى الأدب العربى المكتوب خارج حدود الوطن . حيث ظل الأدباء ، لفترة ، لا يكتبون إلا باللغة العربية ، قبل أن ينوبوا وأولادهم واحفادهم فى هذه البلاد . أما حركة الهجرة الثانية فقد جاءت من شمال المغرب الى فرنسا . وقد ازدادت بشكل ملحوظ عقب استقلال بلاد المغرب العربى . ووصلت حركة

الهجرة إلى أعلى معدلاتها في نهاية الستينات ومع سنوات السبعينيات إلى درجة جعلت السلطات الفرنسية - كما جاء في جريدة الأهرام - يتأين ١٩٨٦ - إلى أن تعتبر اللغة العربية هي اللغة الثانية في المدارس الفرنسية . وقد كتبت اني كريجيه كرينكي في كتابها « المسلمون في فرنسا » أن « المناضلين الذين اشتركوا في الحرب لاجراج الفرنسيين من الجزائر قد سعوا بأنفسهم إلى فرنسا بعد أن اعلنوا : « لقد كسبنا هذه الحرب » . . . ليعملوا ويقيموا بها . ويبدو أن القادمين من شمال أفريقيا قد ارادوا أن يربوا الدين لفرنسا فسعوا لاستعمارها مثلما استعمرتهم » (١) .

ويهمنا أن نذكر ، كما جاء في نفس المرجع السابق ، أن عدد الجزائريين الذين وصلوا إلى فرنسا وصل إلى ٨١ مليون نسمة . والآن وبعد أكثر من ثلاثين عاما ظهرت ثلاثة أجيال من المهاجرين . أو حسبما يقول أحد الشباب المسافرين حديثا إلى فرنسا . . . « تتلقى ثلاثة أنماط من التعليم : تعليم من آبائنا . وآخر من مدرسينا . وثالث من الحياة » . وهذه الأنماط تتضمنارب ، هؤلاء الذين رحلوا في النصف الأول من الستينيات قد تجاوزوا الآن الثلاثين .

وتقول الكاتبة ان العرب يعملون هناك في مهن عديدة ويضع أكثرهم حينه على عالم الفنون . وتقول ان الكثير من الأعمال الانبية والسينمائية التي يبدعها المهاجرون تنادي بالارتباط بالوطن الأم من ناحية ، والعبودية إليه من ناحية أخرى ، حتى لا تنقطع الروابط بين المرح ووطنه اذا طال غيابه .

وما دمننا بصدد هذه النقطة ، فان العرب الذين يسافرون إلى فرنسا قد كتبوا باللغة الفرنسية في المقام الأول ، ورغم أن المطابع العربية قد انتقلت إلى فرنسا لتصدر الصحف والمجلات والكتب التي توزع في المنطقة العربية لأسباب سياسية وأمنية . فان ادب هؤلاء القادمين من شمال أوروبا كان في الغالب ناطقا باللغة الفرنسية . إما ما كانوا يكتبون في مجلات وصحف مثل « اليوم السابع » وغيرها فكان غالبه مترجما عن اللغة الفرنسية .

□ لم ينحصر هم الكاتب العربي الذي يكتب باللغة الفرنسية بالانبيهار فقط بالثقافة الأوربية . بل كان هنه الأول هو البيئة العربية وثقافتها

(١) Les musulmans en France, Annie K. Kriniki : Maison neuve Paris, 1985, p. 32.

(٢) المرجع السابق .

القديمة والحديثة . ولذا ، فنحن نقول اننا امام ادب « عربى » مكتوب باللغة الفرنسية ؛ لأنه مرتبط بالمكان الذى يكتب عنه . وبالناس الذين يعيشون فى هذا المكان . بثقافتهم وسلوكهم الخاص والعام . وهو دائما تسير هذا المكان الذى عاش فيه أغلب سنوات طفولته وشبابه لا يستطيع أن يتزع نفسه منه . وأغلب هؤلاء الأدباء عرفوا لحظات الابداع الأولى فى بلادهم قبل أن يفكروا فى الرحيل الى أوربا . بل ان الكثيرين منهم قد نشروا كتاباتهم الأولى فى بلادهم قبل أن يفكروا فى الرحيل الى فرنسا . وعندما ثم الرحيل ، وهو غالبا رحيل اختياري ، فان الكاتب ظل ملتصقا بوطنه . ليس فقط من خلال احتفاظه بالجنسية العربية التى جاء منها . بل أيضا فى ارتباطه بالأرض النبع .

ولعل هذا يرجع الى عدة أسباب : منها أن الكاتب مهما فعل ، ومهما تجنس بالجنسية الفرنسية فهو فى منظور الوطنيين الفرنسيين « اجنبيا » مهما فعل . كما أن القارئ الغربى يميل الى أن يقرأ عن أجواء الشرق ، بلغته ، من قبل أدباء قادمين بأنفسهم من هذه المنطقة وينتمون اليها . وليسوا مجرد سائحين سافروا ليضعة أيام أو أكثر للإقامة فى الشرق ، ثم يعودون مرة أخرى حاملين ذكريات عابرة .

لذا ، فنحن نؤكد أنهم أدباء « عربى » أبداعا وانتماء . وقد تكون هناك حالات استثنائية ، غيرت فى ابداعاتها الأدبية مثلما حدث مع جويس منصور مثلا . لكن هذه الشاعرة المصرية كانت منذ البداية سريالية الاتجاه . حاولت فى كل أعمالها تجريد المكان من مبدولاته ورموزه .

والكاتب العربى الذى هاجر الى فرنسا للمعيشة فيها كان مضطرا بدافع الضرورة . قلوب لم يفغل ذلك فلن يكون مقروءا ، لا فى بلاده ، ولا فى فرنسا . مثلما حدث مع الشاعر المصرى أحمد راسم . وهؤلاء الكتاب لا ينهبون عند سفرهم الى فرنسا بنفس الدرجة التى تحدث لمن يكتبون عامة باللغة العربية ؛ لأنهم يحسون أنهم توجهوا الى بلد يعرفون لغته وثقافته . موجود داخلهم . وكثيرا ما تدفع الهجرة ، أو فنقل النفس الاختياري ، الكاتب الى أن يرتبط أكثر بجذوره القادم منها ، ولا ينفصل عنها . وبعض هذا الأدب يتحدث عن التباين الذى اكتشفه الكاتب فى هذا المجتمع الذى يعامله على أنه « عربى » ، أو مواطن من الدرجة الثانية فلا يسعى الى نقي هذه الهوية . بل يؤكد ما هو فى كلا الجانبين : الغربى والفرنسى يعتبر غريبا ، واجنبيا . وقد اتضح هذا الأمر فى مقدمة رواية « نجمة » للكاتب الجزائرى كاتب ياسين حيث أكد صاحب دار نشر سوى Seuil أننا أمام كاتب اجنبى .

□ لعبت المدارس الأجنبية التي تم انشاؤها في كل من مصر ولبنان وسوريا دورا في تكوين مجموعات من الناس يحسون انهم ينتمون الى ثقافة واحدة . ففي البداية تم انشاء مدارس فرنسية لأبناء الخبراء والموظفين الفرنسيين الذين استعان بهم الحكومات في مصر والشام ، ثم بدأ أبناء البلد من المواطنين في الانضمام الى هذه المدارس . وقد خلقت هذه الظاهرة التعامل المباشر باللغة أولا في المجتمعات المغلقة ، كالببوت والنوادي والصالونات ، باللغة الفرنسية . وقد اعتبرت هذه الظاهرة سمة من سمات الارتقاء الاجتماعي . لأنه في تلك الآونة ، وربما حتى الآن ، فان تكاليف الدراسة في مثل هذه المدارس لا تتناسب سوى مع أصحاب الدخول المرتفعة . وقد تولدت صداقات عميقة بين المتحدثين بالفرنسية أو «المتفرنسين» . وظهرت حركة نشطة لصناعة أدبهم بدأت أولا في المدن الساحلية كالاسكندرية ، ثم انتقلت الى العاصمة . بمعنى أنه كان هناك الأدباء أولا . ثم كان لابد من ظهور صحف ومجلات لتستوعب كل هذا الانتاج . ثم كان لابد من ظهور نقاد لهذا الأدب من الذين يكتبون أيضا باللغة الفرنسية

□ انقسمت المنطقة العربية جغرافيا الى قسمين رئيسيين ، حسب البيئة التي يتكلم بعض ادبائها باللغة الفرنسية . القسم الأول يمثل مصر وسوريا ولبنان . ثم القسم الثاني الذي يمثل المغرب والجزائر وتونس . وقد بدا كأن هناك انقسام ما وازحا بين القسمين . وفي كل منهما كانت حركة الأدباء واتصالاتهم تتم بشكل حيوى . بينما تبدو الأمور كأن هناك سورا عاليا يفصل بين القسمين . فقد راح أدباء لبنان وسوريا ينتقلون بين القاهرة وببيروت . فتعلم أبناء دمشق وببيروت في بعض مدارس الاسكندرية . وصنع هذا أدبا عربيا وليس محليا . فقد أحس اللبناني غالبا أنه في وطنه مصر . وكم كتب عنها كأنه مصرى . مثل جان أركاش وأندريه شديد وسيلين اكسلوس . وفي الكتب التي تتحدث عن أدباء لبنانيين يكتبون بالفرنسية نجد ان الكثيرين منهم عاشوا طويلا في مصر . وليس بين ايدينا من كتاب مغاربة جاءوا للعيش في القاهرة سوى روبيريلوم الذي جاءت أسرته من تونس لتعمل في القاهرة عام ١٩٠٤ ولكن اقامته لم تطل بها . حيث رحلت أسرته عام ١٩٢٤ الى باريس .

أما في المغرب العربي فقد بدت الصلة قوية بين أدباء الدول الثلاث . ولكن حالات الاتصال مع أدباء الشرق العربي لم تكن بنفس القوة . ولعل هناك اتصالا حدث فيما بينهم عندما اختار الكثير منهم باريس من أجل الإقامة فيها . فارتبط بعضهم بصداقات قوية مع الأدباء الفرنسيين ، مثلما حدث مع البير قصيرى وأندريه شديد . بينما راح كاتب مثل الطاهر بن جلون

يكتب عن الأدب العربي بشكل عام وتعريف القارئ الفرنسى باتجاهاته وجذوره

□ هناك ظاهرة فى غاية الأهمية وهى أن الأدب العربى المكتوب بالفرنسية لم يقتصر على أبناء طائفة دون غيرها ، أو أبناء دين دون غيره . فهناك أدباء يونانيون اختاروا الكتابة باللغة الفرنسية ، وهناك أدباء أرمن كتبوا أيضا فى مصر باللغة الفرنسية . بل هناك من لهم جذور ايطالية ، كما كتب هذا الأدب مسيحيون ومسلمون ويهود . وإذا كان بعض الكتاب قد اهتم ، بشكل عابر بمسألة الدين ، خاصة بعض اليهود ، فإن الكاتب العربى الذى يبدع باللغة الفرنسية كان همه الأساسى هو الارتباط بالمكان . . حيث كان لدى هذا الكاتب شغف خاص بالمكان . سواء عندما عاش فوقه . أو عندما هجره الى أرض أخرى للقامة فيها . فأدباء مثل البير قصيرى وقوت القلوب وكاتب ياسين وأدريس شرايى ورشيد بوجدره قد كتبوا عن بلادهم العربية ، واختاروا قاع هذا المجتمع بالذات ، وهم يعيشون فوق أرضها . وذلك قبل أن يرحلوا الى فرنسا . وسوف نرى أن الأدباء المغاربة من اليهود قد ارتبطوا على سبيل المثال بالحركة الوطنية المناهضة للاستعمار . . وسوف نرى أن هؤلاء الأدباء اليهود من المصريين قد توجهوا الى فرنسا ولم يفكر أى منهم فى الاتجاه الى تل أبيب ، كما لم يشأ أى منهم أن يمارس لعبة السياسة ، وكانوا يكتبون دائماً عن أوطانهم التى جاءوا منها خاصة ادمون الياس ، أوجايبس ، الذى ترك مصر عام ١٩٥٧ وظل يكتب قصائد عن الصحراء المصرية حتى مات عام ١٩٩٠ .

وإذا كانت المدارس الفرنسية قد استقبلت فى أول الأمر الكثير من المسيحيين فى مصر ، فإن المسلمين ما لبثوا أن التحقوا بهذه المدارس . وهكذا فإن الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية كان مرتبطاً فى المقام الأول بالمكان قبل الديانة . بل إن الدين كان يأتى دائماً فى الخلفية ، حيث كان اهتمام هؤلاء الأدباء هو الاطلاع على الثقافات المعاصرة . والتعريف بها . ومحاولة تحطيم الاشكال التقليدية فى الفن ، وخاصة فى فن الشعر .

□ هناك سمة غريبة فى لغة الكاتب ، وخاصة الروائى العربى الذى يكتب باللغة الفرنسية . فعند قراءة أعمال البير قصيرى أو أندريه شديد . أو عند قراءة الأعمال الأخيرة لكاتب ياسين أو الطاهر بن جلون ، فسوف نلاحظ أن الحوار الفرنسى المكتوب فى هذه الروايات مكتوب أساساً فى داخل الكاتب باللغة العامية . وإن الكاتب قد قام بترجمته من هذه اللغة المحلية الى الفرنسية مباشرة . وقد اتضحت هذه الظاهرة فى روايات من

طراز « نوم الخلاص » و « اليوم السادس » لاندريه شديد . حيث ان أيجلها يسكنون البيئات الشعبية . ويستخدمون مصطلحات شعبية في المقام الأول . وتبدو هذه الكلمات واضحة لدى متابعيها . ولا شك أن من قام بترجمة مثل هذه الروايات سوف يقع في حيرة أمام ترجمتها اما بالفصحى أو العامية . وقد حدث هذا لمترجم رواية « نوم الخلاص » المنشورة في روايات الهلال عام ١٩٩١ . والغريب أن القارئ لم يستسغ هذه اللغة ، باعتبار أنه أمام أدب مترجم . ولذا ، فإن كاتب هذه السطور قد وقع في نفس الحيرة وهو يترجم روايات « شحاذون ومعتزون » و « منزل الموت الأكيد » و « العنف والسخرية » لألبير قصيري الى اللغة العربية . واختار اللغة العربية البسيطة خاصة عند ترجمة الحوار ، رغم أنه يعرف أن في هذا قصورا واضحا .

□ انحصر الابداع العربى المكتوب باللغة الفرنسية فى الشعر فى المقام الأول . ثم فى الرواية وفن القص بشكل عام . وقد جاء الشعر فى هذا المقام لما لهذا الفن من مكانة لدى المبدع العربى فى المقام الأول . وقد استفاد الشاعر العربى الذى يكتب بالفرنسية ، خاصة فى الشرق العربى ، من شكل القصيدة الفرنسية . فراح يسعى بدوره الى كسر البنية التقليدية للقصيدة العربية . ولم تجيء الاتجاهات الحديثة فى الشعر المعروفة باسم الحداثة الا من خلال هذا الالتقاء .

وبينما غلب فن الشعر فى مصر ولبنان وسوريا الى جانب الرواية . فان الروائيين قد تملكوا ساحة الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية فى المغرب العربى . وبشكل عام ، فان هذا يرجع الى الحركة التاريخية . باعتبار ان الأدب العربى المكتوب بالفرنسية فى الشرق العربى كان اقدم من مثيله فى المغرب العربى . وعليه ، فقد بدأ بالشعر ، ثم لمعت الرواية . أما الأدباء العرب فى المغرب فقد ظهروا فى منتصف الأربعينات فى زمن ازدهار الرواية . ورغم هذا فان الكثير من هؤلاء الكتاب قد كتبوا الشعر والرواية فى نفس الوقت . مثل الطاهر بن جلون واندريه شديد وكاتب ياسين وغيرهم .

□ من الغريب أن هذا الأدب قد احتضنه الفرنسيون وقدموا عنه الكثير من الدراسات . بينما ندرت مثل هذه الدراسات فى الوطن العربى . وعلى مدى علمي ، فانه لا يوجد كتاب واحد باللغة العربية عن هذا الأدب . ولكن حكومات المغرب العربى تنظر دائما بعين الارتياح الى الهجرة الدائمة التى يقوم بها بعض أبنائها الى أوروبا . حيث ان أغلب المهاجرين يحققون انجازات بارزة فى ميادين الأدب والفن بشكل عام . فقد حظى عرب عديدون بمكانة متميزة فى مجال الأدب والسينما . وسعيا وراء

تقليل المسافة بين المهاجرين وأوطانهم فإن الجزائر ، مثلا ، تبث اذاعة لابنائها في المهجر باللغة العربية وتذيع القرآن الكريم والسنة النبوية . وبعض التعاليم الدينية التي يجب أن يحافظ عليها المسلمون في غربتهم وحثهم على اتباع تعاليم دينهم والارتباط بالتقاليد الشرقية اينما كانوا . ولذا ، فإن العربي ما أن يعود الى بيته حتى يحس أنه عاد الى بلده . لأنه مؤثث على الطراز العربي : الجدران والاثاث واللغة . ولذا فإن الحنين أقل حدة . ولا شك أنه قد ظهر نوع ثالث من الأفراد الذين مزجوا بين العربية والفرنسية ليس فقط في اللغة . ولكن أيضا في العادات المتناقضة بين العالمين .

كان السؤال المطروح دوما هو عن علاقة الكاتب العربي المهاجر بالوطن الذي هاجر اليه . فهل يعد الكاتب العربي المهاجر الى باريس عبئا على ثقافتها ، أم اضافة اليها ؟ . لقد خصصت الحكومة الفرنسية في عام ١٩٧٧ مبلغ عشرة آلاف فرنك لكل مهاجر يعود الى بلده . ففرنسا اذن تسعى الى التخلص من بعض العمالة المهاجرة اليها وليس كلها . لكن بلاشك ، فإن فرنسا مستفيدة من هذه العمالة على المستوى المهني من ناحية . ومن الناحية الثانية على المستوى الفكري والثقافي كما قال عبد الله بوحميدى : « ان ما قدمه المهاجرون الى الثقافة الفرنسية لم يكن يستهان به في خاتمة المطاف . فبفضل رحلاتهم المتعددة بين شواطئ البحر المتوسط شمالا وجنوبا اصبحوا يشكلون رابطة عضوية بين فرنسا والمغرب العربي ويسهمون بذلك في التقاء الثقافتين » (١) . كما انها اصبحت أكثر وعيا بتعدد مقومات هويتها . فقد تعرفت تلك الهوية على حقيقتها . ووقفت عند مصادرها ثرائها . والأدب المكتوب باللغة الفرنسية صادر أغلبه ، خاصة في السنوات الأخيرة ، عن دور النشر الفرنسية . وقد كان جزء كبير من هذا الابداع منشورا في البلاد العربية خاصة المكتوب في العشرينات والثلاثينات والأربعينات في مصر ولبنان . لكن الأدب العربي المكتوب بالفرنسية في السنوات الأخيرة صادر داخل فرنسا ويتمويل فرنسي . ومع ذلك فانه يحمل روحا جديدة وهوية مختلفة . فبدأ كان بعضه قد تم تطعيمه بخبرات الهجرة . فالازدواج الثقافي أصبح غالبا . وبدأت الحركية في الاعمال الابداعية الجديدة . وقد أدى ذلك الى ازدهار هذا الأدب بشكل ملحوظ يدفعنا الى أن نخصص له كتابا .

الفصل الثاني :

الأدب المصرى المكتوب باللغة الفرنسية

لماذا نشطت اللغة الفرنسية كلغة تعبير فى مصر • رغم أن فرنسا لم تحتل مصر مثلما فعلت فى الجزائر ؟ وكان الاحتلال بريطانيا لأكثر من سبعين عاما ؟

يرجح الكثيرون من المحللين أن هناك أسبابا عديدة من أبرزها الحملة الفرنسية التى جاءت لمدة ثلاث سنوات فى أواخر القرن الثامن عشر • ثم لأن محمد على قد توجه الى فرنسا من خلال مشروعه الحضارى وليس الى انجلترا • فقد أرسل البعثات الأولى ، خاصة ما يرتبط منها بالتعليم والثقافة ، الى فرنسا •

ورغم أن الحملة الفرنسية التى انتهت عام ١٨٠١ قد خلقت فى قلوب المصريين المرارة والحزن ، إلا أن الفرنسيين بعد أن رحلوا تركوا وراءهم أشياء عديدة لم يكن يمكن تجاهلها • مثل آلات الطباعة ومركز أبحاث علمى • ومعهد للدراسات • ولم يكن أمام المصريين سوى استغلال هذه الأشياء خاصة أن محمد على الذى صنع النهضة فى مصر قد جاء الى مقعد الحكم بعد رحيل الفرنسيين بأربع سنوات • فقد راح محمد على يستعين بالخبرات الأجنبية من أجل تحديث بلاده ، خاصة فى مجال صناعة الأسلحة • وفكر محمد على فى الفرنسيين فى المقام الأول • كما فكسر فى الإيطاليين • وقد كانت فرنسا أكثر تأثيرا وقوة فى تلك السنوات من إيطاليا • على الأقل على المستوى الاقتصادى •

وهكذا بدأت اللغة الفرنسية تدخل بصفة رسمية الى مصر • فلم يكن للخبراء الفرنسيين أن يتعاملوا مع قوم لا يتكلمون لغتهم • وأحس محمد على أنه من الأهمية بمكان أن يتعلم للضريون اللغة الفرنسية ، فأرسل المبعوثين الى فرنسا • وكان من بينهم كما هو معروف ، رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك • وجاء الفرنسيون كى يصنعوا صحافة على شياطين النيل •

وقد ساعد احساس المصريين بأنهم فى حاجة الى الفرنسيين على تخفيف اجواء التعصب ضد الاجانب . وقد شجع نجاح المشروعات التى يقوم بها الفرنسيون ابناء الجاليات الاخرى على القدوم الى مصر مثل اليونانيين والأتراك واللبنانيين والارمن وغيرهم .

وزاد نشاط الاجانب فى اوجه الحياة الاجتماعية فى مصر . وراجت تجارة الاغذية . وقد جعلت هذه الظاهرة المدن المصرية ساحة جديدة لأبناء الجاليات الذين يتكلمون بلغاتهم الأصلية . على الأقل بشكل شفاهى . ومن هنا بدأ المصريون يتعلمون هذه اللغات ، وقد جلب هذا أيضا الى المصريين عادات جديدة وشعائر واحتفالات صنعها الاجانب . أو جلبوها من بلادهم .

وشينا فشيئا بدأت هذه الجاليات فى النمو عددا . وبدعوا يفتحون لأبنائهم مدارس خاصة لتعليم اللغات القومية بالاضافة الى اللغة العامة فى البلد . وأصبحت اللغة الفرنسية هى اللغة الأولى ، كما أصبح للاجانب دور العلاج الخاصة بهم . ثم نواديهم . وساعد هذا على ارتفاع أهمية رجال الأعمال ودورهم فى المجتمع حيث عملوا على جلب عدد آخر من مواطنيهم من أجل مساعدتهم . كما شهدت البلاد ظاهرة الاقتران بين ابناء الجاليات الاوربية والأجنبية .

وفى نهاية حكم محمد على كان بعض الفرنسيين قد وصلوا الى مناصب ادارية عليا فى البلاد . كما كانت مصر دائما مصدر جذب . بمنأىها المعتدل للأجانب .

ويقول جان جاك لوتى Jean Jaques Luthie صاحب أشهر كتاب عن « اللغة الفرنسية فى مصر » (١) ، ان هناك سببا دينيا كان يحول دون وجود الاجانب فى البلاد . حيث ان السلطان العثمانى كان يتصرف بصفتة المدافع الأول عن الاسلام . ولكن محمد على قد شجع تواجد الفرنسيين . ولعب ابناءؤه دورا كبيرا فى التعاون مع الفرنسيين .

ويقول الكاتب ان المدارس الأجنبية قد لعبت دورا سياسيا فى تجميع ابناء الجاليات الأجنبية من ديانات مختلفة ليصبحوا تلاميذ فيها . ومن أهم هذه المدارس : الفرير للآخوة المسيحيين ، والآباء اليسوعيون . كما ظهرت بعد ذلك المدارس الانجليزية مع دخول الاحتلال البريطانى . وبداية القرن الحالى . وكانت هناك لغات أخرى سائدة مثل اليونانية والاطالية . فقد تم افتتاح أول مدرسة من مدارس الفرير المسيحية فى

الاسكندرية عام ١٨٤٧ • ثم مدرسة الفرير اللازاريين عام ١٨٥٢ •
« ومدرسة الآباء لصحبة المسيح » فى القاهرة عام ١٨٧٩ • « ومدرسة
الآباء للمهمات الأفريقية » فى طنطا عام ١٨٨٣ • ثم مدرسة « الفرير
البومرية » عام ١٩٠٣ • كما تم افتتاح مجموعة من المدارس لتعليم
البنات • مثل « الأخوات سان فانسان بول » فى الاسكندرية عام ١٨٨٤ •
ثم مدارس أخرى فى القاهرة • وقد وصل عدد مدارس اللغات الفرنسية
للبنات التى تم انشاؤها حتى عام ١٩٣٥ اثنتى عشرة مدرسة والتى انتشرت
فى انحاء البلاد •

وبالإضافة الى ذلك ، تم انشاء معاهد تعليمية مثل « مدرسة الحقوق
الفرنسية » التى تأسست عام ١٨٩٠ • وفى مجال التعليم فان الدولة لم
تتوقف عن ارسال بعثاتها التعليمية الى الخارج حيث بدأت البعثة الأولى
عام ١٨١٥ ثم سافرت البعثة الثانية عام ١٨١٩ • وقد درس مئات من
الطلاب المصريين دراسات عليا فى فرنسا • ونظروا الى باريس باعتبارها
منبعا للقانون والأدب • باعتبار أن مصر فى تلك المرحلة كانت تعتمد على
نصوص القانون الفرنسى (تم ذلك حتى عام ١٩٥٠) •

كان نابوليون بوناپرت قد أنشأ « معهد مصر » فى عام ١٧٩٨ •
ولكن تم اغلاقه مع رحيل الفرنسيين فى عام ١٨٠١ • وفى عام ١٨٥٩
أعيد فتحه تحت اسم « المعهد المصرى » ثم استعاد اسمه الأول عام ١٩١٨ •
وقد اهتم بدراسة المجتمع المصرى جغرافيا وسياسيا • وقد آمن العاملون
بهذا المعهد أن مصر هى نافذة العالم • فكانوا يدخلون منه الى أوروبا •
وفى عام ١٨٨٠ تم انشاء المعهد الفرنسى للآثار الشرقية • والسبب كانت
مهمته - ولا تزال - دراسة مصر القديمة ، وأيضا تاريخ الحضارات
الشرقية بشكل عام • وقد أصدر المعهد مطبوعات شبه دورية •

وقد تم انشاء مجموعة من الادارات والمؤسسات التى تعاملت مع
اللغة الفرنسية فى المقام الأول • ومن هذه المؤسسات جمعيات أدبية وفنية
عديدة • مثل « الاتحاد الفنى » الذى تم انشاؤه عام ١٨٩٨ • وقد ظل
لمدة عشرين عاما مسرحا لعرض أهم الأعمال المسرحية الفرنسية والمصرية •
وفى عام ١٩٢٠ تكونت « جماعة أصدقاء الفن » • والتى استمرت نشاطها
اثنى عشر عاما • وتم انشاء « اتيلية الفنانين » عام ١٩٣٣ بواسطة الفنان
التشكيلى محمد ناجى • وقد ظل هذا الاتيليه ، وما يزال ، بؤرة للنشاط
الفنى فى الاسكندرية حتى الآن • أما القاهرة فعرفت نشاطا ثقافيا كبيرا
حيث تكونت جماعات مثل « المحاولون » عام ١٩٢٤ ، و « أصدقاء الثقافة
الفرنسية فى مصر » عام ١٩٢٦ ، ثم « اتحاد كتاب مصر » الذين يكتبون

« الفرنسية » عام ١٩٢٩ • وجماعة « الضيافة » عام ١٩٣٠ • ثم جماعة « الفن والحرية » عام ١٩٣٩ التي اهتمت بالفن السريالى •

وقد أوقفت الحرب العالمية الثانية أنشطة أغلب هذه الجمعيات • ثم اهتزت العلاقات الفرنسية المصرية بعد حرب السويس • ولم يبق الآن من مؤسسات لها أنشطة فى هذا المضمار سوى مؤسسات قليلة مثل الأتيليه بـالاسكندرية ، والمركز الثقافى التابع للقنصلية الفرنسية فى القاهرة والاسكندرية •

وفى فترة الثلاثينات والأربعينات ازدهرت الصالونات الأدبية مثل صالون جريجوار سيركسيان فى الاسكندرية ، وصالون الاميرة نازلى ، والكاتبة قوت القلوب البمرداشنية •

ويقول جان جاك لوتى فى كتابه الذى اعتمدنا عليه فى هذا الجزء من التقديم التاريخى ، ان أول صحيفة صدرت فى مصر باللغة الفرنسية حملت اسم « لوكوريير دى جييت » عام ١٧٩٨ و « لاديكا دى جبسيان » فى نفس العام ، اعتمدت الأولى على المعلومات والأخبار • أما الثانية فكانت ذات صبغة علمية • وفى عصر اسماعيل ظهرت مجلات سريعة ولم تتكرر المحاولة • ثم ظهرت جريدة « النيل » التى كانت تصدر كل اسبوعين • وهى تهتم بالأخبار والاقتصاد • وكان يطبع منها ١٦٠٠ نسخة • وسرعان ما تطورت الصحف الفرنسية ، فظهرت جريدة « البسفور المصرى » عام ١٨٨١ التى ما لبثت أن توقفت بعد الاحتلال الانجليزى ، وقد ساعد اغلاقها على اعطائها الكثير من الأهمية • وخلقت رأيا عاما مؤثرا فى الأوساط الشعبية • فعادت مرة أخرى إلى الظهور • وكانت تتابع العروض المسرحية والفنية ، ثم أغلقت عام ١٨٩٥ •

وقد تعددت الصحف ، وتخصصت بعضها مثل « البورصة المصرية » عام ١٨٩٩ • وشهدت سنوات العشرينات نشاطا ملحوظا فى صدور صحف يومية مثل « الحرية » عام ١٩٢١ ، و « الخبر » عام ١٩٢٥ ، و « الفنار المصرى » عام ١٩٢٥ وكانت تصدر بين القاهرة والاسكندرية • ومن أهم هذه المطبوعات « مصر الجديدة » التى دافعت عن حرية الفتاة المصرية • وهناك أيضا « المصرية » التى صدرت لمدة عشرين عاما • أما أهم المجلات فهى « الاسبوع المصرى » عام ١٩٢٦ وهى مجلة أدبية وسياسية • وقد استطاعت أن تصبح مركزا ثقافيا لأغلب الأدباء الذين كتبوا بالفرنسية ، وكان من أشهر أدبائها جورج حنين وأحمد راسم • وفى عام ١٩٣٨ صدرت مجلة « القاهرة » التى كانت لسان حال المفكرين المصريين •

وقد صدرت مجلة « ايماج » عن دار الهلال عام ١٩٢٩ . الا ان كل هذه المطبوعات قد اختفت تماما بعد عام ١٩٥٦ . بينما صدرت جريدتان باللغة الفرنسية لا تزالان تصدران حتى الآن هما « لويروجريه اجيبسيان » و « جورنال دي جيت » .

تركز نشاط الأدباء العرب الذين يكتبون باللغة الفرنسية في ثلاثة مجالات رئيسية : الشعر والرواية ، ثم المقالات والفلسفة والنقد ، وعندما جاء الشعر الفرنسي الى مصر . وجد نفسه في مواجهة ثقافة فنها الأول على مدى التاريخ العربى وهو الشعر ، ويقول جان جاك لوتى فى كتابه السابق الاشارة اليه ان الشعر العربى فى القرن التاسع عشر بدأ يغير مجراه بعد احتكاكه بالشعر الفرنسى : وقد تميز الكثير من الشعراء العرب فى تلك الفترة بنزعاتهم الرومانسية فى جوهرها .

وقد ظهر الشعراء البارنثيون بعد الرومانتيكيين . وكان ذلك انعكاسا للتغيرات الاجتماعية التى شهدتها البلاد . ثم ظهرت المدرسة السريالية فى عام ١٩٣٧ . وقد كثفت هذه المدرسة كل جهودها من أجل تبني كل من يسعى لايجاد أشكال فنية جديدة واختراق الأشكال التقليدية . ووجدت هذه المدرسة من ينضم اليها ممن يكتبون بالعربية والفرنسية على السواء . وضمت بعض الأسماء التى لم تنتم الى السريالية نفسها ومنهم البير قصيرى . وأحمد راسم . وقد حاول الأدباء الذين يكتبون بالفرنسية استلهاهم البيئة المحلية لتكون نسيج أعمالهم الابداعية . ويرى ج . ج . لوتى أنه ليس من الغريب أن أهم شعراء هذه المرحلة كانوا ممن يكتبون عن البيئة المصرية ولم يحاولوا الانفصال عنها مثل راسم جان عراش .

ظل شكل القصيدة يتطور دائما ويتغير على أيدي الأدباء العرب الذين يكتبون باللغة الفرنسية . وكانت قضية الشاعر دوما هى الحصول على أكبر قدر من الحرية فى التعبير . ووسط هذه الاجواء بدأت الحلاقات السياسية تتوتر . ووجد البعض - حتى ما قبل ذلك - ان فرص النشر فى باريس ستكون أفضل . علما بأنها لم تكن أبدا سيئة . لكن بلا شك فان أشياء كثيرة قد تقلصت . ومن هنا شد بعضهم الرحال الى باريس مثل جويس منصور واندرية شديد .

أما فى مجال القصص والحكايات : فمن المعروف أن أول كتاب عربى جذب اهتمام الفرنسيين هو « ألف ليلة وليلة » . وقد ظهر القصاصون الذين يكتبون بالفرنسية قبل ظهور الشعراء . فقد كتب جوزيف اجوب كتابه « الحكيم هيكار » عام ١٨٣٥ . ورغم أن الكتاب كان بمثابة محاولة ساذجة الا أن التجارب اللاحقة كانت أفضل ، مثل

كتاب « اللآلئ المتناثرة » لوصف بطرس غالى المنشور عام ١٩٢٣ .
وقد فتح ذلك الباب لظهور مجموعة من المجموعات القصصية القصيرة
المنشورة على فترات مختلفة مثلما فعل البير قصيرى ، وأندريه شديد ،
وميرى فانسان .

ولم يكن ميدان الابداع فى القصة القصيرة بخصب لدى هؤلاء
الأدباء قدر الابداع الروائى الذى وجد فرسانه . ولا شك ان نجاح
رواية « زينب » المنشورة باللغة العربية عام ١٩١٤ . قد شجع اثنين من
الكتاب هما البير عدس والبير جوزييوفتش ان يقدموا «كتاب جحا البسيط»
فى عام ١٩١٩ حول بعض نواير جحا . وفى الفترة بين عامى ١٩٢٤
و ١٩٢٩ نشر فرانسوا بوجان ثلاثيته « منصور » . ويقول لوتى فى
كتابه (١) ان هذه الثلاثية محاولة لتأصيل التدين لدى الطبقة البرجوازية
المصرية المحافظة . وبينما كانت الدولة تتجه نحو الصناعة قدمت اليان
فينين رواية عن حياة الفلاح الذى يرسم الحقول ويهندسها من أجل مد
المصانع بما تحتاجه وذلك فى رواية « مناضلو النيل » عام ١٩٢٨ . وقد
قدمت نفس الكاتبة رواية أخرى أرخت فيها لثورة ١٩١٩ تحت عنوان
« حسين » ، ثم رواية ثالثة عن العلاقة بين اليهودية والاسلام عام ١٩٢٣
باسم « عباد الله » .

وقد اهتم الكثيرون من الأدباء المصريين الذين كتبوا بالفرنسية
بالحياة فى الريف ، ومنهم ايضا أندريه شديد التى قدمت روايتها الأولى
« نوم الخلاص » عن فتاة ريفية تعاني القهر من زوجها دائما .

أما البير قصيرى فيعتبر من أهم الكتاب الذين توغلوا فى أروقة
مدينة القاهرة وأحيائها الشعبية فى روايات من طراز «شحاذون ومعتزون»
و « منزل الموت الأكيد » ، وقد حاول البعض أن يسير على نفس النهج الذى
مشى عليه أقرانهم الذين يكتبون باللغة العربية . بالكتابة عن أجواء
الأسرة المصرية وأساليب حياتها ، حتى لو كان التمرد فى العلاقات
واضحاً مثلما فى رواية « زنوبة » لقوت القلوب و « برمزة » ، وأيضا
أندريه شديد فى أعمالها « نوم الخلاص » و « اليوم السادس » ، وفوزية
أبعد فى « المصرية » ، الا أن البعض الآخر حاول أن يخرج عن أجواء الأسر
مثلما فعل قصيرى فى « شحاذون ومعتزون » .

(١) المرجع السابق ، ص ٤٤ .

وفي مجال الابداع المسرحى كانت التجارب والمحاولات قليلة للغاية .
وأغلب الذين كتبوا عن مصر من مسرحيات كانوا من الفرنسيين المقيمين .
وذلك لأن المسرح فى المقام الأول ليس نصا ادبيا بقدر ما هو نص يجب
أن يشاهده الجمهور . وكان لابد لهؤلاء المبدعين أن يفرزوا
من داخلهم من يكتب نقدا لأعمالهم ويتابعها . ولذا برزت بعض الأسماء
فى مجال النثر غير الابداعى مثل راؤول كمال والأمير عمر طوسون
وروجيه جوديل وأنور عبد الملك .

قوت القلوب :

قوت القلوب الدمرداشية هي واحدة من شهيرات الكاتبات المصريات اللائى يكتبن باللغة الفرنسية ، كما أنها من أوائل سيدات المجتمع المصرى اللائى آمن بقيمة الكلمة ، وفتحت بيتها ليكون صالونا أدبيا يأتى اليه أبناء المجتمع البارزون من الرجال والنساء .

ولم تكن قوت القلوب امرأة متفرنسة ، بل هي امرأة مصرية ، سواء فى الدور الذى قامت به اجتماعيا ، أو فى ادبها الذى لم يجد طريقه الى اللغة العربية ، مما ساعد على أن تصبح مجرد شخصية هامشية ، بل يكاد لا يكون لها وجود فى خريطة هذا الأدب ، والسبب بالغ البساطة ، أن رواياتها ، وقصصها القصيرة لم تترجم حتى الآن الى اللغة العربية ، شأنها فى ذلك كل اقرانها الذين كانت هناك ايد خفية لموضعهم وراء الهامش بحجة ان لغة الابداع عندهم غير عربية .

ولذا ، مرت السنون الطويلة ، دون أن ينتبه الناس الى هذا الأدب ، وأصبح من الأهمية بمكان اللقاء الضوء على هؤلاء الكتاب وخاصة أن المراجع التى يمكن للمرء الرجوع اليها لمعرفة المزيد عن هؤلاء الأدباء كثيرة باللغة الفرنسية .

وتكاد تكون قوت القلوب هي الأدبية الوحيدة التى ارتبطت رواياتها بالأجواء الشرقية ، وعالم النساء فى الحريم ، وقد امتزجت أجواؤها أيضا بالصوفية ، وهو ليس أمرا غريبا على امرأة عاشت فى أسرة متصوفة شهيرة .

وقوت القلوب المولودة فى أواخر عام ١٨٩٢ تنتمى الى أسرة تنحدر من سلالة أحد أمراء المماليك . هذا الملوك بدوره قادم من القوقاز مع العثمانيين الذين أتوا الى مصر عام ١٥١٧ . وقد حملت هذه الأسرة اسم « تيمور تاش » والذى تحول بمرور الوقت الى الدمرداشية . وتقول عن ابيها فى روايتها « ليلة المصير » المنشورة فى باريس عام ١٩٥٤ : « كان معروفا بحكمته ، ينمى فينا حب عاداتنا ، دون أن يعرفنا أهمية التربية الحديثة . فالى أبى الذى ظل شيخا طوال سبعين عاما واعطانى النموذج الحى للرحمة » .

وقد كتب ناصر الدين النشاشيبي فصلا عنها فى كتابه : « نساء من الشرق الأوسط » قال فيه : « انها من عائلة رائدة فى التصوف . وكانت الطريقة الدمرداشية فى التصوف تمتاز بالتربية الذاتية ، والخلوات الفردية ، والتعبد الفردى . انها مجرد واحدة من بين أكثر من ستين طريقة دينية صوفية فى مصر . كما استمرت الطريقة الدمرداشية كغيرها من الطرق الصوفية المصرية تحاول أن تجمع فى مسلكها وتصرفات أنصارها وخطوات المسئولين فيها شيئا من مظاهر الاحتفالات الدينية الصاخبة التى يسيطر عليها التطرف فى الاداء ، والصخب فى الصوت ، والضجيج فى الابتهالات ، مع الحرص على المساهمة فى خدمة المجتمع . ورعاية الفقير وتعليم الأولاد ، »

« لقد عاشت قوت القلوب الدمرداشية وهى تسبح عكس التيار بالنسبة لانتمائها الصوفى أو مسلكها العام أو تصرفاتها الشخصية » .

كانت قوت القلوب هى الابنة الوحيدة للشيخ عبد الرحمن الدمرداش الذى كان يعتبر نفسه شيخ الطريقة الدمرداشية فى مصر . وكان على جانب كبير من الثراء . لذا نشأت فى جو ملىء بالرفاهية ويعيد عن الزهد والتقشف ، فتزوجت من رجل مصرى يقل عنها وجاهة وثراء . كما يقول النشاشيبي : فاحتفظت بحق العصمة فى يدها . ورزقت منه بثلاثة أولاد وبنت واحدة ، »

« وعندما مات أبوها ترك لها ميراثا ضخما ، ومستشفى خيريا خاصا يحمل اسمه لا يزال يقوم بدوره فى المجتمع حتى الآن ، مما مكن « قوت القلوب أن تتسلح بأرفع ما تتمناه الفتاة من علم وثقافة وإجادة للغات الأجنبية ، »

وقد تسلمت الكاتبة بأمرين ساعداها على أن تحقق طموحها ، الأول هو المال . أما الثانى فهو ثقافتها . وفى كتاب « الأدب الناطق بالفرنسية منذ عام ١٩٤٥ » أن قوت القلوب أقامت صالونا أدبيا للأدباء الذين يكتبون بالفرنسية .

دخلت الكاتبة عالم الأدب بعد أن تجاوزت الخامسة والأربعين ، فى فترة أصبح فيها دخول المرأة المصرية الى الشوارع والمجتمع قويا . ونشرت روايتها الأولى عام ١٩٣٧ فى دار المعارف باللغة الفرنسية تحت عنوان « مصادفة الفكر » . وفى نفس العام نشرت روايتها « حريم » فى دار جاليمار .

وقد تنوع عطاء الكاتبة بين الرواية والقصة القصيرة واليوميات . ومن رواياتها : زنوبة (جاليمار ١٩٤٠) والخزانة الهندسية (جاليمار)

(١٩٥١) والتي كتب مقدمتها الروائي المعروف جان كوكتو . تم «ليلة
القدر» عام ١٩٥٤. (جاليمار) . وفي نفس دار النشر قدمت «رمزة»
عام ١٩٥٨ . و «حفناوى الرائع» عام ١٩٦١ . وهو نفس العام الذى كفت
فيه عن الكتابة . أما قصصها القصيرة فهناك « ثلاث حكايات عن الحب
والموت » عام ١٩٤٥ . وعقب مصرعها على يدى ابنها باثنى عشر عاما .
أى عام ١٩٨٠ نشرت يوميات الكاتبة المصرية تحت عنوان « لياالى رمضان »
بالإضافة الى مجموعة من القصص التى لم تنشر من قبل .

ولعل المرة الوحيدة التى تعرف فيها القارئ المصرى على قوت
القلوب هى فى عدد شهر ديسمبر عام ١٩٤٩ من مجلة « الهلال »
حين نشر ملخص لروايتها « زنوبة » .

أما الباحثون المصريون فقد تعرفوا على قوت القلوب فى حدود
ضيقة من خلال الدراسة التى نشرتها المكتبة الفرنسية المصرية بالقاهرة
عام ١٩٨٥ تحت عنوان « قوت القلوب أو رؤية مصر الامس » أعدتها
الدكتورة سونيا ابراهيم عقباوى . والتى حلت فيها أدب الكاتبة .

فى كتابها « ليلة القدر » تتكلم قوت القلوب عن نفسها قائلة : « لقد
ولدت تحت أقدام مئذنة ، والتى كانت أول شيء رأيت ، فأحسست بها كأنها
أصبع تشير الى السماء . أما أول شيء سمعته فهو اسم الله يتردد خمس
مرات يوميا بصوت المؤذن فينشئ روحى » .

وكما جاء فى مقدمة كتابها « ثلاث قصص عن الحب والموت » التى
كتبتها أندريه موروا ، أن قوت القلوب قد ربت أبناءها تربية دينية
حسب الشريعة الاسلامية ، كما تلقوا أيضا أسس العلوم والفنون الغربية .
وكان بيتها مزارا لكل كتاب العالم الذين يأتون الى القاهرة أمثال فرانسا
موريأك ، واناطول فرانس .

وترى الدكتورة سونيا ابراهيم فى دراستها أن قوت القلوب لم تكن
كاتبة « واقعية » ، ولكنها اختارت من الواقع عناصره الرئيسية . وكانت
بطلات رواياتها من نساء المجتمع البرجوازى .

من هؤلاء النساء هناك زنوبة ، ورمزة ، وغيرهما ، وزنوبة امرأة
تعيش فى بداية القرن العشرين تنتمى الى أسرة فقدت عائلها ، وهى فتاة
جميلة ، كان عليها أن تتزوج رجلا على عتبة الشيخوخة ، ولكنها
فوجئت أن هناك نسوة فى المنزل يسعين الى افساد هذا الزواج .
وعندما تم القران أصبح الرجل الذى ارتبطت به مربوطا ريث الخيط
بالمقص . وفى ليلة الزفاف لم يوجهه العجوز الى زوجته كلمة غزل
واحدة . وقضى ليلته ممددا على مقعد طويل .

وعندما اقبل الصباح لم تجده فى حجرتها • فقد مات العجوز •
وهكذا ظلت عذراء فى ليلة عرسها وهى الأرملة الصغيرة ، وبعد عدة أشهر
تتزوج من رجل يدعى عبد المجيد • كان كل همه أن تنجب له ولدا • لكنها
لم تحمل بالسرعة التى تحدث للنساء فى البيوت المجاورة • فراحت تدعى
أنها حامل • ولم تكن كذلك • « فلم يتطرق الشك الى ذهن أحد ممن كانوا
يرونها ويراقبون تطور حالتها • الى أن ذهبت الى بيت أبيها لتضع
مولودها فيه جريا على العادة المتبعة • فاذا بالمولدة تقدم الطفلة الوليدة
لحماتها • فأسرعت زنوبة الى أسرتها • ثم عادت مرة أخرى الى منزلها •
وعند الميلاد تشعر بمشاعر جديدة : « اقتربت الأم الشابة من طفلتها
الصغيرة وحملتها بين ذراعيها وضمتها الى صدرها • وقدمت لها
صدرها • وارتفعت أصوات النساء بالزغاريد » •

لكن الفرحة لم تكتمل ، فليس الانجاب هو المهم فى هذا المجتمع ،
بل أيضا انجاب الذكور • فالويل كل الويل لمن ليس له ولد ! والويل ألف
مرة للمسكين الذى لم ينجب ذكرا • ان نعشه يحمله الأغراب ، ولن يجد
المعزون فى بيته من يوجهون اليه العزاء •

والحرية هى احدى المسائل البالغة الأهمية فى روايات قوت القلوب
خاصة حرية المرأة • فالمرأة الشرقية مسورة بقيود تمنعها من حريتها ، وأم
«رمزة» على سبيل المثال كانت فى سن تسمح لها بالمغامرة • ولكنها
سرعان ما دخلت الى حريم الأمير • ولأنها فتاة ذكية ، فقد حصلت على
حظوته ، وعلى مكانة طيبة داخل الحريم • ولكن ابنتها راحت تتمتع
بحريتها • وقد بدا ذلك واضحا من خلال ترددها على المكتبة ، واستيعاب
المعرفة • وهى تعتبر نموذجا مخالفا لزنوبة • فهى فتاة ذات استقلال
خاص • وطموح ، حيث ترفض ألا يراها زوجها قبل الارتباط •

وفى روايتها «الخزانة الهندسية» نرى نموذج عائشة الريفية البسيطة
التي كان من حسن حظها أن تربت مع ابنة رضوان بك فى القاهرة • وإذا
فهى لا تتصرف كخادمة • ولكن كابنة لرضوان • وقد استطاعت أن تجذب
انتباه المجتمع من حولها • وهى تهوى الموسيقى وتجيد العزف على العود ،
مما دفعها أن تصبح مطربة مشهورة ، وتجىء أهمية نموذج عائشة ليس
فقط من انها تحررت من القيود الاجتماعية البالية ، لكن فى انها أصبحت
مثالا يحتذى به للكثير من الفتيات •

وقد رأت رمزة أن خلع الحجاب ليس أبدا تمردا على الدين ولكنها
حالة من الانفصال عن سطوة الرجل الذى ينظر اليها نظرة جنسية •

أما رمزة بطلة الرواية التي تحمل نفس الاسم فهي فتاة فى الرابعة عشرة من العمر عليها ألا تكشف وجهها قط عندما تخرج من المنزل . خاصة عندما تدخل سلاهلك أبيها . وهى تعيش فى مدينة الاسكندرية التى يعيش فيها أبناء جنسيات عديدة . وتتفاوت مسألة الحجاب بالنسبة للفتاة حسب الأمور ، فعندما تنزل الى الحديقة ، عليها أن ترتدى حجابا ثقيلًا حتى لا يراها أحد . أما اذا ذهبت الى صديقاتها الفرنسيات فيجب أن ترتدى حجابا أبيض خفيفا ، وهى لا تخفى أنه يسبب لها ضيقا ويعرقل حركتها .

وفى رواية « جفناوى الرائع » تذهب زكية الى رأس البر مع زوجها الذى يفرض عليها أن تغطى كل جسدها لأنه يشعر بالغيرة عليها .

وقد وصفت قوت القلوب حالة العبودية التى تعيشها بعض النساء بعد الزواج فى قصصها ورواياتها وخاصة فى « رمزة » . لكن هذه المرأة لا تلبث أن ترفض أن يقوم الرجل بتعريضها خين ينظر اليها . فهى ليست حيوانا . ولكنها كائن يفكر ويحس : وسلوك رمزة يثير قلق أمها التى تقول لها : « ستفعلين مثل الأخريات يا ابنتى ؟ سيقولون لأنك ذهبت الى المدرسة . . . ولأنك تعلمت . تريدن أن تحطمى تقاليدنا » . لكن الفتاة لا تؤد أن تعامل كسلعة . فقد مضى عهد استعباد المرأة . وتقرر أن تقوم باختيار زوجها بنفسها . ولأن مسألة اختيار الزوج صعبة فى هذا المجتمع قائما تردد : « عندما تودين حلية فانك تذهبين الى الجواهرجى ، وعندما تودين مسكنا ، تسالين سمسارا ، واذا رغبت فى زوج فيجب أن تكونى قادرة وماهرة فى الاختيار » .

وأغلب نساء قوت القلوب لا يقفن موقفا سلبيًا فى المجتمع . فـ « رمزة » تتعلم القراءة والكتابة أيضا فى « الكتاب » ثم تتطور فى تحصيل المعرفة ، وتصادق الفرنسيات ، وتحب رجلا يدعى ماهر وتبدو واضحة وهى تعبر له عن مشاعرها ، ثم تتزوجه ضد رغبة أبيها . وتكون الصدمة أن زوجها يرفض أفكارها المتحررة .

هذا هو بعض من عالم قوت القلوب والذى كتب عنه أدباء مشاهير من طراز اناطول فرانس ، وأندريه مورو الذى رأى أن عالمها أقرب الى ما قدمته لنا الكاتبة النيوزلندية الشهيرة كاثرين مانسفيلد ، فى طى حديثه عن المجموعة القصصية « ثلاث حكايات عن الحب والموت : نظيرة ، زهيرة ، ظريفة ، هؤلاء النت البائسات الثلاث قد قمن بتعريفى الكثير عن مصر . أكثر مما أعرفه عن إنجلترا . عن نساء كاثرين مانسفيلد ، أو مما تعلمته عن نساء فرنسا كما كتبت كوايت » .

ألبير قصيرى :

لم ينتبه القارئ العربى الى أهمية الكاتب المصرى ألبير قصيرى الا بعد ترجمة روايته « شحاذون ومعتزون » الى اللغة العربية عام ١٩٨٧ . وتأكدت مكانته بعد ترجمة روايتى « منزل الموت الأكيد » و « العنف والسخرية » وهكذا ، ظلت اللغة الفرنسية التى يكتب بها قصيرى ابداعه حائلا دون أبناء وطنه من العرب .

وقد أثارت هذه الرواية انتباه القراء العرب لأسباب عديدة منها أنها تدور فى حى الأزهر والمناطق الشعبية القريبة منه . وهى نفس المنطقة التى دارت فيها أحداث بعض روايات نجيب محفوظ ، بالاضافة الى أن أبطال هذه الرواية كانت لهم مواقف واضحة من الناس والمجتمع والحياة . وخاصة أن أغلب هذه الشخصيات كانت معروفة للناس مثل بطله الشاعر يكن الذى كان يحمل نفس الاسم فى الحياة . كما أن الحقبة الزمنية التى تدور فيها أحداث الرواية - بداية الحرب العالمية الثانية - لم يلق عليها الفن الروائى المصرى الضوء بالقدر الكافى .

وأبطاله رواية « شحاذون ومعتزون » Mendiants et Orgueilleux وترجمة الرواية الحقيقية هى « ومتكبرون » ، لديهم حسن وطنى عال ، لا يتسم بالزعيق مثلما نرى فى الكثير من الروايات السياسية . بل هم يتعاملون مع هذه الحكومات المتتابة بسلبية شديدة لأنها لا تنتبه الى مشاكل الناس . وخاصة ان هذه السمة موجودة فى روايات عديدة للكاتب ، حيث تتحول السلبية الى نوع من السخرية فى رواية « العنف والسخرية » .

وبعد ثلاثة أعوام من ترجمة « شحاذون ومعتزون » الى اللغة العربية . منحت الاكاديمية الفرنسية قصيرى جائزتها السنوية الكبرى للأدب المكتوب باللغة الفرنسية . وقد منحت الجائزة لقصيرى بصفته كاتباً مصرياً . فحصل على ما قيمته ٤٠٠ ألف فرنك فرنسى . وفى نفس السنة تم تحويل هذه الرواية الى فيلم سينمائى مصرى أخرجه أسماء البكرى وحصل على جوائز عديدة . فهو كاتب مصرى قلباً وقالبا . ليس فقط لأنه لا يزال يحمل الجنسية المصرية منذ أن رحل الى فرنسا فى عام ١٩٤٥ ، ولكن أيضا لأنه رغم رحيله فانه لم يكتب سوى عن البيئة التى جاء منها بل وعن قاع المجتمع فى مصر . كما فاز عام ١٩٩٥ بجائزة جاك أوديبيرتى فى مدينة أنتيب الفرنسية تقديراً لأدبه ، ولرور نصف قرن على اقامته فى نفس الغرفة بالفندق .

وألبير قصيرى من مواليد مدينة القاهرة فى الثالث من نوفمبر عام ١٩١٣ . من أبوين مصريين . التحق بالمدارس الدينية الفرنسية فى

القاهرة مثل اغلب أبناء جيله بعد أن عاشت أسرته لفترة بين الاسكندرية
ودمياط .

وقد عشق قصيرى القراءة فى سن مبكرة . وأعجب بالشاعر
الفرنسى بودلير الذى كان له تأثير قوى عليه ، لدرجة أنه استلهم عنوان
كتابه الأول الذى نشره فى القاهرة تحت عنوان « اللدغات » *les morsures*
من بودلير . كان قصيرى قد سافر الى باريس لأول مرة عام ١٩٣٠ .
وفى العام التالى نشر ديوان شعره الأول الذى ضم عددا قليلا من
الصفحات .

وفى عام ١٩٣٩ سافر البير الى الولايات المتحدة ، وهناك التقى
بالكاتب الاباحى المعروف هنرى ميللر الذى أعجب بأبداعاته ، وترجمها
الى اللغة الانجليزية . وكان قصيرى ينشر فى تلك الفترة قصصه فى مجلة
« الاسبوع المصرى » ، ومن هذه القصص « رجل متفوق » . وهى مجلة
كانت تصدر فى القاهرة باللغة الفرنسية . ومن الجدير بالذكر أن هذه
القصة قد غير عنوانها الى « ثار ساعى البريد » التى نشرت فى مجموعته
القصصية الأولى والوحيدة ، « الناس الذين نسيهم الله » ،
les hommes oubliés de dieu عام ١٩٤٠ . وهو نفس العام الذى صدرت
فيه بالقاهرة ايضا روايته الأولى « منزل الموت الأكيد » .

وقد انضم قصيرى الى جماعة أدبية يسارية المنهج والاتجاه عرفت
باسم « الفن والحرية » التى كانت تؤمن أن الفن « لا يتكون من صور
أو أشكال منحوتة ، لكنه يمثل شيئا آخر . أبعد من كل الترجمات الممكنة
للحياة . وأبعد من كل التفسيرات المؤقتة أو الخالدة للأحاسيس . ولكل
حالات وأوضاع الوعي . الفن يمثل طريقة وجود موقف حيوى . وفى نفس
الوقت عاطفى وواع » (١) . وكان من أبرز أعضاء هذه الجماعة جورج
حنين وأنور كامل ورمسيس يونان وفؤاد كامل وكامل التلمسانى . وقد
أصدرت الجماعة مجلة أدبية مهمة تحمل عنوان « التطور » ترجمت فيها
لالبير قصيرى ثلاث قصص هى « قتل الحلاق امرأته » ، و « مدرسة
الشحاذين » ، و « ساعى البريد رجل مثقف » .

ومثلما صادق قصيرى الكاتب الأمريكى ميللر قبل الحرب . فانه
تعرف على الكاتب البريطانى لورانس داريل الذى كان يعيش فى مصر فى
تلك الآونة ، وهو صاحب رباعية الاسكندرية .

(١) السريالية فى مصر - سمير غريب - هيئة الكتاب - القاهرة - ١٩٨٦ ص ١٥٠ .

وفى عام ١٩٤٥ عمل قصيرى فوق سفينة تجارية • وحول هذه التجربة تحدث الى كاتب هذه السطور حين زيارته لمصر فى عام ١٩٨٩ قائلا : « لم أكن أنوى مغادرة مصر • لكن هى روح المغامرة التى كانت تتلبسنى دائما منذ الطفولة ، كنت أحلم بالقيام بجولة حول العالم لأختلط بأجناس بشرية عديدة • فالتحقت عام ١٩٤٥ للعمل كباحر مبتدئ فى إحدى السفن المصرية التجارية • كان بها جزء مخصص للركاب وتحمل اسم « النيل » ظلت تجوب بى الموانئ شهورا طويلة • كنا نترك الميناء لنذهب الى أخرى •

« فى نهاية الرحلة رست السفينة على الساحل الفرنسى • فوجدت أننى عثرت على ضالتي • فهنا يمكننى أن أنشر كتبى باللغة التى أجيد التعبير بها • هنا مركز ثقافى واشعاعى يمكننى أن أتكيف معه •

« كانت فرنسا بابا مفتوحا بعد الحرب العالمية الثانية • وكانت تشهد حركة ثقافية وفكرية كما ننشدها جميعا كمتقنين مصريين من أعضاء جماعة الفن والحرية • وذلك فى الأدب والفلسفة والفن التشكيلى والسينما • »

ومن المعروف أن قصيرى قد أقام منذ تلك الآونة فى فندق صغير بباريس عقب نزوله المدينة • وظل يسكن به منذ ذلك التاريخ حتى الآن • لا يفكر أن يغيره ، ويقع هذا الفندق فى الحى اللاتينى الذى تقع فيه مقهى المونمارتر التى يجلس عليها أشهر أدباء فرنسا • وقد صادق كلا من جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار وجان جينيه • أما أقرب أصدقائه الى نفسه فقد كان الكاتب البير كامى •

وقد كتب منتصر القفاش على لسان ادوار خراط أن قصيرى كانت حياته « تدور كلها داخل مثلث رؤوسه الثلاثة المقهى والفندق والمطعم ، ولا يخرج عنها تقريبا • قال لى انه من دمياط أصلا • وانه أوشك أن ينسى التحدث بالعربية منذ موت والدته التى كانت تقيم معه فى باريس ولم تتعلم حرفا من اللغة الفرنسية • ولا تعرف القراءة والكتابة الا باللغة العربية • لاحظت أنه يتردد أحيانا فى العثور على الكلمة باللغة العربية • وغضلنا مواصلة الحوار بالفرنسية » (١) •

ورغم أن الكاتب عاش فى باريس كل هذه السنوات ، الا أن الصحف الفرنسية اطلقت عليه اسم « المنسى من الجميع » أما مجلة « لاكتويل » فقد قالت فى عددها الصادر فى إبريل ١٩٩٠ انه أشهر كاتب كسول فى العالم •

(١) البير قصيرى - منتصر القفاش ، جريدة الحياة ، ٦ ديسمبر ١٩٩٠ ، ص ١٢ •

لم يدفعه هذا الكسل الى الكتابة فقط عن الكسالى والذين لا يحبون العمل . بل انه لم يكتب فى حياته سوى سبع روايات منها « كسالى فى الوادى الخصيب » les faineants dans la vallée fertile ١٩٥٤ . و« شحاذون ومعتزون » عام ١٩٥٥ . و « العنف والسخرية » la violence et la dérision عام ١٩٦٤ . و « مؤامرة مشعوذ » un complot de saltimbanque عام ١٩٧٥ . وقد اشترك فى كتابة مجموعة من سيناريوهات أفلام سينمائية عديدة .

وتقول الدكتورة رجاء ياقوت فى محاضراتها المنشورة باللغة الفرنسية عن قصيرى : « ان اقامته فى باريس فتحت آفاقا جديدة وسمحت له أن يستكمل دراسته وأن يتمكن أكثر من اللغة الفرنسية . بدرجة لا تجعل أحدا يضاهيه » .

ومفتاح الدخول الى أعمال قصيرى هى حالة الكسل التى يعيشها أبطاله والسخرية التى يتحدثون بها عن الحكومة . فهذه الشخصيات تعيش فى مجتمعات فقيرة . ولا تميل الى العمل مثل قصيرى نفسه . ولعل هذا المدخل يمثل ردا نموذجيا على هؤلاء الذين لم يعجبهم عالم قصيرى . فقد تصور البعض أن قصيرى يكشف للأجانب الجانب السلبى فى مصر بتصويره الأحياء الشعبية . وكأن هناك علاقة بين الابداع والسياسة . فقد توغل قصيرى فى هذه الاماكن . كما توغل فى الاشخاص الذين عاشوا فى هذه الاماكن . فكل من يكن وجوه والكردى فى رواية « شحاذون ومعتزون » . قد آثروا أن يعيشوا على هامش المجتمع . خاصة جوهر استاذ التاريخ الذى قدم استقالته احتجاجا على تفاهة وزيف المناهج . وقرر أن يعيش كسولا فى غرفة ليس بها من الأثاث سوى ورق الصحف . وهو رجل يعشق الليل لما به من سكون . ويبتعد عن النهار لما به من حركة وحياة صاخبة .

وقد ظهرت نماذج عديدة من الكسالى فى روايته « منزل الموت الاكيد » la maison de la mort certain . خاصة شخصية عبدالعال بائع الشمام . فهو لا يبيع طيلة العام الا الشمام فى موسمه . وهو موسم قصير للغاية . وفى بقية الشهور يظل بلا عمل يعانى من الفقر والجوع . كما أن الحوذى قد آثر أن يعيش أيضا فى بيت مشروخ الجدران وهو قليلا ما يعمل . والعجوز كاوه أيضا رجلا بلا وظيفة . كما أن أحمد صفا يجيد التحايل على الآخرين من أجل أن يأخذ مبلغا صغيرا من المال كي يذهب به الى « الغرزة » المجاورة ليعيش لحظات صفاء . . . وهناك رجل آخر يمكنه أن يسرق الماعز كي يذبحه ويلتهمه وهو لا يعمل . رغم أنه وأسرته يعانون من جوع شهيد .

أما العاملون في هذه الرواية فهما الزبال ولاعب القروود . والزبال في هذه الرواية يبدو كريها . رغم أنه الوحيد الذي يعمل في وظيفة حكومية تميزه عن الآخرين . وهو لا يتوانى عن أن يفخر بهذه الوظيفة أمام سكان العطفة . وهو رجل متقدم في السن . متزوج من فتاة صغيرة مصدورة . شديد الغيرة عليها . ويغلق الأبواب حتى لا ترى المعالم من حولها . فاذا خرج بها لزيارة أهلها أحاط الأمر بسرية تامة . . . وهو في نهاية الرواية يترك البيت الآيل للسقوط بنفس السرية من أجل السكن في مكان آخر . ويصور قصيرى هذا الشخص أقرب الى الجلف الذي لا يجيد التعامل مع البشر ، وخاصة زوجته وجيرانه .

وهؤلاء الأشخاص يعيشون دائما على هامش المجتمع . منسيين من المجتمع . ومن السماء . وأيضا من الحكومة . ولو راجعنا الطريقة التي يتكلم بها أبطال رواية « منزل الموت الأكيد » عن الحكومة ، فسوف نراها مليئة بالسخرية وتنم عن مدى انفصال الطرفين . فسكان هذا المنزل يتعاملون مع الحكومة بصفتها شخصا محدد الهوية . فهم لم يذهبوا مثل البشر الى المدرسة . وهم لا يعرفون ماذا تكون الحكومة سوى أنها حكومة . ولا يظهر من هذه الحكومة سوى رجل الشرطة الذي يأتي ليستدعى سكان المنزل الآيل للسقوط للدلاء بشهادتهم في أمر الرسالة التي أرسلوها . .

أما الحكومة في رواية « شحاذون ومعتزون » فهي غالبا رجل الشرطة . ضابط البوليس المصاب بالشدوذ والذي يبدى تعاطفا واضحا مع هؤلاء البشر الهامشيين والمنسيين . وهناك أيضا « مخبر » يراقب الكردي في القرام وكأنه يبلغه أنه يطارده . فضلا عن المخبر الذي دسه رؤساؤه في بيت الهوى الذي تمت فيه الجريمة .

وهؤلاء البشر منسيون أيضا من السماء . وخاصة في رواية « منزل الموت الأكيد » ، ف أحداث الرواية تدور في شتاء قارس بالغ القسوة . وفي مكان عال من القاهرة . قريب من القلعة ، وتفتتح الرواية فصولها بطفل دخل الى البيت الآيل للسقوط وقد تجرد تماما من ملابسه وهذا الطفل يبدو كأنه استعذب عريه الاجباري ؛ لأننا سنراه يلعب مع الأطفال في مكان آخر من الرواية وهو مازال عاريا .

وتقول الدكتورة رجاء ياقوت ، في البحث المشار اليه ، انه اذا كان أبطال روايات قصيرى المكتوبة قبل عام ١٩٦٤ منسيين، فان أبطال الروايات المكتوبة بعد هذه الفترة من القرويين وهم يريدون من خلال نشاطهم الثوري أن يكونوا شهودا على مواقفهم .

ولكن هذا لا يلغى ان موقف الهامشيين فى رواية « شحاذون ومعتزون » ، ثم عبد العال فى « منزل الموت الأكيد » وطاهر فى « العنف والسخرية » ثورى . وان كان موقف جوهر الثورى السلبى . الذى ينسحب بسهولة من الميدان كى يتعاطى الأفيون والمخدرات ، فان عبد العال يعلم السكان التمرد ويطلب منهم عدم دفع الأجرة لصاحب البيت لأن المنزل بلا سكان لا يعتبر بيتا ، أما طاهر فيؤمن بضرورة اغتيال المحافظ وأن ما يفعله المتمردون الساخرون ليس سوى نوع من لعب الاطفال .

ورغم أن الكثير من هؤلاء البشر منسيون ، الا أنهم أصحاب مبادئ ، ولا يمارسون الشرور الكبرى . فشرورهم ، ان وجدت ، صغيرة وعابرة . مثل الشخص الذى يمكن ان يسرق قطا من أجل بيعه . وفى رواياته هناك المغنى الذى يبحث عن فرصة . والموظف الباحث عن امرأة يمارس معها الهوى . حتى جريمة جوهر فى « شحاذون ومعتزون » فهى جريمة مجانية . لم يقصد أن يقوم بها ، ولذا لم يكن من السهل اكتشاف فاعلها .

أما عن المكان ، فترى د . رجاء ياقوت ، انه قبل عام ١٩٦٤ كان أبطال روايات قصيرى من الفقراء . ولكن بعد ذلك بدأ يزحف الى شارع فؤاد حيث عالم الأثرياء . فهذا الشارع ملئ بالمحلات التى تباع بضائعها للأثرياء . وهؤلاء الاغنياء يتسمون بأنانية ملحوظة . ولا توجد شخصية نموذجية فى هذه الروايات من الاغنياء . ومن هؤلاء الاغنياء سى خليل صاحب البيت فى رواية « منزل الموت الأكيد » . والحقيقة ان عالم قصيرى ظل كما هو . فرواية « العنف والسخرية » تدور فى أروقة مدينة الاسكندرية ، وفوق سطح منزل يطل على البحر .

وفى بعض روايات قصيرى فان الفقراء يظلون قابعين فى أحيائهم ، التى يصورها الكاتب قدرة عفنة ، أما أحياء الاغنياء فهى نظيفة ومشمسة ، وفقراء المدينة لا يفكرون كثيرا فى الانتقال الى حيث يعيش الاغنياء . . . فاذا كان « يكن » مغرما بفتاة تتعلم الموسيقى وتسكن فى أحد الأحياء الافرنجية، فان أحدا لا يذهب بالمرّة الى هذه الأحياء فى رواية «منزل الموت الأكيد» . بينما البشر المنسيون فى الرواية التى تحمل نفس العنوان عندما يذهبون الى الحى الافرنجى يحسون انهم تائهون « يمرون قريبا من هذه الاضواء كأنهم ظلال خائفة . ينقلون معهم حبيهم الملىء بالطين ومأساتهم القذرة . ويجمعون ندمهم . ندم قديم مستغرق فى الأرض . ورغم كل شيء فانهم لا يريدون أن يموتوا » (١) .

(١) Albert Cossery, Cours donnés, en Français, Rajaa Yaquotte, le Caire.

وهؤلاء الفقراء ليس لهم الحق أن يحلموا • فالأحلام دائما خطيرة •
قد تجعلهم يتطلعون ويطمحون وهذه هي قمة المأساة • فعندما تطلع
جواهر الى أساور العاهرة أرنبه في رواية « شحاذون ومعتزون » لم يكن
يعرف أنها أساور مزيفة • وارتكب من أجلها جريمة قتل مجانية ، وكذلك
فان « يكن » عندما تطلع الى التلميذة التي تسكن الحى الاقرنجى فانه
لم يأخذ سوى تلك الرسالة التي دسها فى يدها وهى عائدة ليلا الى منزلها •
ويهمنا أن نصور النساء فى روايات قصيرى • فدائما هناك
امراة تعيش على الهامش • والرجل فى روايات قصيرى ينظر الى المرأة
على انها شىء يمكن أن يجده ويمارسه مثلما يفعل مع المخدرات • والمرأة
فى رواية « شحاذون ومعتزون » تمارس الهوى فى أغلب الحالات ابتداء
من أرنبه التي ماتت وهى تغوى جواهر • ومرورا بالنماذج التي ساقها
الكاتب فى الرواية • أما فى « منزل الموت الأكيد » فهى فى أغلب الحالات
زوجة • ولكنها زوجة شرسة ، حتى وان كانت عجوزا • وهناك عاهرة
سابقة تزوجت من سى خليل صاحب البيت • كما ان هناك فتاة صغيرة
يمكنها أن تغوى العجوز كاوة من أجل ثمرة برتقال مضروبة • والعاهرة
فتاة طيبة فى « العنف والسخرية » فهى تصدق كلمات كريم • وتعود اليه
دوما لأنها تثق فيه ، ولا تأخذ منه المال رغم أنها لا تعرف أنه مفلس • كما
أن العاهرة فى « تسالى فى الوادى الخصيب » تحب رجلا وتود أن تتزوج
منه لكنه رجل كسول ينام أياما دون يقظة •

والمرأة أداة لدى ابطال قصيرى • لا يتمردن أبدا • ويمكن للرجل
أن يغير المرأة مثلما فعل فى رواية « منزل الموت الأكيد » • أما فى رواية
« العنف والسخرية » فان هيكل يعرف من صديق له أنه لا يستطيع ان
يغير سيارته كل سنة • لكن من السهل أن يغير زوجته فى كل عام • وهى
يستخدم فتاته الصغيرة ، كى تحصل على معلومات عن مشاريع المحافظ
وتحركاته بصفته صديق أبيها •

ونحن نقف من وصف قصيرى لهذا العالم موقف الحياد • فهذه
هى رؤيته للعالم • وهى رؤية مبدع • ولعل قصيرى كان يكتب عن عالم
ضيق • مثل عالمه القاهرى الذى وصفه • وايضا عالمه الضيق الذى
عاشه فى مدينة باريس • فأبطاله ، كما سبق أن أشرنا ، كسالى مثله •
أو لعله هو الذى أكسبهم هذا الكسل • فمن الغريب فعلا • وفى عاصمة
فرنسا ، أن يعيش شخص لأكثر من خمسين عاما فى غرفة صغيرة
بفندق بسيط • لا يمكن لهذا الشخص ، حين يكتب ، أن يتكلم عن أشخاص
يملؤهم الطموح • ويسعون للعمل ، أو يسدون المنزل الذى يكاد ينهار
فوق رؤوسهم • وذلك بدلا من اطلاق اللعنات • مرة تجاه صاحب البيت
المخادع « سى خليل » فى رواية « منزل الموت الأكيد » ومرة أخرى تجاه

الحكومة التي لا يعرفون كيف يخاطبونها • أو كيف يتعاملون معها وهم في النهاية ، عدا الزبال ، يجلسون في البيت الآيل للسقوط ينتظرون أن يسقط عليهم •

والجدير بالذكر ان هناك سخرية مريرة تتمثل في بعض روايات الكاتب وهي سخرية منسكبة ايضا من قصيرى نفسه • فهو شخص ، كما لمست حين التقيت به اكثر من مرة ، يتمتع بخفة ظل • وقد بدت هذه السمة من خلال الحمار « برغوت » في رواية « شحاذون ومعتزون » صاحب النكتة الشهيرة • وأيضا من خلال مواقف عديدة تعرض لها « يكن » الذي تطارده الشرطة • حين ذهب للإقامة في فندق يعطى الأغطية للزبائن • ثم يسحبها منهم بعد أن يغطوا في النوم من أجل اعطائها للزبائن جدد • ومثل هذه السمة لم تبد كثيرا في رواية « منزل الموت الاكيد » • الا من خلال مواقف بالغة المرارة • مثل النساء اللاتي ذهبن لمقابلة سي خليل والأطفال الذين ألقوا بدراجة سي خليل في الوحل وأيضا حكاية المهندس المزعوم الذي جاء يعاين البيت الآيل للسقوط • ولكنها بادية في السخرية من المحافظ في « العنف والسخرية » بتعليق صورته في الميادين والأماكن العامة تمتدحه ويبدو فيها مثيرا للضحك • وكذلك في موقف الخطابية وهي تدلك قفا الأب في رواية « كسالى في الوادي الخصيب » •

من المهم أن نقدم في ختام حديثنا عن أدب قصيرى المكتوب باللغة العربية أنه يرتبط باللغة عند الكاتب • فعند قراءة النص الفرنسي يمكن أن نحس لأول وهلة انه مكتوب بإحساس عربي أو أنه رواية عربية تمت ترجمتها الى اللغة الفرنسية ، وليس العكس ، سواء في اختيار أسماء الأشخاص وكتابتها مثلما هي في النص الفرنسي • فهو حين يكتب سي خليل ، أو سليمان العبيط ، فانه يكتب الاسمين كاملين بالحروف اللاتينية • كما حدث ذلك في اسم « الحاجة زهرة » في رواية « كسالى في الوادي الخصيب » •

وتقول الدكتورة رجاء ياقوت ان تعبيرات الكاتب لها أشكال تؤكد أنه لا يزال عربي الهوية والاحساس • ومن الصعب ترجمة هذه التعبيرات الى اللغة الفرنسية • فيتركها بنفس معناها العربي • ففي رواية « شحاذون ومعتزون » • فان « ام يكن » تعتبر ابنها جميلا لأن القرد في عين أمه غزال • وفي رواية « العنف والسخرية » فانه عندما يطلب طاهر من صديقه القديم كريم أن يقدمه الى هيك ، فانه يقدمه بطريقة مصرية :

« باسم العيش والملح الذي اكلناه معا • أحلف لك انني لم اتصل بهذا الرجل » •

وقد ساقَت الدكتورَة رجاء العديِد من النماذج فى روايات أُخرى .
واكدت ان هذه المِصرية قد وصلت ايضا الى اسماء الاماكن مثل شارع
فؤاد . ومدخنة عابدين ثم شارع عماد الدين فى رواية « كسالى فى الوادى
الخصيب » ، ورغم أن كل مؤشرات المكان تدل على أن « العنف والسخرية »
تدور أحداثها فى الاسكندرية الا أنه يجرّد الأماكن مثلما يجرّد الشخصيات .
وروايات البير قصيرى صعبة المفردات اللغوية والأدبية . ولكنها
فى نفس الوقت مكتوبة بلغة جميلة . أما بالنسبة للحوار ، وخاصة فى
هذه البيئة الشعبية فان المرء يحس أنه مكتوب بلسان هؤلاء الناس .
وأغلب الظن أن قصيرى لو كان يكتب باللغة العربية ، لاختار أن يكون
الحوار باللغة العامية المصرية . وقد يكون من السهل على المترجم أن يكتب
ترجمته باللغة الفصحى . لكن اللغة العامية التى يقصدها الكاتب من
الصعب ترجمتها بدقة . وهناك فى الحوار كلمات مثل « بس » و « لسه »
وجمل أخرى كثيرة مماثلة . ويمكن لقارئ البير قصيرى أن يترجم داخل
ذاته الجمل الفصحى التى يكتبها سواء أكانت بالفرنسية أم تمت ترجمتها
الى اللغة العربية الى لغته العامية الدارجة فى أحياء مصر الشعبية .
وخاصة فى أواخر الثلاثينات التى تدور فيها أغلب أعماله الأدبية .

وقد جاء على لسان ادوار خراط : « ما من شك عندى فى أنه كان
من الرواد المخامرين الأوائل للعبثية بمعناها الفلسفى مترجمة فى مشاهد
أو مواقف روائية خالصة ، ولم أقرأ حتى الآن ما يقارب حسه المأساوى
الكوميدي فى وقت واحد بمشهد حضيض مدينة القاهرة . وتظل فاجعة
الاملاق ومعاناة المعدمين وشطحات المدمنين والبغايا اللاتى لا يضفى عليهن
ادنى مسحة من هالة التمجيد والتقدیس الذى كان معتادا فى الأربعينات
اذ كانت البغى تصور غالبا باعتبارها ضحية بريئة ومثيرة للعطف
والرثاء . وكأن العلاقة بها نوع من انتهاك المحارم وتدنيس المقدسات .
عند قصيرى هى ضحية بالفعل لكن من غير أدنى طرشة عاطفية ولا ادنى
تهويل قدسى معكوس ، بل هى كائن خشن وانسانى جدا بفضاظته وصغاره
وحنانه أيضا . تظل الفاجعة فى هذا السياق عنده مضحكة قليلا ولذلك
فهى مؤثرة أكثر . وتظل عبثية قليلا ولكنها تنطوى على بشارة بمستقبل
مشرف وعلى الأخص فى أعماله التى كتبها بعيدا عن الوطن ، كما شجبت
معه قوة تصويره للمشاهد القاهرية وللشخصيات المصرية المتميزة التى
بدت فى نهاية أعماله اقرب الى التجريدات المتعلقة والتأملات والذكريات
الباهتة قليلا . لا شك ان فى ذلك ضريبة الغربة المزدوجة . الغربة فى
اللغة والغربة فى أرض الوطن (١) .

(١) روايات ترسم شخصيات نادرة . منتصر القفاش . جريدة الحياة ، لندن ،

ويقول الخراط فى نفس حديثه الى منتصر القفاش ان ألبير قصيرى « ينحو الى نوع من الغرائبية وعلى الاخص فى تسمية أبطاله الذين يعطيهم أحيانا أسماء يصعب تصديقها . أو لم نسمع عنها قط فكانها منحوتة من مزيج العامية المصرية والفرنسية ، ولا شك انه أحيانا يطلق العنان لتقريرات مباشرة عن انسحاق الناس ووطاة الفقر والجوع والعوز الروحى والمادى معا عليها ، مما قد ينحو بالعمل الروائى الى شئ من المباشرة . ولكن اذا كان لنا ان نستخلص موقفا فكريا مضمرا عن هذا الكاتب فلعله أقرب الى مزاج من اليسارية التى تقارب الفوضوية أو العدمية أحيانا » .

ولعل من الاسماء التى كتبها قصيرى فى رواياته بشكل غريب اسم « يكن » بطريقة لا يمكن معرفة مرادفها العربى بسهولة فهى تكتب هكذا Yeghen فى رواية « شحاذون ومعتزون » وكذلك اسم العجوز كاوه Kawa فى رواية « منزل الموت الاكيد » . وأغلب الظن أن المقصود به هو اسم « عكاوى » فهو شائع فى تلك الفترة من ناحية . وبين الأوساط التى يتكلم عنها الكاتب فى أعماله .

الجدير بالذكر أن هناك محاولات قد سبقت لتقديم أدب قصيرى الى قارئه العربى . وفى عام ١٩٦٨ كتب يوسف فرنسيس سيناريو فيلمه « الناس اللى جوه » عن رواية « منزل الموت الاكيد » وأخرجه جلال الشرقاوى وقام بالمبطولة فيه يحيى شاهين وعبد الوارث عسر وناهد شريف وعادل امام . وقد اختلف السيناريو تماما عن النص الأدبى ، ليس فقط فى أحداثه ، بل فى سمات وسلوك الأشخاص . والعلاقات القائمة فيما بينهم ، فهو فيلم حسى تماما . حيث اهتم بتصوير علاقات حسية وخيانات زوجية وشبق ساخن من الرجال تجاه زوجات الجيران . ومثل هذه العلاقة لم تكن موجودة فى الرواية . كما افتقرت الرواية الى حسها الساخر عندما تحولت الى فيلم .

وفى عام ١٩٩١ تحولت رواية « شحاذون ومعتزون » الى فيلم اخرجته أسماء البكرى من بطولة صلاح السعدنى وعبد العزيز مخيون ومحمود الجندى . وقد حاولت المخرجة التى كتبت النص ، أن تلتزم الى أقصى حد ، بالرواية . ولم يمكنها الاستثناء الا فى تفصيلات عابرة . ورغم جودة الفيلم ، الا أنه أيضا افتقد حسه الساخر لدى أبطاله خاصة المواقف التى تعرض لها يكن فى الفندق ، ومن مطاردة رجال الشرطة . ومن التعذيب فى قسم البوليس . والجدير بالذكر أن نفس الرواية تم انتاجها لحساب السينما الفرنسية عام ١٩٧١ . وصورت فى تونس فى فيلم قام ببطولته المطرب اليونانى الأصل ، الذى عاش فى مصر فترة من الزمن ، جورج

موسناكى ولم يلقى الفيلم أى نجاح يذكر . وقد خصصت مجلة «أدب ونقد» عددا عن الكاتب فى نوفمبر ١٩٩٣ ، ثم أفردت له مجلة « القاهرة » دراسات فى يناير ١٩٩٥ .

أندريه شديد :

فى عدد ٧ يوليو من مجلة « مدام لوفيجارو » عام ١٩٨٨ أجرت المجلة تحقيقا مصورا تحت عنوان I love Paris وكان عنوانه مفتاحا لفهمه ، فهو عن مدينة باريس فى منظور ثمانية من الأدباء الأجانب الذين يعيشون فيها . ومن بين هؤلاء الكتاب بيتر تاونسند والكاتبة آن هيبير .
وأندريه شديد التى تقيم فى فرنسا منذ عام ١٩٤٦ . أى أن أكثر من أربعين عاما لم تشفع للسيدة شديد أن تصبح كاتبة فرنسية . فما زال المجتمع الفرنسى ينظر اليها على أنها كاتبة أجنبية . ولعل هذا يعطى المؤشر لفهم نوع الازدواجية التى تعانىها الكاتبة . فكما هو معروف فإن أندريه شديد خصصت صفحات طويلة من أدبها الذى أبدعته وهى فى باريس للكتابة عن مناطق جذورها وبلادها التى جاءت منها سواء مصر أو لبنان .

وإذا كان ألبير قصيرى هو أبرز الأدباء العرب الذين كتبوا الرواية باللغة الفرنسية ، فإن أندريه شديد تذكر دائما كأنها على قدم المساواة مع قصيرى وهى كاتبة متنوعة الانتاج والابداع فهى شاعرة نشرت ثلاثة عشر ديوانا من الشعر . وروائية لها سبع روايات . ومجموعتان قصصيتان وثلاث مسرحيات . ويبحثان عن لبنان . وثلاثة سيناريوهات للأطفال . وقد حصلت عن هذا الابداع الغزير على خمس جوائز أدبية . منها جائزة جونكور فى القصة القصيرة لعام ١٩٧٩ ، هذه الكاتبة تنتمى فى جذورها ونشأتها الى بلدين عربيين : لبنان بحكم أصل الأسرة (صعب) ، ومصر بحكم المولد والنشأة والثقافة .

ولدت اندريه صعب فى مدينة القاهرة فى عام ١٩٢٩ . ودرست فى المدارس الفرنسية بالمدينة قبل أن تسافر الى لبنان وتعود اليها مرة ثانية . لتستكمل دراستها فى جامعتها الأمريكية . ثم ما لبثت أن تزوجت من العالم لوى شديد الذى كان عليه ان يرحل الى باريس عام ١٩٤٦ فسافرت معه واختارت أن تبقى هناك وهو يعمل الآن باحثا فى فلوريدا بالولايات المتحدة .

تقول أندريه شديد : « فى عام ١٩٤٢ . كنت شابة صغيرة تركض وراء فراشات القاهرة . فى هذه الفترة لم تكن تراودنى فكرة الكتابة . غير أننى أردت أن أصنع شيئا ما فى حياتى . التى كانت مكونة من المسرح

والرقص والتمثيل بالصدفة وحدها ، بدأت برسم - ولا أقول كتابة - بعض الأبيات من الشعر بالعربية والانجليزية . عبرت عن العنف والموت وهدف الحياة . اتخذت اسما مستعارا هو اندريه لايك . منعا للشبهة .

» بقيت على هذه الحال حتى عام ١٩٤٦ ، ذات يوم مئتمس من أيام باريس . دخلت الى مكتبة تباع مطبوعات شرقية . نقلت أسماء المجلات لكي أقيم معها الاتصال . رحب بي ناشر . كان هو أيضا الناشر الأول لجورج شحادة .

» عام ١٩٤٨ انعطفت نحو القصص . نشرت حكايات عن مصر في مجلات مختلفة . ثم ظهرت روايتي الأولى « نوم الخلاص » وهي تدور حول مصير المرأة الشرقية ومصاعب حياتها في شبكة العلاقات السائدة . البطلة تدعى سامية وهي مسحوقة الشخصية . تفرض عليها عائلتها زواجا قاسيا يمنعها من التعبير عن آرائها . بعد سلسلة من المشكلات الحادة تموت ابنتها . وفي ذروة اليأس تقتل زوجها « (١) » .

وقد نشرت هذه الرواية في سلسلة روايات الهلال تحت عنوان « النوم الخاطف » وأفضل ترجمة لهذا العنوان le sommeil délivré هو « نوم الخلاص » . وسامية في هذه الرواية عبارة عن سبعة يتم التقايض عليها من أجل زواجها . فهي تتزوج من رجل على قدر من يسر الحال بعد أن أصاب العوز أباهما الذي كان ميسورا يوما ما . وبينما هي في المدرسة . تفاجأ بأخيها يأتي إليها ويأخذها كي تتم الصفقة باسمها . فهي نفسها الصفقة . وتترك مدينة اسبوط كي تعيش في قرية صغيرة . في منزل يتحكم فيه زوجها الذي يكبرها بسنوات . ثم اخته العانس التي تتحكم في كل شيء ، وتفاجأ سامية أنها عبارة عن قطعة من أثاث المنزل يتم استخدامها عند الحاجة فقط . فتسكب حبها في طفلة صغيرة من بنات القرية تأتي إليها من وقت لآخر . وتكتمل سعادة سامية عندما ترزق بطفلة تحولها من شيء في البيت الى كيان . الى أم تنبض الأمومة المتدفقة في عروقها . لكن الصغيرة ، بعد أن كبرت قليلا ، تصاب بنوبة من البرد . ونتيجة لاهمال الأب وسلبيته ولقلة خبرة سامية بالحياة ، فان الابنة تموت . ولا تجد أمامها سوى أن تقتل زوجها أمام عيني اخته المستبدة .

(١) يكفي أنها مصر . يوسف القعيد . مجلة المصور - القاهرة - ٢٤ يونيو ١٩٨٨ ،

وفى وصف الجو والعالم تحس أن اندريه شديد قد عاشت رجلاً من الزمن فى سعيد مصر . فهى تعرف عاداته . وسلوك ابنائه . فسامية نموذج للمرأة المصرية التى يعاملها الرجل غالباً على أنها شيء مكمل فى البيت .

وقد عبرت الكاتبة عن هذا العالم فى بقية رواياتها بمنظور آخر مكمل . وخاصة فى روايتها « اليوم السادس » ie sixeme jour المنشورة عام ١٩٦٠ . ونحن هنا فى هذه الرواية أمام امرأة أخرى . . أنضج خبرة . وأكبر سناً وتعيش بين المدينة والريف . المدينة هى القاهرة . والزمن فى الرواية عام ١٩٤٧ . حيث انتشر مرض الكوليرا . والمرأة اسمها صديقة . انها جدة لطفل صغير تركته لها ابنتها وماتت . وصديقة تذهب فى أول الرواية الى قرية بروات للعزاء فى وفاة أحد اقاربها حيث جالت الكوليرا هناك وصالت وحصدت الكثير من المرضى . كان على صديقة أن تترك حفيدها حسن ليوم واحد كى تلتقى بأهلها الذين لم ترهم منذ سبع سنوات . وفى القرية يردد صالح - أحد الأقارب - قائلاً لها : « بوسعك أن تعودى من حيث أتيت . لقد جئت بعد فوات الأوان . لم يعد هنا سوى الأموات لاستقبالك ، فالكوليرا تحوط العجوز فى كل مكان » . تلك المرأة التى لم تعرف فى حياتها سوى الاحزان . فقد ماتت ابنتها الوحيدة قبل فترة قصيرة وتركت حسناً لتربيته .

وتجىء أهمية هذه الرحلة الى القرية من خلال ما جاء على لسان صالح أيضاً فى الصفحات الأولى من الرواية « ان الكوليرا لا تهم أهل المدن فى شيء ، انها تهمنا نحن فقط » .

وصالح هذا فى حد ذاته رمز كبير للعجوز ، فهو يحدشها عن أحوال القرية ومرضها . والأسرة التى مات منها أحد عشر شخصاً وذلك من خلال حوار طويل دار بين الاثنين . وفى هذه الزيارة أيضاً تعرف أن زوجها سعيد يجد من يتولى أمره فى غياب العجوز : تبدو المرأة وقد تحجرت مشاعرها لكثرة ما سمعت من أخبار عن موتى الكوليرا . ولا يخفف هذا التحجر سوى مرض سليم المدرس بعد عودتها الى المدينة . ثم مرض حفيدها . لقد تركت الجدة حفيدها عند الأستاذ سليم من أجل أن تذهب الى العزاء . وسليم عند اندريه شديد رمز الأمل الذى لا يموت .

وسليم المعلم يرتدى ملابس على النمط الأوروبى . كان كل شيء فى هذا الشاب يوحى لها بالثققة . كانت تجد وجهه جميلاً وسيماً . ونظراته مشرقة . اما ابتسامته فكانت تصفها بأنها قطر الندى . ولكن عندما يبدى الأستاذ سليم رأيه فى الجهل والفقر والعلم . فان وجهه يتغير

فجأة وتتوهج أذناه ويتدفق الدم فى شرايين صدره وتتصارع أفكار كثيرة فى رأسه ويتملكه عنف شديد وعندئذ تتضارب كلماته • ويختلط بعضها ببعض فتصبح مبهمة • وعندئذ تستولى عليه موجات من الشهامة والثورة لا يكاد يعى كنهها ولا يستطيع أن يدرك مغزاها أو أن يتحكم فيها •

وسليم المعلم ، شخصية ذات أبعاد عميقة كما تقدمه الكاتبة • لذا ، فإن إصابته بالمرض ترمز الى تحطيم أمل • ليس فقط فى قلب الجدة ، بل فى قلب الصغير حسن الذى انتقلت اليه الكوليرا : « بعد ستة أيام سأكون قد شفيت • لا تنس ما أقوله لك ، فى اليوم السادس ، اما أن نموت أو نبعث من جديد • اليوم السادس » • وهكذا سيصبح لهذا اليوم معنى كبير • فهو اليوم الذى اذا لم يمض فيه مريض الكوليرا فمعنى هذا انه قد اجتاز مرحلة الخطر •

وتمر ستة أيام • وينتظر الطفل • ولكن المدرس لا يعود • فينتظر مرة أخرى بلا أمل • وبعد رحيل المدرس راح حسن يتسكع تائها فى كل مكان • لا يحضر فى وقت تناول الوجبة • فلا تتمكن جدته من رؤيته لأيام بأكملها • فكم تسلل كالقطط بين الحارات مما يعنى أنه فقد حبله السرى ، مما يؤهله للإصابة بنفس المرض • وقد كان ذلك سببا لرحلة هروب تقوم بها صديقة من أجل الحفيد المريض • امرأة طاردها الآلام دوما • وما هى تردد : « ان الذى يرقد هنا ليس سوى صورة • صورة لطفل الغد • ان اليوم لا يعد شيئا مادام الغد يقترب بعد أربعة أيام من الآن » (١) •

وتقل صديقته مركب • وفى اليوم السادس يصبح كل من فوق المركب الذى تعاطف معها ، جسدا واحدا وكتلة بشرية تسعى لتوصيل حسن الى البحر مهما كانت المصاعب • منهم مروض القروود الذى ركب معها والذى يدعى عوكل • وصاحب السفينة والنوتى • وأبو نواس الذى يردد فى كل أعماقه وهو يتأمل الطفل المريض : « انه حى • ان الغد يفيض حياة » • ثم يصيح النوتى وقد أثار وجهه : انه حى •

وتكاد تكون روايتها : « نوم الخلاص » و « اليوم السادس » الوحيدتين اللتين تدور أحداثهما فى مصر الحديثة • أما بقية أعمالها عن مصر فهى تدور فى التاريخ الفرعونى • والتاريخ القبطى • مثل

(١) اليوم السادس • أندريه شديد • ترجمة حمادة ابراهيم • الدار المصرية

روايتها « اخناتون وحلم فرعون » ١٩٦٤ وهى أيضا مترجمة الى اللغة العربية . والتي موضوعها الأساسى هو الدفاع عن قدسية الحياة الزوجية ، وعن الأمل فى وجه قسوة التاريخ . فبطلة الرواية تموت فى النهاية بعد قصة حب كبيرة . وقبل غيابها تؤكد فى لحظة أمل على أن الموت ليس نهاية الحياة . انه فقط مجرد نهاية للمصير الأرضى .

أما الرواية الثانية التى تدور فى مصر من خلال التاريخ فممنشورة عام ١٩٨٢ تحت عنوان « دروب الزمن les marches du safle ونحن هنا أمام ثلاث من النساء فى القرن السادس الميلادى : «سير» . و « مارى » « واتاناسيا » . من فى أعمار مختلفة . جئن الى الصحراء القاسية من عوالم متباينة . ولأسباب أيضا تختلف . يلتقن ويقررن أن يذهبن الى الصحراء من أجل أن يعيشن معا فى مصير واحد . ولقد جاءت هؤلاء النسوة من مدينة الاسكندرية ومن بعض القرى المصرية القريبة منها . انهن يبحثن عن الراحة الأبدية فى الصحراء بعد أن عانين الكثير فى المدن والقرى . والرواية تدور على لسان رجل عجوز يدعى « تيمس » . فمارى امرأة جميلة وذات أصل نبيل . وقد عملت محظية لشخصية بارزة فى الثغر . لقد قررت ان تترك الاسكندرية فجأة ذات مساء عندما أحست ان روحا تنادىها ان تذهب . وسرعان ما راحت الصحراء تدمر هذا الجمال الحى المتدفق ، وتستهلك ذكرياتها حتى تقطع كل علاقة لها بالماضى . أما «أتاناسيا» فقد كانت زوجة وأما سعيدة الى أن جاء يوم حكم فيه المتطرفون على ابنها الأصغر بالموت وتم القبض على الطفل الذى وجد نفسه وسط قوم بالغين يحاكمونه ويقتلونه ، مما دفع الزوج أن يتجه نحو الصحراء . وكان على زوجته أن تذهب وراءه للبحث عنه .

أما المرأة الثالثة « سير » . فهى مراهقة ، فلاحه صغيرة مليئة بالسحر . وقد هربت من الدير الذى يسيئون فيه معاملتها . وقررت أن تقوه فى الصحراء باحثة عن الله من أجل حب صوفى يتم فى صمت شديد .

وفى الصحراء تلتقى النسوة الثلاث بتميس الذى يروى الأحداث . وهو رجل على مسافة خطوات من الموت . لقد جاء الى الصحراء بحثا عن «أتاناسيا» التى جاءت بدورها بحثا عن زوجها . انها بالنسبة له حبه القديم الذى لم يتمكن ابدا أن يناله . ويقول جورج ايمانويل فلانسيه : انه بالنسبة لنص تيمس فان أندريه شديد تقدم لنا فاكهة حكمتها . حكمة وصفاء يرجعان الى خبرة طويلة مرتبطة بأحزان التاريخ . فى داخلها

شعر . مثلما تكلمت المرأة بلغة فواحة . ويبدو ذلك ماثلاً في وجوه النساء المصريات الثلاث اللاتي عشن في الأزمنة القديمة ، فمهمتهن الروحية تكشف لنا رؤية الروائية . رؤية تتناسب مع عصرنا . ولكل العصور . عندما نتكلم عن « اتاناسيا » نكتب : « انها تكره جنون الرجال الأقرام من أجل السلام الذي يوحى بالمذابح » . ونفهم أن هذا الحق هو حقد دفين . ثم ها هي تعبر لتميس عن هذه الفكرة : « العالم الذي فيه النساء أكثر ظلماً لا ينقذنا أبداً من المجاعات . نحن نفكر في عالم لا يحكمه نداء الشعر وتعبر عنه أندريه شديد من خلال شخصياتها : « سير » و « ماري » و « اتاناسيا » ، انه في النهاية عالم من الجمال والطيبة والعدالة » (١) .

وعن تاريخ مصر القديمة قدمت أندريه شديد مسرحيات عديدة مثل مسرحيتها « برنيس المصرية » Berenice d'égypte ، والتي تعتبر أفضل ما كتبت في مجال الشعر . وتدور الأحداث في مدينة الاسكندرية ، بين عامي ٥٨ و ٥٥ قبل الميلاد . ابان حكم « أوليت » أحد ولادة بطليموس الذي ولاه المدينة ثم ذهب يستكمل فتوحاته . وأوليت رجل طيب يحب الشعر والفن . ولذا يطلقون عليه اسم « عازف الناي » ، ويتكلم الزاوية سترابون عن الحاكم قائلاً : « انه نموذج للشرف والفضيلة . وهو رجل خيالي ، فتنازى . يميل للرقص والصراخ . والعزف على الناي . يرمز للحزن والشجون العميقة » .

ذات يوم يقرر هذا الوالي أن يترك مكانه لابنته الشابة برنيس وهي نمرذج مكرر لأبيها وهي ، كما تقول الكاتبة ، الأخت الكبرى للملكة كليوباترا السابعة . وكى تستقر على العرش . فان برنيس تتزوج من كلاوس ، ويكون الاثنان ثنائياً بسيطاً لا يتعلق كثيراً بالسلطة . ويتصرف ببساطة مع الشعب ، فرسالتهم هي تدمير كل آثار الطغيان الذي كان يمارسه بطليموس . لكن هذا ليس أمراً سهلاً . وكى ينجحاً فعليهما الاستعانة بالشعب .

ولكن ، بعد ثلاث سنوات من الفتوحات والحروب التي لا تنتهى يعود بطليموس الى الاسكندرية ، آملاً أن تكون الأمور قد سارت على هواه . لكنه يفاجأ ببرنيس وزوجها في مواجهة عودته بكل ما يملكان . فيقرر بطليموس الاستعانة بالقائد مارك انطونيوس الذي يدخل المدينة بجيشه ويأمر باعدام الزوجين . وهنا تقرر الأخت كليوباترا أن تدخل

حلبة الصراع من أجل العرش • وأن تدافع عن الحق بعد موت أختها •
وما هو عازف ناي صغير يطوف بضواحي المدينة • يغنى حكاية الملكة
برنيس المصرية التي ماتت على أيدي جيوش الطغاة •

وفي الفترة الأخيرة ، ومن أجل لبنان ، كتبت أندريه شديد روايتين
تدور أحداثهما في لبنان الأولى في عام ١٩٨٥ تحت عنوان « منزل بلا
جذور » la maison sans racines ، والثانية في عام ١٩٨٠ تحت عنوان
« الطفل المتنامي » l'enfant multiple تدور أحداث الرواية الأولى
في لبنان عام ١٩٧٥ أي في بداية الحرب الأهلية • المنزل الذي بلا جذور
هو بيت أصبح يسكنه رجال مسلحون مثلما سكنوا لبنان • وفي هذا
البيت تلتقي لأول مرة الجدة بحفيدتها • أثناء إجازة صيف • أحدهما
تسكن باريس والثانية في الولايات المتحدة ويدور اللقاء في لحظات
قصيرة عابرة • وهناك اثنتان من النساء كانتا صديقتين في طفولتهما
أصبحتا الآن تنتميان إلى قوتين متضاربتين ولكن عليهما أن تتبادلا
الأماكن من أجل أن يسود السلام ، وكى يذوب الحقد ويخلع عنه شعره
الكثيف •

وبطلة الرواية تدعى سيسيل • انها في الثانية عشرة من عمرها •
تعيش في الولايات المتحدة • أما الجدة فتدعى كاليا • وهناك لقاءات
قصيرة عابرة بين الاثنتين • فاذا كان اللقاء الأول قد تم في أغسطس
١٩٧٥ ، فان لقاء آخر تم قبل ذلك ، حيث كان هناك لقاء بين الجدة كاليا
عندما كانت في نفس السن عام ١٩٣٢ وبين جدتها • • وهناك حالات
انتقال غير ثابتة بين الحاضر والماضي • وفي اللقاء العابر نرى هناك
جثتين لامرأتين • انهما نفس الصديقتين القديمتين اللتين جاءتا من أجل
المصالحة والسلام • لقد أطلق النار عليهما شخص مجهول •

تقول أندريه شديد : « جاءتني فكرة هذه الرواية عام ١٩٧٨ •
فكرة هذا اللقاء بين شخصين جاءا من بعيد ويطاردهما التاريخ • • لقد
رأيت الصغيرة تقع في الفخ • • ولم أكن أعرف كيف أنقذها فتركبتها
تهوى » (١) •

لقد ماتت الصغيرة في هذا اللقاء العابر مع جدتها • هبت عليها
الرياح الدموية فغرق الوشاح الأصفر في الدماء •
أما روايتها « الطفل المتنامي » فهي تدور أيضا في زمن الحرب
اللبنانية، والبطل هنا طفل برىء يدعى عمر - جو • وهو ممزق مثلما بلانده

(١) A. Ghedid, Josyan Savigneau. Le monde 20-1-1985, p. 22.

ممزقة • كما أن أسرته منقسمة • فهو من أب مسلم وأم مسيحية • وكأنه
لبنان كلها • لقد مات الأبوان في أثناء انفجار سيارة مفخخة أسفل
عمارتها في بيروت • وكان على عمر أن يعيش المأساة • هو في الثانية
عشرة من العمر • ولكن ذاكرته خصبية ومزدهمة مثل الكبار • ورغم
هذا فلهذه شهية قوية لأن يبقى على قيد الحياة • ولا يموت غدرا مثلما
حدث لأبويه • يقرر الرحيل الى باريس عند أبناء عمومته • وهناك
يلتقى بصديق فرنسي من نفس سنه يدعى ماكسيم • له شعر مجعد • ويجب
مداعية القطط • يلاحظ عمر - جو أن الأطفال الذين يعيشون في مدن
مسالمة ليست بها حرب أهلية يحبون مشاهدة التلفاز ومتابعة قصص
وأفلام الحرب • يتذكر عمر - جو بلاده التي امتلأت بأشجار الزيتون
الأسود • والنعناع • الآن أصبح وطنه أشبه بالليل الدائم •

في باريس أيضا يتذكر جده يوسف الذي يبلغ الثمانين من العمر •
والذي عاش طويلا في الجبال فيكتب له رسالة طويلة يعبر له فيها عن مدى
سعادته بالحياة في باريس • فهو لا يسمع ، ليلا أو نهارا ، أصوات المدافع
ولكنه يسمع صوت ماكسيم يلعب • ويقول ان الأشجار هنا لا تجث من
جذورها بسهولة • وهو لا يرى أى حوائط في المدينة وقد اخترقها
الرصاص ، ولكنه يرى رجلا وامراة يتبادلان القبلات دون أن يتساءلا
عن ديانة كل منهما • • وتجيء رسالة من الجد يخبره فيها أنه سوف
يأتى يوما لزيارته في هذه البلاد • ولكن هذه البلاد لن تصبح قط وطنه •
ويذكره أن المزرعة التي يعيش فيها لا يزال موجودا بها الديوك والأرانب
والماعز •

وفي الليل يحلم يوسف أن روحه تصعد الى السماء وأنه يطير فوق
البحر المتوسط • ثم يصل الى باريس •

أما عن الروايات القليلة التي كتبها أندريه شديد ولم تذكر فيها شيئا
عن الشرق • فهناك رواية بعنوان « الآخر » توحى أحداثها بأنها تدور في
لبنان حول صداقة تنمو بين شاب ورجل عجوز رأى منزلا ينهار عليه •

هذا هو بعض من عالم أندريه شديد الروائي • • فماذا عن علاقتها
بالشعر ؟ لقد نشرت مجموعة من الدواوين من أبرزها « كلمات عن
قصيدة » و « كلمات عن الأرض الجديدة » ثم « الوجه الأول » ويتسم
شعرها بأنه بالغ الخصوبة • مجرد غالبا من الأزمنة والأماكن ، عكس
ما حدث في رواياتها • وهى أشعار يصعب ترجمتها الى أية لغة • فهى
تعزف على معانى الكلمات من خلال مقاطعها وكلماتها القصيرة • وتؤمن
أن « صمام الشعر » أو مفتاحه هو الغموض • ويجب على الشاعر أن

يغوص داخل دهاليز مليئة بالأسرار والألغاز والطلاسم : « أحاول قدر
الامكان أن أبين الأشياء واضحة » ولكن هناك أشياء مختلفة في الشعر .
ويجب أن تكون لنا فيه مسالك جديدة » .

وعن الشعر أيضا تقول أندرية شديد : « ان العالم الهائج الغامض
السرى الذى نحمله فى داخلنا يفتش عن نوافذ يطل منها نحو الخارج .
الشعر هو احدى هذه النوافذ . انه خارج الأعمار والأجناس والألوان
والجغرافيا . انه مرادف للحرية أو بديل لها . لا تحده حدود القسوة
أو الدم انه قصائد أحيانا . وتسقط منها نقاط الدم . دم أسئلة عن
الموت والحياة والحب والمرأة والظمأ الى سعادة لا تكتمل أبدا » .

« الشعر جواب عن كل كائن . انه أيضا ينطوى على ضروريات
لا نعرفها ، يجب صقل العجينة الشعرية . تطويع الكلمات للوصول الى
التعبير الأكثر دقة وإيحاء . والقبض على أسرار الحياة . وكل هذا
يتطلب انتباها وعملا وبحثا لا نهاية له » (١) .

ولقد اخترنا احدى القصائد السهلة نوعا . قياسا الى أشعارها
الأخرى تحت عنوان « انتقام » من ديوانها « نزوات وأعياد » :

كى تهرب من السعير
فان السيدة الفسياء
تبيع قنواتها
كى تبني بيتا
فوق نهر البورجيز
وكوخا فوق مرتفعات البحر
لكن الريح مرة
لكن الريح مجنونة
من يفضل الفسياءات
الوقاويق التى فقدت مناقيرها
قلبت الكوخ على عقبه
والسيدة الفسياء
نفقت داخل البئر

فى عام ١٩٨٨ نشرت أندرية شديد مجموعة قصصية تحمل عنوان
«عوالم مرايا ساحرة» monde miroirs magiques وبمناسبة صدور هذه
المجموعة أجرت مجلة arabies حوارا مع الكاتبة تحت عنوان « اننى

(١) يكفى انها مصر . يوسف القعيد . مجلة المصور . القاهرة ١٩٨٨/٦/٢٤ .

أحمل شرقى فى داخلى « قالت فيه ان العوالم هنا هى التجارب الانسانية التى عاشتها • أما المرايا فهى التى تنعكس عليها ذكرياتها الحقيقية • وأحيانا الملابس التى نلبسها والتحويلات التى تمر بها • وتعنى الساحرة الحياة اليومية التى يحيا فيها الانسان داخل خيالات ، وترى شديد أنها قد لجأت الى نشر هذه الأقاصيص لأن الأقصوصة هى فن أقرب الى الشعر الذى نكتبه كثيرا • وقبل أن اذهب الى القصة القصيرة ثم الى الرواية • دون أن أهجر الشعر • أحس أنه يمكن الوصول الى تشخيص الكتابة فى القصة القصيرة • وأنا أحب أن أشخص كتاباتى • مثلما فى الشعر فنحن نتركه قبل أن نضع كل كلمة فى مكانها » (١) •

وتقول الكاتبة فى الحديث انها قد استلهمت أعمالها من منابعها الشرقية : « أنا سعيدة اننى أعيش فى أماكن متعددة • أنا أعيش كالثراء فى حرية ولكننى قلت لك اننى ليست لدى النية أن أقتلع جذورى بشكل مأساوى • فهذا ليس أمرا سهلا بالنسبة لى من أى شىء آخر • أحس أننى أنتمى الى الشرق والغرب • وقد كتبت كثيرا عن مصر ولبنان • ومصر هى وطنى الحقيقى بالنسبة لى • فان الكثير من العناصر تتلاحم • وتتزاوج • وتتقاطع • وهذا يسبب لى دوما السعادة أن أسمع ان « اليوم السادس » و « نوم الخلاص » مثلا كتابان عن الواقعية فى مصر • يجب أن تحتفظ دائما بشىء ما فى أعماقك وأنت تعبر بلغات مختلفة » (٢) •

وعن المزج بين الثقافتين الشرقية والغربية • تحدثت أندريه شديد الى مجلة « المصور » قائلة : « لا أعانى من تمزق فى المنفى أو من صعوبات التكيف ، أشعر أننى أعثر على نفسى وذاتى فى التعددية الثقافية • ان مناخى المفضل هو التناغم بين الشرق والغرب • هنا أميز بين نقاط التكامل والاختلاف • ان علاقات شرقية تسيطر على كتاباتى • من النادر العثور على علاقات غربية • جذورى فى مصر ولبنان • شعورى شرقى ، نبضى هو نبض المرأة الشرقية • الاحساس أقوى بكثير من الأساس الجغرافى • افتش عن تواصل ممكن بين الناس وأهتم بالبحث عن أرض تلاق ، وعن ينبوع مشترك وخبز تتقاسمه كل الشفاه • بسبب ذلك ، أنا فى حاجة الى التعبير والكتابة والقول • وذلك بأشكال الكتابة المختلفة • يجذبنى ما هو أساسى وطبيعى عند كل واحد منا : الموت • الحب • الحياة • » (٣) •

Arabics, Novembre 1998,

(١)

(٢) المرجع السابق •

(٣) مجلة المصور ، ١٤ يونيو ١٩٨٨ •

والجدير بالذكر أن شديد كانت قد قالت نفس الكلام فى عدد مجلة « مدام لوفيجارو » السابق الاشارة اليه : « باريس هى أرض مثل القاهرة من الرائع للكاتب أن يكون مواطناً فيها وأن يخرج أحياناً من جذوره وأماكنه . لم أبدأ فى كتابة صفحات وجدانية عن مصر الا بعد ثلاث أو أربع سنوات فى فرنسا » .

وقد حصلت اندريه شديد على مجموعة كبيرة من الجوائز الأدبية نذكر منها : جائزة لوى لاييه عام ١٩٦٦ ، وجائزة النشر الذهبى للشعر عام ١٩٧٢ ، والجائزة الكبرى للأدب الفرنسى التى تمنحها الأكاديمية الملكية ببلجيكا عام ١٩٧٥ . ثم جائزة أفريقيا البحر المتوسط عام ١٩٧٥ . وجائزة جونكور فى القصة القصيرة عام ١٩٧٩ . ثم جائزة فى الترجمة الأدبية عام ١٩٩٢ .

أحمد راسم :

يشكل أحمد راسم ظاهرة تستحق التأمل فيما يتعلق بالأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية ، وهى أنه كان متمكناً من اللغة العربية قدر لغته الفرنسية ومع ذلك فقد فضل كتابة قصائده باللغة الفرنسية ، وكان ينشر أعماله فى أضيق حيز ممكن ، حيث لم يكن ينشر أو يطبع أكثر من ٥٠٠ نسخة فقط من دواوينه ، ولذا فإن مؤلفاته المكتوبة بالفرنسية لم يقرأها الا نخبة قليلة من أصدقائه الملمين بالفرنسية . ولم يترجم شعره قط الى اللغة العربية فى كتاب ، فبدأ كأنه رقص بالفعل على السلم ، فلا هو نشر أدبه على مستوى عال فى فرنسا مثلما فعل أقرانه من الأدباء الناطقين بالفرنسية ؛ ولم يسع الى ترجمة هذا الأدب الى اللغة العربية .

والجدير بالذكر أن راسم يعد من أوائل الأدباء العرب الذين نالوا جوائز فى فرنسا . فقد منحته الأكاديمية الفرنسية جائزة خاصة تقديراً لشعره فى عام ١٩٥٤ .

نشأ أحمد راسم فى مدينة الاسكندرية . حيث كان الثغر مليئاً بأبناء الجاليات الأجنبية الذين يتحدثون لغات عديدة . وقد كان ميلاده فى عام ١٨٩٥ فى أسرة مصرية تصاهرت مع عائلة تركية . وقد نبغ بعض أفراد هذه الأسرة فى الفنون والآداب . واشتهر البعض الآخر بالوظائف الادارية العليا مثلما سيحدث مع راسم نفسه حيث تبوأ ، كما سنرى ، العديد من المناصب فى السلك الادارى .

التحق أحمد راسم بمدارس الاسكندرية الفرنسية . وقد كتب الشاعر السكندري نيقولا يوسف مقالا عنه فى عدد شهر يونية ١٩٦٩ من

« المجلة » قال فيه انه : « أجاد اللغتين العربية والفرنسية ودرس أدبيهما ، ثم تلقى العربية على يد أستاذ خاص • والتحق بمدرسة رأس التين الثانوية • ثم درس القانون بمدرسة الحقوق •

« وكان منذ عهد التلمذة شغوفاً بمطالعة الكتب – الأدبية والفلسفة والعلمية – فى اللغات العربية والفرنسية والانجليزية • ويبدو أثر هذه المطالعات فى كتاب طبعه فى الاسكندرية عام ١٩١٦ وهو فى نحو العشرين من العمر • • وسماه « الدين والانسان » الجزء الأول (وضع بالفرنسية ثم ترجم وروجع) وجعله فى قالب حوار قصصى أو مناظرة تتخللها صور وأوصاف فكهة بين فيلسوف مادى ملحد وطالب روحانى مؤمن • • ثم بين الشك واليقين • ووردت فى الحوار أسماء وآراء لبرجسون ، ومونتانى ، والكسيس كاريل • والعلماء سوس ويسكال وجوستاف لوبون • كما ترد تجارب كيماوية ، ونظريات فلكية ، وآراء علمية كانت ثابتة فتغيرت • يستشهد بها الماديون •

« فهذا الكتاب على صغر حجمه مع براعة حواره يدل على اهتمام مؤلفه أحمد راسم منذ صباه بالمسائل الفلسفية والنظريات العلمية • ثم بترجيح الايمان والروحانية على الالحاد والمادية ، فى حين كان أمثاله من أبناء الأعيان يعمهون فى وديان أخرى » (١) •

ويقول بشير السباعى ان أحمد راسم قبل أن يتم العشرين من عمره كان قد قرأ وحفظ ، عن ظهر قلب ، الكثير من أعمال الشعراء الكلاسيكيين العرب والفارسيين والهنود واليونانيين واللاتينيين ، الى جانب الكثير من أعمال الشعراء المحدثين الشرقيين والغربيين على حد سواء •

« فى عام ١٩١٥ ، أحب أحمد راسم فتاة صغيرة اسمها نيسان ، لكن الموت سرعان ما فرق بينهما ، فسافر الى أوروبا (٢) •

وقد عشق أحمد راسم الفن التشكيلى وهو فى هذه السن • فصادق الفنان المعروف محمود سعيد • ثم بدأ يبدع باللغة الفرنسية • وحسب نيقولا يوسف «كان سبب اتجاه راسم للابداع باللغة الفرنسية أنه كان يتقنها ويطلع على أدبها ، وتعرفه الى الأوساط الفنية والأدبية بالاسكندرية • فكان أن اتخذها أداة للتعبير فى معظم انتاجه الأدبى الغزير • ونظم بها جل أشعاره المتسمة بالطابع الشرقى • فى أسلوب بارع

(١) أحمد راسم • نيقولا يوسف ، المجلة ، يونيه ١٩٦٩ ، ص ٤٢ •
(٢) أحمد راسم • بشير السباعى • مجلة القاهرة ، أكتوبر ١٩٩٠ • ص ٣٥ •

لا يقل روعة عن أسلوب شاعر فرنسي كبير أصيل . وبدأ ينشر شعره
فى الصحف والمجلات الفرنسية بمصر ، ومنها مجلة « مصر الحديثة » ،
و « الصحف الأسبوعية المصرية » كما فى غيرها (١) .

أحمد راسم ، اذن ، كان يكتب بالفرنسية وهو فى مصر . وبدأ كأنه
يعيش فى بلاده بجسده فقط . فلم تشر أى من المراجع التى بين أيدينا
أنه كان على صلة بالمتقنين المصريين الذين يكتبون باللغة العربية . بل
صادق النقاد الفرنسيين . وتعرف على أبناء الجاليات الأخرى من المتقنين
الذين ترجموا أعماله الى لغاتهم مثلما فعلت الشاعرة اليونانية
السكندرية اليزابيث بسارس . كما شارك فى تحرير مجلة « الأسبوع
المصرى » التى كانت تصدر فى القاهرة فى العشرينات وهى من تمويل
كاتب يونانى يدعى ستافروس ستافرينوس . لدرجة أن « المجلة » قد
خصصت عن شعر أحمد راسم عددا خاصا فى عام ١٩٢٦ . وقامت نفس
المجلة بإصدار ديوان لراسم يحمل عنوان « وجدتى تقول أيضا » فى عام
١٩٣٠ ويعتبر هذا هو الديوان الثانى للشاعر حيث كان قد أصدر فى عام
١٩٢٧ ديوانه الأول تحت عنوان « كتاب نيسان » le livre de Nyssane
الذى استوحى أشعاره من حبيبة مرحلة الصبا « نيسان » .

فى تلك الآونة كان أحمد راسم يتدرج فى الوظائف ، وقد ساعده
فى سرعة الترقى اتقانه للغات الأجنبية بالإضافة الى ثقافته ووسامته .
فعمل فى السلك الدبلوماسى فى العديد من عواصم العالم فى كل من إيطاليا
واسبانيا وتشيكوسلوفاكيا ، وساعده ذلك على الاتصال المباشر بثقافات
أخرى . وكثيرا ما ارتبط بصداقات مع أبناء هذه البلاد خاصة الأدباء
والمتقنين .

وعندما عاد الى مصر عام ١٩٢٨ عمل فى مناصب إدارية عليا
فكان سكرتيرا عاما لرئاسة مجلس الوزراء . ثم وكيلا لمحافظة القاهرة .
ومحافظا لمدينة السويس فى عام ١٩٤١ . كما عمل بعد ذلك مديرا لإدارة
المطبوعات ، وكان آخر هذه الوظائف مدير عام مصلحة السياحة المصرية
عام ١٩٥٢ . ثم ما لبث أن ترك الوظيفة كى يتفرغ لأدبه حتى وفاته فى
يناير عام ١٩٥٨ .

ويقول نيقولا يوسف ان أحمد راسم قد « عرف خلال تلك الوظائف
المختلفة ، فى بلاده وخارجها ، بوطنيته والاعتزاز بعرويته . فكان يضع

(١) أحمد راسم . نيقولا يوسف ، مرجع سابق ، ص ٤٣ .

دائماً مصلحة وطنه ومواطنيه فوق كل اعتبار . وكان فى الوقت نفسه موضع تقدير المواطنين والأجانب معا « (١) .

تنوع نشاط راسم الكتابى بين الابداع الشعرى باللغة الفرنسية ، وهو نشاطه الغالب ، وبين الترجمة والنقد . وفى أشعاره النثرية التى نشرها فى دواوين مثل « قصائد العذارى » عام ١٩٢٥ . و « جدى يقول أيضا » ١٩٣٠ . و « زمبول » ثم « يقول أيضا » ١٩٣٢ و « أحمد يقول » . وتبدو مدى حميمية الشاعر مع الأشخاص الذين عاش معهم . خاصة أبناء أسرته . فقد كتب من أجل جدته الشركسية الأصل التى كانت تدعى زنججيل - أى لون الورد باللغة التركية - بعض الكلمات فى ديوانه الأول « كتاب نيسان » وهو شعر منثور ، بينما أطلق اسم مربيته « زمبول » وهى كلمة تعنى الهزيمة كسراج على وشك الانطفاء . فقد أهداها عنوان ديوانه الثانى . وقد تنوعت أعمال راسم فنشر من الدواوين « سقت حمارى » عام ١٩٣٥ . و « مهبول عتاقة » ١٩٤١ ، و « الحقيقة العتيقة » ١٩٤١ ، ثم « بائع الكتب الصغير الأستاذ على » عام ١٩٤٣ . و « نثر لا جدوى منه » ١٩٤٩ . و « ملك » ثم « حاتم الطائى » عام ١٩٥١ . و « نوال » ١٩٥٢ . و « نهى » ١٩٥٣ . و « يوميات مصور خائب » ١٩٥٤ أما مؤلفاته بالعربية فهناك « الدين والانسان » ١٩٢١ . ثم شعره المنثور « الحديقة المهجورة » ١٩٣٢ .

ويقول لوسيان البير فى حديثه عن ابداع راسم الشعرى : « وكما أن عناصر الضوء السبعة والتى يضمها اشعاع أبيض من النهار تتحلل على وجه الماسة الى ألوان قوس قزح . وتنطلق فى حزمة من الألوان لا يفصل أحدها عن الآخر غير لون شاحب خفيف . . فانه هكذا تفتحت الروح السكندري لأحمد راسم فان الشعاع الأبيض للبهجة أو ما شابه من العناصر الخالدة لشعر الحب ينثر على الفور روحا متألقة لضوء مميز . . وكان على هذا الروح السكندري أيضا المنبعث من سلاله ظل نساؤها طويلا لا يتذوقن الحياة الا فيما يدور بأحلامهن . فى أعماق القصود المزدوجة الاغلاق - بالشعريات العربية الطراز « المشربيات » . وبالسياج الكثيف المرصع بالياسمين المتراخى . وان هى الانافذة تزيد القنوط ثقلا على قلب معتكف . ثم ما يلبث حفيد « زنججيل » ان يبلغ وقتا بدأ فيه الصبايا حوله يستمتعن بالحريرات البريئة » (٢) .

(١) أحمد راسم . نيقولا يوسف ، المجلة ١٩٦٩ ، ص ٤٣ .

(٢) المرجع السابق .

ويهمنا أن نشير أن راسم كان من أنصار الشعر الحر والشعر
المنثور . لذا فإن الكثير من أبداعه أقرب الى الشعر المنثور . و « قد
تخرج القصيدة فى عمود - كل سطر فيه كلمتان أو ثلاثة أو عشرة - متصلة
فى المعنى ولها فى النهاية وقفات . وقد يكون هناك وزن أو لا يكون . .
ويكتب على غلاف كل مجموعة بعد اسمها كلمة « أشعار » ويعدها النقاد
الفرنسيون شعرا . ولم يتجاوز راسم الحقيقة فهو شعر له مبنى ومعنى .
وهو عاطفة منطلقة على الورق لا تحدها قيود وقواف وأوزان ، وفى شعره
خيال يبدع ويبتكر ولا يشتط ويجمع - ورمز لا يغوص فى الابهام . وفيه
سخرية أقرب الى الدعابة . وغزل رقيق لا يتماجن . وصوفية من وحى
الروح . ومادية من وحى الجسد . وصور شعبية للناس . والشارع
ودكان البدال والبحر والصحراء . والساقية والنخيل . . وصور من
الشرق والغرب وثقافة عالمية . ولكن القلب البشرى هو المحور الذى تدور
حوله كل هذه المساحات الأرضية . ان الكثير من قصائده ليذكر بالصور
التشكيلية التى أبدعها ابن خاله الفنان محمود سعيد ، ذات الحيوية
الناضة والبعيدة عن شطحات التجربة ومستغلقات الرمزية .

و « اذا كانت اللغة الفرنسية هى الثوب الأنيق الذى ارتدى به
شعره . فقد كان هذا الشعر بمثابة الانسان الشرقى . والروح المصرى
الطابع الذى تخرج من فيه بين آونة وأخرى لفظة عربية تنم عليه » (١) .

كنا قد أشرنا أن أحمد راسم قد حصل على جائزة الشرف المدونة
باسم فارس . وجائزة خاصة من الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٥٤ . وقد
كتبت مجلة « الاثنين » تحية الى راسم بهذه المناسبة يهمنا هنا أن ننقلها
قالت فيها :

« والجائزة التى منحها المجتمع الأدبى الفرنسى لأحمد راسم هى
تحية موجهة لمصر كلها . لا لأحمد راسم وحده .

« والذى يؤسف له الا يكون أحمد راسم قد فكر فى نقل بعض مؤلفاته
أو تكليف أحد أصدقائه بنقلها الى العربية . ففى هذا اتمام للفائدة .
وتفخيم لتقدير الشاعر الملهم ، والكاتب اللبق فى الأوساط المصرية نفسها .
حيث القارئ المصرى يجهل الكثير عن مواطنه أحمد راسم ، الذى يصوغ
منذ نحو أربعين سنة لآلى عواطفه حيث يمتزج الحب بالألم حيناً .
وبالفرح أحياناً » (٢) .

(١) المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(٢) أحمد راسم . مجلة الاثنين - ٩ أغسطس ١٩٥٤ .

وإذا كان أحمد راسم لم يقم بترجمة أعماله ولم يطلب من أصدقائه أن يفعلوا ذلك • فانه بعد أربعة وثلاثين عاما من هذا التاريخ قام بشير السباعي بترجمة مجموعة من أشعار راسم نشرت في مجلة « القاهرة » • وكما قال المترجم فانه اعتمد في ترجمة أغلب القصائد التي نشرت في المجلة على نسخة من مختارات راسم الشعرية مهداة من الشاعر الى شكرى زيدان الصحفى المعروف فى دار الهلال •

وقد اخترنا قصيدتين ترجمهما السباعي • الأولى تحت عنوان « دعاء » :

الهى يا من تعلم
نقل الكلمات
أدعوك أن تجعل كل قصائدى أغنيات حب
مطرزة بالصمت كأفئدة اليتامى
لأنه لم يبق فى
غير إيقاعات خفية
لأنه لم يبق فى
غير سر الكلمات
المتلاطمة حتى الضنى
أدعوك أن يتسنى لى مثلاً تسنى للشاعر
قاوئسين
أن أتمم بأغنيات على عود بلا وتر
لا يفهمها سوى حبيبتى
مثلاً تفهم نظرتى
حين تسألنى خجلى
على عرى
يديها الأنثويتين •

ومن قصيدة « كيف يمكنك » يقول :

حين تفتشني عن أسرار قلبي
تشبهين الأطفال الذين يهشمون لعبهم بحثاً عن الروح الخفية
التي تحرك قطاراتهم
إن كان حلمي على إيقاع أصابعك يشدو

وان كان فكرى على زورق ضفائرك يهيم
فكيف يمكنك الشك فى عاطفتى ؟
حين يتركز على بهاء عينيك
اشعر ان كل شعاع حزمة حية
وهيئات ان اكون فى اى وقت آخر اكثر قربا من الله .
جـورج حنين :

قليلة هى المراجع العربية التى تحدثت بشكل متسع عن جورج حنين .
ومن أهم هذه المراجع كتاب لسمير غريب يحمل عنوان « السريالية فى
مصر » . فيه تابع المؤلف حركة السيرياليين فى مصر من خلال مجموعة
من أبرز أبناء هذه المدرسة مثل رمسيس يونان وأنور كامل وكامل
التمسانى وإبراهيم فارس . ورغم تعدد هذه الأسماء الواردة فى الكتاب
الا انه من الواضح تماما أن سمير غريب قد كتب كتابا عن جورج حنين
فى مصر . فقد خصص صفحات كثيرة من هذه الدراسة عن حياة وعطاء
حنين خاصة فى فترة حياته فى مصر . ونحن نعتز أن المراجع التى
بين أيدينا عن الشاعر المصرى أقل كثيرا مما توفرت لدى سمير غريب
الذى اعترف ان مجموعة من أصدقاء الشاعر وأفراد أسرته قد أمدوه
بالمراجع خاصة صديقه عبد القادر الجنابى . وزوجة الشاعر اقبال
العليلى .

ولذا ، فان اغلب ما سيرد فى الحديث عن حنين سيكون مرجعه ما جاء
فى هذا الكتاب . فحنين مولود فى العشرين من نوفمبر عام ١٩١٤ من
اب مصرى وأم ايطالية . وجورج لم يذهب قط الى المدرسة ولكن مربيا
تولى تعليمه القراءة والكتابة حتى سن الثانية عشرة . وفى عام ١٩٢٤
عين والده سفيرا لمصر فى مدريد فصحبه جورج ومربيه . وهناك تعلم
اللغة العربية وحاول ان يترجم اليها كتاب كارل ماركس «رأس المال» .

اذن ، فجورج حنين كان يجيد اللغة العربية لدرجة انه كان يترجم
اليها . وذلك بعكس أقرانه مثل البير قصيرى وأندريه شديد .

وقد انتقل جورج مع أبيه بين روما ثم مع أمه الى فرنسا والتحق
بجامعة السوربون فى باريس ، وحصل منها على ثلاث شهادات « ليسانس »
فى الحقوق والأدب والتاريخ حتى عام ١٩٣٩ . خلال تلك الفترة كان
يتردد على القاهرة ويشارك فى بعض الأنشطة الثقافية (١) .

(١) السريالية فى مصر . سمير غريب . الهيئة العامة للكتاب . القاهرة ١٩٨٦ .

وفى عام ١٩٢٤ كتب كوميديا انسانية بعنوان « تكملة ونهاية » ثم انضم الى جماعة فنية تسمى جماعة « المحاولين » قبل التحاقه بالسوربون « وكان سكرتيرها جابرييل بقطر . » كما صدرت مجلة شهرية باللغة الفرنسية اسمها « انيفور » Un effort وتصف نفسها بأنها المجلة الوحيدة النزيهة فى مصر ومركز الفكر الحر . وقد تحدث جورج فى إحدى ندوات هذه الجماعة عام ١٩٣٧ عن الشاعر المستقبلى الايطالى « مارينيتى » وأدان بقوة تواطؤ الشعراء والامبريالية الايطالية فى الأعمال الأدبية الفاشية (١) .

وقد نشر جورج مقالاته فى هذه المجلة . ثم نشر بيانه « ومن اللاواقعية » عام ١٩٣٥ اتضح فيه كم كان قريبا من السريالية . ثم نشر قصصا باللغة الفرنسية فى مجلة « انيفور » وهى قصص تسخر من البرجوازية التى أسماها بالحمقاء . كما نشر قصائد بالفرنسية . وراح يرسل مجلة أدبية فرنسية تحمل اسم « ليزيمبل » les humbles ونشر فيها مقالات مطالبا بسيادة البروليتاريا . ويقول سمير غريب ان «ابن الباشا ، كان بعيدا عن الاسترخاء فى حياة أولاد الذوات وأظهر تعاطفا شديدا مع الفقراء والمضطهدين ، وشعر بأنه يجب الاعداد لنهضة جديدة ، تفرض الأفكار القادرة على تغيير المجتمع ، وأراد أن يكون من بين من يأخذون المبادرة » (٢) .

وقد أبدى حنين حماسه الشديد فى أن يقدم لأبناء وطنه من المثقفين نماذج من الأدباء الفرنسيين المعاصرين . ولذا ، قدم الى قراء العربية كلا من فردينان سيلين وأندريه مالرو وهنرى دى مونتيلان وآخرين . كانت لديه الرغبة لأن يظهر لفنانى بلده كيف أن الفنون التشكيلية قادرة على المشاركة ، مثل الكتابة ، فى معرفة الانسان .

فى تلك السنوات كان جورج حنين ينتقل بين القاهرة وباريس ، وفى عام ١٩٣٦ تعرف على الكاتب والقنان السريالى أندريه بريتون . وفى عام ١٩٣٧ قدم محاضرة عن السريالية . ثم بدأ يشكل جماعة من السرياليين المصريين أمثال الشاعر ادمون اليابس ، والرسامين كامل التلمسانى ورمسيس يونان . وقرر أن يسمى جماعته « الفن والحرية » تعبيرا عن انتمائه لتروتسكى .

وفى نوفمبر ١٩٣٨ أصدر جورج أول دواوينه باللغة الفرنسية تحت عنوان « لا معقولية الوجود » De raison de l'être مزيئا برسوم كامل

(١) المرجع السابق ص ١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦ .

التلمساني • وفى يناير تكونت جماعة « الفن والحرية » l'art et la liberté
التي أصدرت مجلة « التطور » عام ١٩٤٠ والتي كان من أهدافها :

(أ) الدفاع عن حرية الفن والثقافة •

(ب) نشر المؤلفات الحديثة ، والقاء محاضرات عن كبار المفكرين
فى العصر الحديث •

(ج) إيقاف الشباب المصرى على الحركات الأدبية والفنية
والاجتماعية فى العالم •

وفى ديسمبر ١٩٣٩ شارك فى تأسيس جريدة باللغة الفرنسية تحمل
اسم « دون كيشوت » فكان يكتب ويرسم فيها • ولكن مجلة « التطور »
التي صدرت عن الجماعة فى عام ١٩٤٠ باللغة العربية كانت تجمع بين
السياسية والأدب والفنون • ولكن المجلة لم يكن لها مورد مالى سوى
تبرعات الأعضاء ، وبالأخص جورج حنين وحصيلة بيعها القليلة • وقد
نشرت قصصا وقصائد لأدباء من نفس الجماعة وأدباء آخرين من غير
الجماعة مثل البير قصيرى • وعانت المجلة من مشكلة الاستمرار فلم
تصدر سوى سبعة أعداد فقط •

وبعد توقف « التطور » تعاون السرياليون مع سلامة موسى صاحب
مجلة « المجلة الجديدة » وفى عام ١٩٤٢ انتقل امتياز المجلة الى رمسيس
يونان ثم ظهرت مشاكل تعوق دون استمرارها ، ويقول سمير غريب : « أدت
المجلة الجديدة دورا عظيما فى مرحلتها • كانت مجلة سياسية ثقافية
أعلنت عن نفسها بأنها مجلة « للكفاح والتجديد الاجتماعى » (١) •

كان جورج حنين يمضى اجازاته فى باريس • وخلال اقامته هناك
عام ١٩٤٦ التقى لأول مرة بالشاعر أيف بونفوا الذى كتب عنه مقالا
فى مجلة « كنزان لىترير » فى العدد ٢٠ عام ١٩٧٧ متسائلا : « من كان
جورج حنين ؟ : من الخارج كانت حياته ، على الأقل من الناحية الأدبية ،
تبدو للرهلة الأولى وكأنها ترجع الى مجموعة من الظروف • فهو مصرى
قبطى ، ولكنه فرنسى الثقافة بلغ سن النضج عند عتبة الحرب • وظل لمدة
اثنى عشر عاما الرجل الذى يفكر لجيله فى مصر • وقد أتى لهم
بالسريالية • الى مجتمع توحدت فيه الروحية بالمجتمع فى رباط محكم
مثلما حدث بين ماركس ونييتشه • ومثل جوليا لاسيرسا بكافكا • وجاءت

(١) المصدر السابق ، ص ٧٧ •

دار النشر التي أسسها والتي أطلق عليها اسم « حصّة الرمل » la part du sable وقد بدا صوته مسموعا وهو ينشر أعمال هنري ميشو وجان جرنبيه وادمون اليابس وشعراء شباب في مجلته الجميلة « حصّة الرمل » في فرنسا ، وفي باريس التي كان يعود إليها بقدر الامكان كل ربيع كان يشارك مجموعة أنسدرية بريتون ، دون أن يمس استقلاليتها البالغة الحساسية . ولعب دورا كبيرا في إعادة نشر « مقاطعة مدشنة » أكثر مانفستو أهمية في تاريخ السريالية بعد الحرب . حدث ذلك في ليلة افتتاح معرض عام ١٩٤٧ . كما شارك أيضا في « الفرقة الثالثة » المجلة التي أسسها جان ماكويه (١) .

ومن الواضح أنه عند الكتابة عن حنين ، فان كلا من الكاتب العربي والفرنسي قد نظر اليه من منظوره القومي . فسمير غريب قد اهتم بنشاط جورج حنين في مصر . أما بونفوا فقد كتب عن نشاطه في الثقافة الفرنسية . ومن الواضح أنه بعد عام ١٩٤٧ زاد نشاط حنين في الثقافة الفرنسية ويقول بونفوا ان حنين قد اضطر الى أن يترك مصر كي يتوجه الى اليونان . أما سمير غريب فيقول انه في عام ١٩٥٣ غادر حنين فيلا والديه في روض الفرج ليقوم في الزمالة مع زوجته وأصبح المحاور الممتاز لكثير من الأدباء الذين يمرون بمصر من كتاب وصحفيين واساتذة وبخاصة المتخصصين في الاسلام مثل جاك بيرك ولوى ماسينيون ، ويقول الكسندريان ان جورج حنين كان لديه ميل للاعتقاد أن وجود الشرق يعتمد على أهميته بالنسبة للغرب . وفي نفس الوقت ، كان يحذر قليلا من تقدير المثقفين الفرنسيين المبالغ فيه للثقافة العربية . كما يقول جورج حنين نفسه : « ان أوروبا بأئسة مرتين ، حاربت الشرق عندما كان يمثل حالة سطوع . وتبحث عنه اليوم لأسباب عميقة في حين أنه يمثل حالة الانحطاط الأكثر قذارة » (٢) .

وقد نشر حنين في تلك الفترة مجموعة من القصص القصيرة في مجموعة من القصائد النثرية تحت عنوان « العتبة المنوعة » le seuil interdit التي صدرت عام ١٩٥٦ . كما كتب مقالات في صحيفة « لوبروجريه اجيبسيان » .

وقد وجد حنين أن عليه أن يغادر مصر بعد أن جاء ضابط من الجيش ليجلس على مكتبه في شركة السجائر التي كان يعمل فيها . فسافر الى

(١) G. Henin Yves Bonnefoy. le quinzain litteraire, 1977.

(٢) مصدر سابق ، ص ٣٦ .

اليونان عام ١٩٦٠ . ثم توجه الى ايطاليا وطن أمه . ثم قرر أن يعيش في باريس حيث وجد فرصة عمل ومسكنا للاقامة .

ويقول سمير غريب ان حنين قد انتقل بين بلاد عديدة بعد ذلك ، ومن المعروف انه عمل مع زوجته في هيئة تحرير مجلة « جون أفريك » الأسبوعية وهي مجلة تصدر باللغة الفرنسية وتهتم بثقافة العالم الثالث . وقد عمل فيها عدة سنوات ونقل ادارتها من المغرب الى باريس . وفي السنوات الأخيرة من حياة الشاعر شهد حنين نشاطا مكثفا على المستوى الثقافي فكتب مقدمة كتاب يحمل اسم « مختارات الأدب العربي المعاصر » وشارك في « الموسوعة السياسية الصغيرة » التي أشرف على إصدارها الشاعر جان لاكوتير . وفي ١٨ يوليو عام ١٩٧٣ رحل عن عالمنا . وتم دفنه بالقاهرة بناء على وصيته .

وفي كتابه عن « السريالية في مصر » اهتم سمير غريب كثيرا بالجانب التشكيلي لجورج حنين . وبآرائه السياسية وكتاباتة النثرية في الفنون والسياسة ولم يهتم به كمبدع وشاعر الا من خلال نشره لخمس قصائد سبقت ترجمتها الى اللغة العربية . بينما اهتم الشعراء الذين كتبوا عنه كمبدع خاصة ايف بونفوا في مجلة كانزان السابق الاشارة اليها . وقد اخترنا هنا بعض أشعاره ، والحقيقة أن دواوين حنين كانت قليلة رغم عطائه الشعري . ففي عام ١٩٤٨ نشر ديوانه « حصاة الرمل » . وله ديوان آخر تحت عنوان « العلامة الأكثر ظلاما » ، وبشكل عام فان جورج حنين كان يرى أن الشعر هو « الاداة وكمزادف لتحد أكبر : تحد للقوى الكونية ، لملكة الموت ، وللأسرار التي تحاصر حياتنا الدنيوية . الشاعر يتعلم الضحك في المقابر ، يستخدم الجنون كسلاح ضد فقر العقل ، يستخدم الحلم كسلاح ضد املاق الواقع . من سوفوكليس حتى ليرتريامون مرورا بشكسبير ، تنتشر السلسلة الشعرية على ايقاع عاطفي دائما أكثر تشجيعا ، في مناخ حاد حيث تتجابه وتمتزج كل التعبيرات الممكنة عن الرغبة ، حيث تبعد الرغبة من أجل الضرورة الوحيدة للانطباق عليها . لأشياء جديدة جذابة ، تخترع الرغبة من أجل الحاجة الوحيدة للاحتراق في لهيبها . لبؤرة تمغنت جديدة » (١) .

ومن هذا الشعر نقدم جزءا من قصيدة « مبدأ هوية » المنشور في ديوانه « العلامة الأكثر ظلاما » .

G. Henine, Condition de la poésie, Don quichotte 8-3-1949, (١)
p. 2.

راح يجمع اسمه
كمياه أسنة
تسقط فيها الحجارة
صانعة نقطة حولها دوائر
اقجه نحو السماوات
خاشعا وصابرا
يقاوم ليل السماوات
غير مضح بصورته الخاصة
التي تشبهه باليأس

أثناء دخوله المدينة
انغلقت الأبواب مثل
بين الرجل والمرأة
لا توجد أكثر من فتحة
من فصل قلوبى

وجود الندم
سيحل في العالم
بيد ساكنة

ويهمنا هنا أن نقدم نموذجا آخر من شعره ، حيث نقتطف من
قصيدته « انتحار مؤقت » كما جاءت ترجمتها في كتاب « السريالية في
مصر » (١) :

شفاه نادرة مختصرة
تلفتح لادع جاسوسا يمر
وهو متخف في فرقة عازفة

(١) السريالية في مصر • سمير غريب • هيئة الكتاب • القاهرة - ١٩٨٦ ،
ص ٢٠٢ .

لا أعرف أبدا أى لحن
ينشبت بطرق من اللهب
والآن تقف النافذة
بغير عمد ولا ضوء
شقيقة الشفاء المرة
فمنها تدخل الاعصاب الهائجة
متلبسة أيادى بشرية
تقطع رؤوس النساء
بعد الحب
على مائدة ما
شيء يبتسم خلال نعاسات العالم
أذنه وجهه
لا يلمح أبدا
ولا ينسى أبدا
وجه يؤرجحه
ثلج الذكرى الذى لا ينتهى

قائمة بأسم الأدياء المصريين الذين كتبوا

باللغة الفرنسية

ـ يعقوب ، يوسف (١٧٩٥ – ١٨٣٢) :

ولد في مصر القديمة . يرجح أنه أرمنى . أغلب أبناء أسرة يعقوب الذين عادوا مع الحملة الفرنسية الى فرنسا ، علمه أبوه اللغة العربية . سافر الى باريس عام ١٨٢٠ ونشر ديوانه الأول في « مدح مصر » الذى جذب اليه الانتباه عام ١٨٢٠ ، كما اشترك فى اعداد وضع « وصف مصر » . ارتبط بصداقة مع الشيخ الطهطاوى ثم عين مدرسا للغة العربية فى (مدرسة الشباب للغات) اهتم بالشعر . سافر وأسرته الى مارسيليا وهناك مات .

من أعماله : محاضرات تاريخية عن مصر (١٨٢٣) . قصص رومانسية عربية فجة (١٨٢٧) . مزيج الآداب الشرقية والفرنسية (١٨٣٧) .

ارتين ، يعقوب (١٨٤٢ – ١٩١٩) :

من أصل أرمنى . كان أبوه وزيرا للخارجية فى حكومة محمد على . درس فى تركيا وفرنسا . واهتم بالقانون والأدب واللغة . عندما عاد الى مصر عام ١٨٧٠ عينه الخديو اسماعيل سكرتيرا أوريبيا للقصر . وبعد ذلك عين وزيرا مرتين . واهتم بالأدب المصرى . من أهم أعماله : « الممتلكات العقارية فى مصر » (١٨٨٣) و « حكايات شعبية » (١٩٨٥) . و « ١٦ حدوته » (١٩٠٣) و « حكايات شعبية سودانية » (١٩٠٩) .

اكساوس ، سيلين (١٩٠٣) :

ولدت فى الاسكندرية من أبوين لبنانيين عاشا طويلا فى مصر . درست فى المدارس الفرنسية . كان أخوها رينيه ناسو شاعرا موهوبا . اختلطت بالأوساط الأدبية . وساهمت فى الحركة الأدبية الناطقة بالفرنسية فى مصر ولبنان من أعمالها « الكنيستان » ١٩٤٣ و « السلم العاجى » ١٩٥٢ . وتاريخ وفاتها غير معروف .

أركاش ، جان (١٩٠٢ - ١٩٦١) :

ولدت فى الاسكندرية لأب من أصل سورى لبنانى وأم فرنسية .
درست فى « ليسيه فرانسيه » ثم درست الأدب والموسيقا . تزوجت عام
١٩٤٥ وانتقلت لتعيش فى القاهرة . وماتت عام ١٩٦١ ودفنت فى
الاسكندرية . لم تنشر أعمالا أدبية . لكن أغلب ما تركته مسودات :
الاسكندرية فى مرآتى (١٩٣١) ، الفرقة العالية (١٩٣٣) ، أمير الصليب
(١٩٣٧) شفا أبو سليمان (١٩٥٣) نشر فى دار المعارف .

أسعد ، فوزية (١٩٢٩)

ولدت فى القاهرة لأبوين صعيديين . درست فى مدرسة « ميردى
ديو » ورحلت الى فرنسا . وحصلت على دكتوراه فى الفلسفة وعادت
لتدرس الأدب فى جامعة عين شمس . تزوجت من د . فخرى أسعد الذى
سافر الى جنيف . من أعمالها « المصرية » رواية (١٩٧٥) وكتاب
باللغة العربية عن سورن كيركجارد (١٩٦٥) ، ورواية « أطفال وقطط »
١٩٨٧ و « البيت الكبير فى الأقصر » ١٩٩٢ .

بارم ، راعول (١٩٠٤) :

من أصل ملطى . ولد فى بورسعيد . ودرس فى القاهرة فى
المدرسة الألمانية . ثم فى مدارس الجزويت بالاسكندرية . نشر أشعاره
الأولى وهو فى سن الرابعة عشرة بالقاهرة فى الصحف . ثم نشر أول
ديوان له عام ١٩٢٦ . اشترك فى تأسيس ست مجلات أدبية باللغة
الفرنسية . عمل فى الترجمة . ومدرسا . وعمل فى إحدى دور النشر .
ترك مصر عام ١٩٥٦ الى ايطاليا . من دواوينه : « الملاحق الأولى » ديوان
شعر ١٩٢٦ ، « مفتون بشفتيك » ١٩٢٨ ، « أرفع الستار » ١٩٢٩ ، « جناح
قديم » ١٩٣٠ ، « الصلاة الراقصة » ١٩٦٩ ، « مجدف من ذهب » ١٩٧١ .

بلوم ، روبير (١٩٠١) :

ولد فى تونس . ثم تركت الأسرة تونس الى القاهرة عام ١٩٠٤ .
عمل مفتشا فى المدارس الاسرائيلية ثم رحل الى فرنسا ليؤدى الخدمة
العسكرية عام ١٩٢٢ . وعاد الى مصر ليعمل بالصحافة فى الاسكندرية
ثم فى القاهرة . روائى وكاتب قصة قصيرة وشاعر . وكاتب مسرحى .
من أعماله « أشياء صغيرة » (١٩٢٥) و « الظلال على الحائط » ١٩٢٨ ،
« خمسة مشاعل » ١٩٣٠ ، « قصص أطفال للكبار » ١٩٤٢ ، « قوس
قزح » ديوان شعر عام ١٩٥١ ، « علامة عربية » رواية ١٩٥٥ .

بونجان ، فرانسوا (١٨٨٤ - ١٩٦٣) :

ولد فى ليون • ودرس فى المدينة • وهناك كتب روايته الأولى « قصة اثنتى عشرة ساعة » كتب لها المقدمة رومان رولان • وصل عام ١٩١٩ الى مصر وأقام بها ٥ سنوات وشغف بها كثيرا • وصادق مثقفا مصرية هو أحمد نصيف الذى فتح له مجال الاسلام والأزهر • عاد الى فرنسا وطلب العودة الى مصر • وعاش سنوات بين المغرب وسوريا والجزائر ومات فى الرباط • من أعماله : « منصور ، قصة طفل مصرى » ١٩٢٤ ، « منصور فى الأزهر » ١٩٢٧ ، « الشيخ عبده المصرى » ١٩٢٩ ، « الثقة فى فتاة ليل » ١٩٣٩ •

جون سيانيفو ، أجوستينو (١٨٧٦ - ١٩٥٦) :

ولد فى القاهرة من أصل ايطالى • كان أبوه يعمل لمصلحة الخديو اسماعيل • عاش فى الاسكندرية واهتم بالشعر • وكان ينتقل بين مصر وأوربا • وكانت أشعاره عن مصر • وفى أواخر حياته استقر فى ايطاليا • وهناك ذاع صيته كشاعر • اهتم به أندريه جيد • من أهم أعماله : « أشعار » ١٩٢٥ ، « الحضور الخفى » باللغة الايطالية ومنشور بالاسكندرية عام ١٨٩٩ ، « اليد » ١٩٠٠ ، باللغة الايطالية •

جوزيوفيشى ، ألبير (١٨٩٢ - ١٩٣٢) :

ولد فى اسطنبول ودرس بها • أبوه من أصل رومانى • جاء الى مصر عام ١٩٠٤ مع أسرته • تعرف على الكاتب ألبير عدس واهتم بالأدب • كتب الرواية • سافر الى مصر ثم قرر الإقامة بها • ترك عند موته الكثير من الروايات غير المنشورة • من أعماله : « بالتعاون مع ألبير عدس » و « القلقون » عام ١٩١٤ ، و « كتاب جحا » ١٩١٩ ، و « سعيد الجميل » ١٩٢٨ •

حنين ، جورج (١٩١٤ - ١٩٧٣) :

(انظر الفصل الثانى) •

فراوى ، جيهان (١٨٦١ - ١٩٤٠) :

اسمها الحقيقى جان بوش داليس ، جاءت مع زوجها سليم فهمى الى الاسكندرية عام ١٨٧٩ ثم عاشا فى طنطا • درست اللغة العربية بناء على نصيحة زوجها • وأرسلت مقالات الى الصحف المحلية والأجنبية • وحقت رواياتها الاجتماعية والتاريخية التى تصف مصر

الحديثة والقديمة نجاحا وشهرة . عادت الى فرنسا عام ١٩١٩ بعد وفاة زوجها . وظلت تهتم بالأدب . وكان أصدقاءها من المصريين هناك . من أعمالها : « الأمير مراد » ١٨٩٨ ، « فى قلب الحريم » ١٩١٠ ، « وردة الفيوم » ١٩١٢ . « الغريب » ١٩٢١ . و « المصرى الخالد » ١٩٢١ ، و « مصير الأنسة عيسى الغريب » ١٩٣٥ .

ديو ، سيريل :

اسم مستعار لشخص يدعى محمد صديق . ابن صديق المفتش وزير مالية الخديو اسماعيل . درس فى سويسرا . عاد الى مصر وصديق العديد من الأدباء الفرنسيين مثل أندريه جيد ، وجان كوكتو ، عاش فى مصر أثناء الحرب العالمية الأولى . واستقر فى الاسكندرية . من أعماله : « البكاشيين » مسرحية عام ١٩٤٤ . « دون جوان أو النرجس » ١٩٤٤ .

راسم ، أحمد (١٨٩٥ - ١٩٥٨) :

(راجع الفصل الثانى) .

سكوفى ، أليك (١٨٨٦ - ١٩٣٢) :

شاعر يونانى يكتب بالفرنسية عاش فى الاسكندرية . وكان يعيش بين مصر وفرنسا . اشترك فى تحرير مجلة « الأسبوع المصرى » من أعماله : « الأشعار الأولى » ١٩٠٩ ، « أغنيات الشعارات » ١٩٠٩ . « الاغراءات » ١٩٢٤ . « الكمان الآلى » ١٩٣٢ . و « سفينة بالهلب » رواية ١٩٣٢ .

شديد ، أندريه (١٩١٨) :

(انظر الفصل الثانى) .

شميل ، ماريوس (١٨٦٣ - ١٩٥٦) :

ولد فى ليفربول بإنجلترا . ودرس فى بيروت . وجاء الى مصر ليعمل فى البنوك والصناعة . ابن أمين شميل الذى كان شاعرا . اهتم مثل أبيه بالشعر . وراح يكتب مقالات فى النقد الفنى فى الصحف المحلية . وفى عام ١٩٢٠ أسس « مجلة العالم المصرى » . وحصل على جائزة واصف غالى . يعتبر واحدا من طليعى الأدب المكتوب بالفرنسية فى مصر . من أعماله : « الطوفان الكبير » مسرحية ترجمت الى العربية عام ١٩١٨ ، و « ضد النسيان » ١٩٢٠ .

عدس ألبير (١٨٩٣ - ١٩٢١) :

ولد فى القاهرة ودرس الحقوق فى باريس • ارتبط عطاؤه بجوييزفيش وفى نهاية الحرب العالمية قرر أن يستقر فى فرنسا • وبعد وفاته عملت زوجته على نشر أغلب أعماله • من أعماله : « ملك عار » عام ١٩٢٢ ، و « عدس عند برجسون » عام ١٩٤٩ •

العقاد ، توفيق (١٨٨٩ - ١٩٥٦) :

ولد فى الاسكندرية ودرس فى المدارس الثانوية الفرنسية ثم فى القدس • تنقل بين الاسكندرية وفرنسا وحصل على الدكتوراه وعمل فى البنوك والصحافة والمسرح • أقام فى لبنان فترة ثم عاد الى الاسكندرية • من أعماله « ليلة فى وادى الملوك » ١٩٢٥ و « ليلة عند سفح الهرم » ١٩٣٧ ، « ليلة تحت قوس النصر » ١٩٣٧ •

غالى ، واصف بطرس (١٩٧٨ - ١٩٥٨) :

ولد فى القاهرة ودرس فى المدارس الفرنسية ثم سافر الى فرنسا • عند عودته اهتم بالسياسة ، من أهم أعماله « حديقة الزهور » عام ١٩١٣ ، « اللآلىء اللامعة » ١٩٢٣ •

فوشيه زنائيرى ، ذيللى (١٨٩٧) :

ولدت فى الاسكندرية من أسرة سورية تقيم فى مصر منذ القرن السابع عشر • درست فى دمشق واقامت فى مصر • اهتمت بالمسرح ودرسته لمدة عامين فى فرنسا • تزوجت من الصحفى جورج فوشيه • وبعد زواجها الثانى افتتحت مكتبة • ثم سافرت الى سويسرا • من أعمالها : دواوين « حديقة الصباح » عام ١٩٢٠ ، « الواحة العاطفية » ١٩٢٩ ، « فى الظهيرة تحت الشمس الحارقة » ١٩٣٦ ، و « الشمس الغائمة » ١٩٧٤ •

قصيرى ، ألبير (١٩١٣) :

(انظر الفصل الثانى) •

القلوب ، قوت (١٨٩٢ - ١٩٦٨) :

(انظر الفصل الثانى) •

موسكاثيلالى ، جان (١٩٠٥ - ١٩٥٦) :

من أصل ايطالى . ولد فى القاهرة ودرس فى المدارس الألمانية
ثم اهتم بالصحافة والحركة الأدبية . عمل فى « الأسبوع المصرى » ، تولى
رئاسة تحرير مجلة « ايماج » كتب الشعر . ظل فى مصر حتى وفاته .
من أعماله : « هذيان » ١٩٢٦ ، « أنا بدونك » ١٩٢٧ ، « أشعار ملقاة فوق
مقعد » ١٩٢٩ ، « أشعار » ١٩٣٥ ، « رباعيات للحب » ١٩٥٢ ،
« زنجية فى معسكر الاعتقال » ١٩٥٣ ، و « أشعار فى مصر » ١٩٥٥ .

منصور ، جويس (١٩٢٨ - ١٩٨٦) :

(انظر ص ١٨٩) .

نية سليمة (١٨٧٨ - ١٩٠٨) :

اسمها الحقيقى أوجينى برن . تزوجت من رشدى باشا وعاشت
فى القاهرة . واختلطت بالمصريين ، من أصل تركى . راسلت أهلها الذين
يعيشون فى فرنسا . اهتمت بالحركة النسائية . وقد تتلمذت هدى
شعراوى على يديها . من أعمالها : « حريم ومسلمون » ١٩٠٨ .

إشارة : تم الرجوع فى هذه المعلومات الى كتاب جان جاك لوتى ، وأضيف اليها
كل ما توصلنا اليه من خلال البحث .

الفصل الثالث

الأدب اللبناني المكتوب باللغة الفرنسية

تختلف ملامح الاحتلال الفرنسي لكل من سوريا ولبنان عن نفس الملامح في المغرب العربي . فلا شك أن تجربة الفرنسية في بلاد المغرب العربي قد تّصلت لدرجة أنه كان على هذه البلاد أن تستهلك عشرات السنوات من أجل أن يتم تعريب أوجه الحياة في شمال المغرب .

ورغم ذلك ، فإن ظهور أدباء يكتبون باللغة الفرنسية قد بدأ في لبنان قبل المغرب بسنوات طويلة . فإذا كان الجيل الأول من الكتاب الجزائريين العرب ، الذين يكتبون بالفرنسية قد ظهر بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، فإن مسرحية « عنتر » التي كتبها شكري غانم عام ١٩١٠ قد سبقت مثيلتها في المغرب العربي وأيضا في مصر . وقد حققت هذه المسرحية نجاحا عند عرضها في فرنسا على مسرح الأوديون في هذه السنوات . وقد تناولت المسرحية صورة من كفاح العرب ضد الاحتلال العثماني . وقد ساعد هذا النجاح الكثير من اللبنانيين الشباب في تلك الآونة أن يمشوا في نفس الطريق مثل ميشلين شيحة وهكتور كلات وشارل فورم .

ورغم ذلك ، فإن التجربة لم تتضح الا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، حيث ظهرت مجموعة من الشعراء الرومانسيين . وظهر روائيون من أمثال فرج الله حايك الذي بدأ ينشر رواياته الرومانسية منذ عام ١٩٤٠ خاصة ثلاثيته المعروفة تحت اسم (أبناء الأرض) أو (أبو نصيف) عام ١٩٤٨ . ثم « ابنة الله » عام ١٩٤٩ . و « سجن الوحدة » عام ١٩٥١ . ويقول كتاب *les litteratures francophones depuis 1945* ان حايك أشبه بالفنان التشكيلي حيث راح يرسم القرى اللبنانية . وسكب مشاعره الفياضة في أدبه ، عن المنوعات . وعاداتها وتقاليدها . وقد ظهر عنف الحرب الأهلية اللبنانية في رواية « يوميات آن » عام ١٩٤٧ من تأليف أورييس شحاده . كما كتبت عنها باللغة الفرنسية أيضا إيفلين

العقاد فى رواية « المستأصلة » حيث نرى كيف تتأثر النسوة بأفكار الآباء
التسلطية ، كما أن الكاتبة أندريه شديد كتبت روايتين عن الحرب الأهلية
اللبنانية « منزل بلا جذور » عام ١٩٨٥ و « الطفل المتنامى » عام ١٩٨٩ .

ومن بين الأدباء اللبنانيين الذين كتبوا بالفرنسية هناك ديوان
« وصف الانسان » لفؤاد جابريل نايف . ثم هناك الشاعرة نادية تويني
صاحبة ديوان « أشعار للتاريخ » عام ١٩٧٢ . ومروان الحص . وفيروز
خوري غاتا . صاحبة ديوان « أراض دامية » عام ١٩٦٨ . ولها أعمال
شعرية أخرى مثل « جنوب الصمت » ١٩٧٥ و « الظلال وصرخاتها »
١٩٨٠ . ثم رواية « ضجة من أجل قمر ميت » عام ١٩٦٣ . أما الشاعر
والناقد صلاح ستيّة فقد قدم : « النحلة الميتة » عام ١٩٧٢ ، و « المياه
الباردة المحفوظة » عام ١٩٧٣ . ثم « أشعار » عام ١٩٧٨ .

ومن بين هذه النماذج الأدبية المتميزة اخترنا نموذجين من جيلين
مختلفين الأول شاعر وكاتب مسرحى هو جورج شحادة والثانى روائى
معاصر لا يزال فى حالة عطاء وقد أبدى تميزا منذ أعماله الأولى وهو
أسين معلوف .

جـورج شحادة : (١٩٥٧ - ١٩٨٩)

يعتبر شحادة أبرز أديب لبنانى يكتب بالفرنسية . وتجيء أهميته
أيضا ليس فقط فى أنه كاتب مسرحى متميز . ولكن لأنه انضم الى
السرياليين المصريين . وشحادة مولود فى عام ١٩٠٧ فى مدينة
الاسكندرية لأبوين لبنانيين يتكلمان اللغة الفرنسية . وقد عادت الأسرة
الى لبنان . وهناك درس الحقوق . ثم عين سكرتيرا عاما فى مدرسة
الآداب العليا فى بيروت . ثم كلف بالاهتمام بالشتون الفنية لدى
البعثة الثقافية الفرنسية فى لبنان .

ورغم أن شحادة قد بدأ يكتب قصائده الأولى فى الثلاثينات .
ورغم فرص الحياة أمامه فى باريس ، الا أنه ظل مقيما فى بيروت طيلة
عمره حتى اندلعت الحرب الأهلية اللبنانية فلم يجد بدا من الانتقال الى
العاصمة الفرنسية هناك حتى وافاه الأجل .

نشر شحاده مجموعته الشعرية الأولى « شرارة » فى عام ١٩٢٨
وقد بدت فيها نبرته السريالية بكل وضوح . كما نشر فى تلك الفترة
روايته الوحيدة « رود وجون سين » . وفى عام ١٩٢٨ استلم رسالة

من الشاعر بول ايلوار الذى كان يسكن مدينة انتيب فى جنوب فرنسا
الذى كتب له رأيه عن ديوانه « شرارة » . فقال : « أشعارك تحمل
لى نظرة عميقة . لحنا متناغما كدت أنساه . كتابك يترك فى اثرا
ايجابيا لا يمكنك تصويره » (١) .

وهكذا صدرت ثلاثية أشعاره التى تحمل عنوان « أشعار ١ » عام
١٩٣٨ . ثم « أشعار ٢ » عام ١٩٤٨ . و « أشعار ٣ » عام ١٩٤٩ .
بعدها انقطع عن كتابة الشعر وتفرغ للمسرح . وكتب مسرحيات طليعية
فى الزمن الذى راح فيه كتاب المسرح الطليعى يقدمون أحسن ما لديهم
أمثال يوجين يونسكو واداموف وبيكيت وأرتو الذين حاولوا تحطيم
اللغة للوصول الى شكل جديد . الا أنه خلافا لمسارهم راح جورج شحادة
يهتم بالمسرح الشعري فقدم أعمالا مثل « مستر بويل » عام ١٩٥١ .
و « سهرة الأمثال » عام ١٩٥٤ . و « قصة فاسكو » . و « زهرات
البنفسج » عام ١٩٦٠ . وفى العالم التالى نشر مسرحية « الرحلة » ثم
جاءت مسرحيته الشهيرة « مهاجر برسيبان » عام ١٩٦٥ . وفى عام
١٩٧٣ نشر ديوانه « الثوب هو الأمير » . وفى تلك الفترة انشغل باعداد
كتابه عن « مختارات البيت الشعري الواحد » وفى عام ١٩٨٥ عاد
مرة أخرى الى الشعر فنشر ديوانه « سباح الحب الواحد » .

تميز جورج شحادة كشاعر باهتمامه بالعبارة والكلمة والمعنى .
وقد كان يمتلك سرد الكلمة ، مثلما كتب الطاهر بن جلون ، فهو يستخرج
كلماته من منبع نقى بعيد . ومن حديقة داخلية . بها المراعى ، وتولد
فيها الصورة مارة بالمياه العذبة قبل أن تصبح ظلا . لقد خلطت
كتاباتة الاولى بين تأمل الحياة اليومية والرؤى الخيالية والسريالية
وعلى سبيل المثال ما جاء فى السطور الاولى من قصيدته تلميذ
السلطان :

« فى الربيع . هنا حذاء أزرق يطير من قرية لأخرى . وتنهق
الحمير فى بيت أختى وتبدو النافورات هادئة . آه يا ملح بلادى » (٢) .

كما أن اهتمامه بالكلمة يتجلى فى احاطته اياها بالتكريم والاحترام
ليس من خلال ثباتها وجمودها بل من خلال اعتبارها وجودا مستقلا

(١) رحيل جورج شحاده . بيار ابي صعب . اليوم السابع ٢٠ يناير ١٩٨٩ .

ص ٤٠ .

(٢) نفس المصدر .

قابلاً بذاته للحياة والوجود بخلاف الأشعار التي كانت سائدة في عصره ،
وبين أبناء جيله الذين أرادوا إرجاع الكلمة الى وجودها الحسى ، وفي
مواجهة رأى شحادة للكلمة وجوداً مستقلاً ، وكأنه من خلالها يعوض عن
كل الخسارات والخيبات ، وبهذا المعنى يمكن ربط اللغة لديه
بالمفنى ٠٠

وقد اعتبر جورج شحاده ان علاقته باللغة تنطوى على نوع من
التحدى ٠ وفي الأخص لأنها لغة غريبة عنه ٠ لقد حاول بسبب عدم
تمكنه من اللغة العربية أن يصل عبر هذا التحدى من اللغة الجديدة
الى نوع من الزمان يعوض له مرة خسارته للغة العربية ومرات أخرى
خسارته لفقده للأرض التي سافر بعيداً عنها أثناء الحرب الأهلية :

أمى كانت تضىء المصابيح لتبعد عنا الظلال

كانت تعد عمرنا على الأصابع عندما تدق دقاتها ساعة الحائط

أمى كانت تتكلم عن الوقت الذى يمر وهى تبتسم

والرجال الذين تبعوها كانوا ملائكة

الآن ٠ وقد مات القمر أين أنت أينها الأفكار الرائعة

الحب ذو الأسنان من الملابس

الطفولة التى كنت تبكين على خدودى

انها ولادة المساء

النضارة الأولى للاعشاش

تحلم الصبية قليلاً

وهى تتلفت حولها

الآن بات الليل يكرر نفسه الى ما لا نهاية

والأشجار تخبىء فى أوراقها

والصمت يصل من بعيد

عين ماء بكت كانت تروى

عندما ستغادر وطن المصاييح

ذات ليلة كطل البرد

رب ملاك

سيأتيك بالمداد

كى تدون ما تراه :

المياه الحية التى تصبح ظلاً

الشجرة التى تضل طريقها ٠

كطفل من ذلك الزمان تضيع صرخته

فى حديقة التفاح الأبيض
حين القمر يغطى كل شىء بحبه
أرى مجددا فى مرآة مهجورة
نكريات بعكازات بيضاء
ولا أعود أعرف من منا هى أو أنا
يرثى لحاله أكثر
لفرط شراسة السنين
أيها القمر الخفيف يا مرآة الغياب
(سباح الحب الواحد - ١٩٨٥) (١) .

وقد لاحظ نقاد شحاده أن له تعبيرات محددة يستعملها فى قصائده
منها « الوردية » و « الياسمين » و « النساء » و « المياه » و « العيون »
و « النظرات » و « القمر » وأيضا « الموت » . فقد كان يؤمن أن الشعر
يومض فى مركز الكون : « أنا مصنوع من أجل المطلق » ، ففى قصيدة من
مجموعة مقاطع نشرها فى « الأشعار » تحت عنوان « وفى الأحلام
يحكى طفل قصة حياته » يقول :

فى كنيسة القرية وعند اقتراب الليل
يخرج المصلون من مخابئهم
ويغير طفل ملاك الجدار
ويكسب البخور غطاءه للظل
والسحرة النائمين
الزنايق الى أقدامهم المعتمة
وبعيدا فى سماء من شموع
تسافر الايقونات
قبل النوم
تتكلم أخوات أمى بصوت خفيض
جاء كل شىء من الظل
الوجوه والأصوات
حتى الساعة فى القفص
التي لم تعد تغنى

(١) هذه القصيدة من ترجمة بيار أبى صعب كما نشرت فى اليوم السابع - ٣٠ يناير

يومض عود ثقاب
كى يمكن أن نرى
خالاتى المنحنيات
فى نقطة من ذهب

فى كل نافذة تبدو السماء والمراعى
فى هذا المنزل المنسى
هناك أيضا الطيور القادمة بالأخبار
وفى الأحلام طفل يحكى قصة حياته
حب
حيث ليالى الشتاء
والمصباح الرقيق فى ثوبه الزجاجى
والساعة التى تدق وترن
وينام الطفل وحده

أما عن مسرح جورج شحاده فقد انزلق الفنان « من الشعر الى المسرح بطبيعة مدهشة ، يبقى شاعرا قبل كل شىء . ويبقى للخضرة نفسها ، والشفافية والنضارة عينهما ، ولتداعى الصور والحالات ، الدور الأساسى فى بناء مسرحياته . ولعل ما يميزه أساسا عن كتاب المسرح الطليعى الآخرين الذين غالبا ما يرد اسمه الى جانبهم (وهم مثله كتاب فرانكفون من أصل غير فرنسى) أعنى يونسكو وبيكيت خاصة وربما أحيانا أدموف وأرابال . فإذا كان شحاده أبحر مثل هؤلاء فى الاتجاه المعاكس للمسرح الذهنى والفلسفى وارثه الثقيل ، فقد وصل الى جزيرة له وحده . دون الآخرين . تمثل فيها الحساسية الشعرية ، على مستوى اللغة طبعا . انما أيضا على مستوى المناخات والأجواء . الأهمية الأولى . ذات يوم انتفض شحاده على أثر سؤال أحد الصحفيين له : « مسرح شعري هذا الذى تكتب ؟ » بل مسرح يفسح لفوضى الكلمات والصور . بدأت كل مسرحياتي . ودون نموذج مسبق ، تاركا المبادرة للغة لقد ساعدنى المسرح على الخروج من القصيدة . لكن فى العمق انها المسألة نفسها » (١) .

وحسبما جاء فى جريدة لوموند (٢) فان المسرحيات السبع التى كتبها شحاده قد أهملت عن غير عمد . كان عليه أن ينتظر اثنى عشر عاما كى تمثل مسرحية « مستر بويل » على مسرح الهوشيت ببافيس : فى

(١) رحيل جورج شحاده . بيار أبى صعب . ٣٠ يناير ١٩٨٩ ، ص ٤١ .
Le Monde 8-3-1985, p. 15.

(٢)

عام ١٩٥١ اقترح عليه الممثل والمخرج جان لوى باروو أن كانت لديه الشجاعة أن يقدم مسرحه . . وقد عرضت مسرحياته من وقت لآخر .

وفى نفس الجريدة يقول شحادة : عندما أسمع عبارة « مسرح شعري » أرغب فى الهرب . لا . فالمسرح يترك لكاتبه أن يرتب الكلمات والصور . انظر الى ماتيو . انه يرسم أمام عيني . وأحيانا أخشى لو أصبحت فنانا تشكليا . ولكن خلف اللوحة هناك نقاط من الألوان . هناك نظام وتقارب .

« أبدأ مسرحياتى دائما دون أن يكون هناك هيكل خاص . وأترك المبادرة للغة . لقد ساعدنى المسرح على الخروج من الشعر . ولكن فى الأعماق فالشعر قد فعل نفس الشيء . اننى أسمع نقاط الماء تتساقط محدثة : توك . توك . توك . راسين يثيرنى الملل . وأفضل كورنى . انه يأتى بكلمات غامضة وساحرة » .

يهمنا الإشارة أن جورج شحادة لم يكن يفكر قط فى مغادرة لبنان الا بعد اندلاع الحرب الأهلية . ويقول فى جريدة لوموند - ٢٠ يناير ١٩٨٩ - انه فوجئ يوما بأحد رجال الميليشيا يشهر بندقيته أمامه وراح يسأله لماذا يطلق عليه الناس اسم «العصفور» . وقد كان شحادة معروفا بهذا الاسم نتيجة لرقعة جسمه والذى كان نحىلا كالعصفور . يومها ضحك شحادة بمرارة وقرر أن يغادر البلاد . وقد نجح الصحفى اللبنانى « ميرزا عكار » فى أن يجعله يكتب عن تجربته فى الإقامة بباريس التى مات فيها فى السابع عشر من يناير ١٩٨٩ ، فقال : « أحس كأننى فى بيتى وأنا فى باريس . ولكن أوضاع الوطن تجعلنى أحس أننى فى منفى : كم أشتاق الى الجبال اللبنانية ! » .

الجدير بالذكر أن جورج شحادة كان أول من حصل على جائزة الأدب الفرانكفونى فى عام ١٩٨٦ . وهى جائزة مستحدثة تبلغ قيمتها ٤٠٠ ألف فرنك فرنسى وتمنحها الأكاديمية الفرنسية كل عام . وقد حصل عليها أيضا الروائى المصرى البير قصيرى .

أمين معلوف (١٩٤٩) :

أغلب الروائيين العرب الذين يكتبون باللغة الفرنسية مهمومون بواقعهم الذى عاشوا فيه . وكيف تحرك هذا الواقع بين أيديهم ولم يستطعوا الامساك به . فحاولوا التعبير عنه ورصدته فى أدبهم . حدث هذا بشكل واضح عند أدباء المغرب العربى . وفى مصر عند البير قصيرى وأندريه شديد . أما الكاتب اللبنانى أمين معلوف فقد ترك هذا

الواقع بصراعاته الدامية . وانتقل الى التاريخ العربى القديم يصور عالما ورديا حالما فى روايات من طراز « ليون الأفريقى » و « سمرقند » . بل راح الى ما هو أبعد من ذلك فى روايته الثالثة « حدائق النور » . وعليه فان معلوف مذاقا مختلفا . فهو من الكتاب الذين اهتموا بكتابة الرواية التى تتحدث عن التراث العربى . كما أنه استمد أحداث هذه الروايات من تراث تاريخى . فأبطال رواياته مثل حسن الوزان ، وعمر الخيام والقديس مانى عاشوا بالفعل فى التاريخ .

اذن ، جاءت أهمية معلوف فى أنه شغف بالتاريخ العربى القديم . وتوغل فيه ، وقرأ الكثير منه ، حيث راح يفتش فى حناياه ، ويجلو صدى النسيان عن شخصيات وأحداث كاد التاريخ أن يمحوها . ثم هو ينسخ حول هذه الشخصيات والأحداث روايات متخيلة . وإذا كان كتاب معلوف الأول الذى نشره عام ١٩٨٣ « الحروب الصليبية كما رآها العرب » . عبارة عن دراسة تحليلية موثقة لموضوع مهم فى تاريخ العرب ، فان الكاتب قد راح يصوغ هذا التاريخ فى اطار روائى جذاب من خلال رواياته المنشورة .

وأمين معلوف من مواليد بيروت فى عام ١٩٤٩ من عائلة ذات أصل يونانى . وهو ابن لصحفى كبير . لذا وجد نفسه قريبا من والده وهو طفل . وعمل فى الصحافة على مدى اثنى عشر عاما . حيث تولى ادارة جريدة « النهار » . لغته الأولى هى العربية ثم الانجليزية التى أتقنها وهو فى الثامنة . ثم سافر الى فرنسا ليعمل رئيسا لتحرير مجلة « جون أفريك » . اذن فهو يجيد الكتابة باللغة العربية . ولكنه عندما اختار أن يكتب ابداعا وجد أن اللغة الفرنسية هى الأفضل لعدة أسباب « تضافرت عوامل عديدة لتدفعنى الى اختيار اللغة الفرنسية : فأنا أقيم فى فرنسا منذ سنوات عديدة . ومن الطبيعى أن أتوجه الى المجتمع الذى أعيش وسطه ، كما أن حركة الكتاب فى العالم العربى معاقة بعوامل متعددة : توزيعية . وسياسية . واقتصادية ، مما يجعل من المتعذر على الكاتب أن يحيا من أعماله . فأنا أعيش هنا من حقوقى كمؤلف واستطيع الانصراف الى الكتابة دون أن يعوقنى عائق ، ولا مشكلة لدى مع اللغة العربية . فأنا أكتب بها وأحبها . وأتمنى حقا أن يتمكن الكاتب أن يعمل فيها بجدية وأن يتمتع بوضعية كاتب فعلى » .

هناك عامل آخر أكثر التصاقا بالكتابة ، فقد رأيت أنه من الأفضل لى ، كعربى ، أن أعبر عن موضوعاتى بلغة أجنبية ، فأنا أفرض على الفرنسية بعض الكلمات والمعانى العربية . وهذا ما يمنحها « نكهة »

أخرى إذا صح التعبير لو كتب بالعربية - لبدا ذلك سطحيا الى حد ما .
أخيرا أعتقد أن على الكاتب أن يكتب باللغة التي يرى أنها تعبر عن
أفكاره ، سواء كانت العربية أو الفرنسية أو البرتغالية أو الروسية .
هناك اعتبار قومي أو وطني للغة تتحول فيه اللغة الى رمز وشعار .
وأنا لا يهمنى هذا الاعتبار . ليست اللغة فى النهاية أكثر من حامل
للأفكار ووسيلة تعبيرية » (١) .

فى كتابه الأول - وهو غير روائى - المعنون « الحروب الصليبية
كما رآها العرب » يحاول أمين معلوف أن يقدم وجهة نظر الى الغرب
أهملت الآن . . ليست هذه المحاولة الأولى من نوعها . وينقسم الكتاب
الى قسمين يعرض الأول واقع الوطن العربى فى زمن الحروب الصليبية ،
حيث احتدمت الخلافات حول الخلافة والسلطة . ثم هناك قسم يعرض
أشهر بانوراما لزحف الصليبيين وانتصارهم برغم العقبات الى أن
استطاعوا أن يؤسسوا مملكة القدس والامارات . ورغم أن الكتاب اقرب
الى البحث الا أن معلوف قد صاغه بشكل أقرب الى السرد . ويقول
ميخائيل خورى أن « أول ما يلفت النظر فى هذا العرض الروائى الذى
لا يخلو من التشويق ، أن القارئ لابد أن يتأثر بما ارتكبه الصليبيون
من أعمال وحشية وجرائم فى انطاكية والقدس ، وفى أماكن أخرى
استطاعوا الدخول اليها . كذلك يتأثر القارئ ، بما هنالك من انقسام
وتفتت فى الوطن العربى والاسلامى . ليعجب بعد ذلك بعرض عملية جمع
الجهود بين الموصل ودمشق . للتصدى لهذه الغزوات . ثم الجمع بين
جهود دمشق والقاهرة بقيادة صلاح الدين لتوجيه الضربة القاضية الى
الصليبيين . بحيث عادت بهذه الفتوح جميع بلاد الساحل برمتها الى
المسلمين » (٢) .

أما القسم الثانى من الكتاب فهو يتناول تأثير الحروب الصليبية
على الشرق والوطن العربى ، وكذلك أثرها على الغربيين أنفسهم ولو
بشكل هامشى ، وقد بين معلوف أن هذه الحرب كانت ذات تأثير ايجابى
على الغرب ، أما تأثيرها على الشرق فكانت بالسلبية . ويطرح معلوف
سؤالا هو : هل تبرر هذه الأحداث اللاحقة الدعوة الى اعتبار الماضى
فى خبر كان ؟ وهل يحقق ذلك أية غاية ايجابية للعرب ؟ أم أن الدعوة
يجب أن تكون الى حسن الافادة واعتماد المواجهة بشكل مواز نحو
الخطر ؟

(١) مجلة اليوم السابع - ٣ نوفمبر ١٩٨٦ ، ص ٣٧ .

(٢) الحروب الصليبية كما رآها العرب . ميخائيل الخورى . مجلة الشاهد ،

أكتوبر ١٩٩٠ - ص ١٠٠ .

رأى أمين معلوف أن العرب قد ابتلوا بعاثتين ، قياسا الى ما حققه الغربيون . فقد عجز مسئولو القيادة العربية عن بناء مؤسسات ثابتة ، فى حين نجح الغربيون منذ وصولهم الى الشرق فى خلق وتكوين دول حقيقية . يتم فيها انتقال السلطة بشكل عام ، دون حدوث أى صدامات . أما كل انتقال فى الحكم لدى العرب فكان يشكل تهديدا بقيام حرب أهلية .

أما النقطة الثانية فهى أن الغربيين قد أقبلوا على المدرسة العربية فى جميع الميادين سواء فى بلاد الشام أو فى أسبانيا أو فى صقلية . . . وكان من غير الممكن الاستغناء عما تعلموه منها لتوسيعهم وانتشارهم فيما بعد . فترات الحضارة الاغريقية ما كان لينتقل الى أوربا الغربية الا عن طريق العرب مترجمين ومكملين . بيد أنه لابد من لفت نظر الكاتب الى أن هذا الانتقال كان قد بدأ قبل بدء الحروب الصليبية بقرن على الأقل ، (١) .

فى روايته الأولى « ليون الأفريقى » تناول الكاتب سيرة احدى الشخصيات العربية التى عاشت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين . أو بالضبط بين عامى ١٤٨٣ و ١٥٥٤ . وهو ، كما يرى المؤلف ، الشخصية العربية الوحيدة التى شاركت مشاركة فعالة فى عصر النهضة الأوربية . كما كان أول من وضع كتابا ذا أهمية عن إفريقيا . وليون الأفريقى هو الرحالة ، والعالم العربى حسن الوزان . وتدور أحداث الرواية على لسانه فيقول : « أنا حسن بن الوزان . جان ليون دى مدسيس . ختنت على يد الحلاق . وعمدت على يد « بابا » يسموننى اليوم بالأفريقى . الا أئننى لست من أفريقيا . ولا من أوربا . ولا من « حاضرة » العرب . يسموننى كذلك بالغرناطى ، والفارسى ، والزياتى . ولكنى لم آت من أى بلاد . ولا من أية مدينة . او قبيلة . أنا ابن الطريق ، وطنى قافلة . وحياتى مسيرة بعيدة عن الواقع بعدا تاما » . ولا شك أن هناك تقاربا من ناحية علاقة الوزان بالأشياء مع الكاتب أو فلنقل أغلب الأدباء العرب الذين يبدعون بالفرنسية . فحسن حائر بين الأماكن والهويات وهو رجل يحب الانتقال والترحال يبحث لنفسه عن أرض يستقر عليها . انه رجل له نفس أهمية ابن بطوطة فى التاريخ العربى . عشق الأماكن وعرف البشر ، وتذوق أطعمة عديدة فى بيوت تمت استضافته فيها وكانت مصر احدى المحطات التى نزل فيها . فخصص لزيارته لها فصلا من يومياته التى دونت على يد أمين معلوف : « عندما وصلت الى القاهرة ، يا بنى ، كانت هذه المدينة قد أضحت ومنذ عهد طويلة ، حاضرة امبراطورية زاهرة . وقصراً

(١) المرجع السابق .

للخليفة • أما حين تركتها فقد باتت مجرد عاصمة لاقليم • ولا ريب أنه لن يقيض لها أبدا أن تستعيد مجدها التليد » •

« لقد شاء الله ، عز وجل ، أن أكون شاهدا على ذلك السقوط ، وأن أرى المآسى التى عرفتھا • فقد كنت لا أزال أمخر عياب النيل • الحلم بالمغامرات • وبالثروات الجزلة حين حل النذير بالبلاد • غير أنى لم أكن قد تعلمت بعد كيف أحترم القول • وكيف أفسد المراسيل » (١) •

وقد اعترف معلوف فى حديثه الى مجلة اليوم السابع - ٣ نوفمبر ١٩٨٦ - أنه قد اكتشف شخصية حسن الوزان قبل فترة قريبة • حين كان يقرأ حول الرحالة العربى ابن بطوطة • فراح يبحث عن مصادر لمعرفة الرجل • واكتشف أنه عاش حياة شائقة ومثيرة • و« بدلا من الاكتفاء بالوقائع التاريخية » المحققة • كان يجدر بى أن أحاول إعادة تصور الفترة • نعم • ان ما وصلنا من أخبار حسن الوزان لهو ضئيل جدا ومتناثر فى مقدمة هذا الكتاب أو ذاك • وفى المناسبات القليلة التى يلمح فيها هو نفسه الى سيرته ، ولادته ، وأشعاره فى عمله • هذا هو ما دفعنى الى الحسم لصالح الرواية بالاضافة الى رغبتى الشخصية لمحاولة الكتابة الروائية • لا يمكن بالطبع اعتبار الكتاب رواية محضا • ومع ذلك فجانب التخيل فيها كبير جدا •

ومن المعروف أن هذه الرواية قد تركت صدى على الصعيدين الفرنسى والعربى • ففى فرنسا ، وفى عام نشرها ، ظلت على قائمة مبيعات الروايات لعدة أسابيع طويلة • واستطاعت بذلك أن تتفوق على روايات كتبها أدباء لهم أسماؤهم الرنانة سواء من فرنسا ، أو من الرواية المترجمة مثل رواية « الامبراطورة » لبول أوسوليترز المعروف أن رواياته تباع أرقاما خيالية ، ثم جان دارسو عضو الأكاديمية الفرنسية • والطبعة الحديثة من « جان لافلوريت » لمارسيل بانيول وطبعة حديثة أخرى من رواية « خارج أفريقيا » للكاتبة الدنماركية كارين بلكسن ، علما بأن فيلمين كبيرين كانا يعرضان مأخوذين عن الروائيتين الأخيرتين فى نفس الفترة فى أوروبا •

وقد اهتم النقاد العرب بمتابعة هذه الرواية ، سواء قبل ترجمتها الى اللغة العربية ، عام ١٩٩٠ أو بعد ذلك • فقد نشرت مجلة الهلال مقالين الأول كتبه سيزا قاسم قالت فيه انه « من الواضح أن اختيار مثل هذه الحقبة التى تضع حضارتين وجها لوجه بكل دوافعها وقيمها ،

وعلى مختلف المستويات كان أحد أسباب نجاح الرواية . وقد أتاحَت الرواية للكاتب حرية أن يجمع التاريخ والتخييل . فالأسد الأفريقى شخصية من تلك الشخصيات « الجسور » ، التى تربط بين الحضارات . وكيف يمكن الربط بين الساحات الجغرافية والحضارية المختلفة الا من خلال شخصية ترحل - وتقيم - وتنتقل من مكان الى آخر حاملة معها اللقاح مثل الطيور المهاجرة ؟ هذا منا فطن اليه أمين معلوف ووظفه فى روايته التى قسمها الى كتب مستقلة حمل كل منها اسم مدينة : كتاب غرناطة - كتاب فاس - كتاب القاهرة - كتاب روما . .

« المكان بطبيعته ساكن لا يتحرك الا من خلال انتقال البشر ، ولا يتغير الا بفعل الزمن ، والزمن فى هذه الرواية زمن تاريخى وليس زمنا « طبيعيا » اذ أن التغير الذى اجتاحت المكان كان تغيرا جذريا حول وجه المنطقة والتاريخ : سقوط الأندلس . ونشوء دولة الملوك الكاثوليك بصعود فردينان وايزابيلا ، انشقاق الكنيسة البروتستنتية وصعود نجم شارل الخامس كارلوس كينتوس . تفتت المغرب العربى وقيام العثمانيين » (١) .

أما أمين العيوطى فقد كتب فى عدد آخر من نفس المجلة ، مستندا الى الطبعة العربية من الرواية أن : « الخلفية الجغرافية والتاريخية لا تدخل بنية الرواية كمجرد خلفية للزينة . بل ترتبط ارتباطا وثيقا بتجربة الشتات والتمزق والغربة التى يعيشها حسن بن محمد الوزان والتى يعيشها كثير من العرب اليوم فى شتاتهم المعاصر .

« ومع هذا النسيج الثرى يجدل معلوف خيوط المعاصرة . فوسط هذه الفوضى الشاملة لابد أن يرفع قطاع الطرق والمتآمرون والمغامرون . هناك الزروالى اللص . قاطع الطريق . القتاتل الذى اكتنز ثروة خلال ربع قرن من السلب والنهب . والذى يتآمر مع شيخ المجذوبين ليلقى بأخت حسن فى حى المجذوبين حين ترفض الأسرة زواجه منها » (٢) .

ويقول العيوطى ان واقعية الشخصية قد ارتبطت بواقعية الأسلوب فالوزان نفسه ، يعكس ظروف عصره وأحواله والقيم التى كان ذلك العصر يعيش بها . فالرواية فى نهاية الأمر تهدف الى تصوير موضوعى لعالم محدد .

ومن أعماق التاريخ العربى والاسلامى اختار أمين معلوف شخصية عمر الخيام (١٠٤٨ - ١١٣١ م) ليكتب عنه رواية لا تقل جاذبية وأهمية

(١) ليون الأفريقى ، د . سيزا قاسم . مجلة الهلال ، سنة ١٩٩٠ ، ص ١٨٠ .

(٢) أمين معلوف ، د . أمين العيوطى - الهلال - القاهرة ، سبتمبر ١٩٩١ .

عن الرواية الأولى ، ان لم تكن قد زادت ، وهى رواية « سمرقند » .
ومن المعروف أن الخيام شخصية ذات جاذبية خاصة تثير شهية المبدعين
للكتابة عنها . فقد عاش حياة خاصة مثيرة . وكتب شعرا بليغا يعكس
فلسفة الشاعر فيما يتعلق بعلاقته بالوجود والكون . وقد جاءت
معلوف فكرة الكتابة عن عمر الخيام وهو يقرأ رواية « مذكرات أدريان »
للكاتبة البلجيكية مرجريت يورسنار (١٩٠٣ - ١٩٨٧) . وخاصة
العبارة التى تقول فيها الكاتبة : « هناك فقط وجه تاريخى واحد
يغرينى بنفس الالحاح الذى يغرينى به وجه أدريان . انه عمر الخيام .
الشاعر والفلكي » .

اذن ، ففى حياة عمر الخيام ما يصنع رواية مثيرة يمكنها ، من
خلال كاتب مثل أمين معلوف ، أن تحقق كل هذا النجاح الذى حققته
رواية « سمرقند » ، فقد كان الخيام رجلا شغوفا بالرحيل عبر الأماكن
والأزمنة مثلما فعل حسن الوزان . فارتحل الى بلاد الشرق المجاورة
لفارس . من سمرقند الى أصفهان واسطنبول وتبعاً لطبيعة الرحيل .
فقد عرف الخيام أثناء رحلاته السرمدية الكثير من الشخصيات المهمة .
وأيضا من بسطاء الناس . فاقترب منهم . ورغم كل هذه الشخصيات
العديدة . فان أقرب الناس اليه كان هو حسن الصباح . الرجل الذى
وقف ضد السلطة ومعها : « جعلت القسم الأول من الرواية يتمحور
حول ثلاث شخصيات مثلت وجوها مختلفة فى ذلك التاريخ : نظام
الملك ، رجل دولة من طراز رفيع ، ومفكر سياسى . انه رجل حكم
امبراطورية . ودون نظراته فى الحكم . كان مصلحا . وفى بعض الأحيان
ذا جبروت . وقد صنعت هذه الأشياء من حسن الصباح أثرا من خلال
مفهوم دينى » (١)

لقد كان حسن قائدا أسس أهم منظمة عسكرية عرفها التاريخ
الاسلامى كما يرى ابن معلوف .

لقد دار صراع بين نظام الملك وبين حسن الصباح . صراع أدى
عمليا ، الى تدمير الامبراطورية السلجوقية . امبراطورية ملك شاه ،
التي كانت تمتد عبر آلاف الأميال . من الصين شرقا وحتى حدود البحر
المتوسط غربا .

وتدور أحداث الرواية ، بقسميها ، على لسان شخص أمريكى من
أصل عربى اختار لنفسه أسماء عديدة لكنه يفضل أن يناديه الآخرون

(٢) الشاعر والحاكم . حوار ابراهيم العريس . اليوم السابع . ٤ ابريل ١٩٨٨

بـ « عمر » أى بنفس اسم الخيام . وهو يندمج داخل الشاعر من خلال عبوره الأثيرى نحو التاريخ . فيتحدث فى القسم الأول عن الخيام وعن أسرارهِ وصداقاتهِ . أما فى القسم الثانى فيتكلم عن علاقته بالمخطوط الذى به أدق أسرار الخيام .

وتتنمى شخصية الرواية الى القرن التاسع عشر . وان كان قد عاش بضع سنوات من القرن العشرين . ويقول انه سافر الى باريس كى يتعرف على الشيخ جمال الدين الأفغانى وهو فى المنفى . وانه حدثه عن رغبته فى البحث عن مخطوط مهم يتعلق بـ « عمر الخيام » . لذا ، فقد سافر الى بلاد فارس . واشترك هناك فى الأحداث السياسية التى شهدتها فارس فى تلك الآونة . وهى أحداث أشبه بما يحدث الآن فى ايران ، ووسط مواقف ساخنة يتعرف على أميرة فارسية حسناء تخبره أن لديها نسخة نادرة من مخطوط حول الشاعر عمر الخيام ، ويحس الاثنان أن مصيرهما قد ارتبط بصاحب الرباعيات . فيتزوجان . ويسافران معا الى أوروبا فوق إحدى السفن الضخمة . حدث ذلك فى عام ١٩١٢ . وفى إحدى الليالى المظلمة تحدث الاميرة شيرين زوجها عن مخاوفها الكامنة . فيحاول أن يسرى عنها . ويقرأ عليها بعضا من رباعيات الخيام . ولكن البحر بدا غاضبا فاشتد ساعده على السفينة المعروفة فى التاريخ باسم « تيتانيك » وتنقلب السفينة وتغوص فى أعماق البحر حاملة معها الكثير من الأسرار ومخطوط عمر الخيام وحياته وتموت الزوجة فى هذا الحادث . ولكن الله ينقذ عمر الذى يحاول أن يحكى كل ما دار فى سمرقند أيام عمر الخيام .

ويقول معلوف فى تعليق له حول مزج الحاضر بالماضى فى هذه الرواية: « لم أحاول عمدا أن أقحم الحاضر فى أحداث الماضى . طبعاً لم يرغب عن بالى أن هناك تشابها وتلاقيا بين الماضى والحاضر . لكننى بروائيتى لأحداث الماضى حاولت أن أفهم تلك الأحداث من الداخل وأفهم شخصياتها . أيضا من الداخل . قد يجد البعض ، وقد أجد أنا شيها متعدد الجوانب ، بين ضحية نظام الملك ، وشاه ايران الراحل . لكن الشبه محدود بين حسن الصباح ، الثائر الاسماعيلى ، وبين الذين يقودون « حركات ذات قناع دينى » . . يكفى أن حسن الصباح ثار . أولا ، على معتقدات جاهلة أى معتقدات الشيعة الاثنى عشرية . وبالتالي لا يمكن أن تكون هناك مقارنة كلية بينه وبين شخصيات عاشت فى بلاد فارس . المرحلة التى باتت فيها الشيعة الاثنى عشرية المذهب المهيمن . هناك شبه ، لكنه محدود للغاية . لكنى لن أفاجا ازاء مقارنات سيوردها البعض . بيد أن الحقيقة هى أكثر تعقيدا بكثير مما تبدو للوهلة الأولى .

حتى لو كان بإمكان المرء أن يستفيد من دروس الماضي لأبد له من رؤية الماضي كما كان ، ومن تفادى ادخاله طرفا في صراعات الحاضر » (١) .

إذا كان التاريخ الاسلامى قد بهر معلوف بصفة خاصة . فهو ، كما يبدو من اهتماماته ، مبهور بتاريخ الشرق الأوسط والمنطقة بصفة عامة .

ولعل معلوف لم يود أن يأسر نفسه فى مرحلة بعينها . وقد بدا ذلك واضحا فى رواياته التالية . ففي روايته « حدائق النور » يتحدث عن نبي ، غير سماوى ، يدعى مانى عاش فى القرن الثالث الميلادى . وقد أقض هذا الرجل مضاجع رجال الكنيسة فى عصره بأفكاره الجريئة . فقد قامت دعوته على أساس « دين الجمال » . وهذا الرجل أيضا مدفون فى التاريخ ، وكان على المؤلف أن يخرج من مقبرته كى يعيد اليه الحياة فى روايته . ويطلق عليه أحيانا اسم « المسكين مانى » ، انه رجل قادم من بلاد بابل كى يصرخ صرخة تنطلق الى كل أرجاء المعمورة . وقد انطلق صدهاء فى حياته من الصين وحتى الجزائر وظل معروفا لأكثر من ألف عام ، ثم بدأت أستار النسيان تسدل عليه . وتقول مجلة لوبوان (٢) ان مانى قد خرج من جعبة عمر الخيام رغم الفارق الزمنى بين الاثنين . فقد تولد مانى من الظل . وبدا كأنه جاء من عالم الاسلام وكأنه يرد على الأسئلة الأكثر عمقا التى يرددها البشر . لقد عاش مانى عمرا قصيرا . فمات وهو فى السابعة والعشرين من العمر . وكان ضحية لصراعات دينية اندلعت بين رجال الدين المسيحي . ولا شك أن مثل هذا الموت فى تلك السن المبكرة بذلك الأسلوب قد يثير أسئلة حول أساليب الناس فى ممارسة دياناتهم فى منطقة الشرق الأوسط . . لقد أراد مانى أن يوحد كل هذه الأدبأن وأن يصبح البشر تحت لواء دينى واحد . من بوذيين وكونفوشييين ويهود ومسيحيين . عماد هذا الدين هو البساطة . لقد رأى مانى ان الانسان هو صورة العالم مطبوعة . وهو يمشى فى درب النور والظلام . وعليه أن يختار . ولا شك أن مصيره مرتبط بسلوكه . فهو اما الى طريق النور او الى طريق الظلام .

ويرى مانى أن الوجود الانسانى قد أصبح مميزا بمواجهة مع القوى الكونية . ولذا فان على الانسان أن يتحلى بالحب ويمارس الصلاة .

(١) المصدر السابق .

(٢) Maalouf et son prophète, Le Point 18-3-1991, p. 48.

(٢)

ويُتتبع معلوف سيرة الحياة القصيرة التي عاشها مانى منذ ولادته ولقاءه الأول مع المجموعة الدينية المعمدانية • ثم رسالته الكونية • وقد عاش مانى طفولته وصباه فى واحة مليئة بالنخيل • وكان يسمع هاتفا ان عليه أن يرحل فى المستقبل • وفى سن الرابعة والعشرين أصبح له تلاميذ من بينهم والد مانى الذى أرسله هذا الأخير فى مهمة الى أحد البلاد • وقد توجه مانى نفسه الى الهند • ولم يتوقف عن بث دعواه • وكان ينادى تلاميذه أن يذهبوا الى الميدان • وقد التقى فى رحلاته بالكثير من البشر والناس •

وكما هو ملاحظ ، فان مانى صورة مشابهة لحسن الوزان وعمير الخيام • فهو وان لم يرحل من أجل الرحيل مثلما فعل الوزان • الا أنه عاش تجربة الرحلة • والالتقاء بالناس • وقد كان الامبراطور فاليرين معجبا به كثيرا لكن بعد أن مات طرده ابن الامبراطور بهرام من البلاط • ثم تم القبض عليه وظل فى السجن ستة وعشرين يوما ولم تتحمل روحه التى اعتادت الانطلاق السجن ، فأسلم روحه صباح اليوم الثانى من مارس عام ٢٧٤ م •

وقد أجرت مجلة « لوبوان » حديثا مع الكاتب بمناسبة صدور روايته قال فيه : ان مانى كان يرى ان أصل العالم ينقسم الى قسمين منفصلين • عالم النور وعالم الظلام • وذات يوم حدث صدام هائل بين هذين العالمين فاختلف النور بالظلام بألف طريقة مختلفة • وهكذا تولدت الكائنات من انسان وحيوان وطبيعة • وأجسام غير مرئية • لقد تولد هذا العالم كله ممزوجا من النور والظلمة معا • وكان يطالب أن يعمل كل منا على سيادة النور على الظلام • وقد راح رجال الدين يتعاملون مع مانى على أنه هرطقى •

ويقول معلوف (١) : ان مانى قد مس منطقة المحرمات الدينية والسلطات • كما أن افكاره تقوم على مبدأ الصفوة • فالصفوة تشغل مكانة مهمة فى المجتمع • وتأثيرها المعنوى يؤخذ دائما بعين الاعتبار • لذا أخذ الصراع بين مانى ورجال السلطة شكلا حادا • وفى ذلك العصر كان يحكم العالم أربع امبراطوريات : امبراطورية اكسوم (الحبشة) والصين ، وروما ، وفارس • التى كانت قريبة من المنطقة العربية • وفى فارس كان شهبور هو أقوى الحكام فى تلك الحقبة • وهو رجل مصاب بهوس لدرجة أنه يمكنه أن ينافس نفسه • وكان يرى أن الامبراطورية الرومانية تشكل عليه خطورة ملحوظة • وفى عهد شهبور

(١) المصدر السابق •

ظهر رجلان كبيران تعارضا فيما بينهما • انهما الساحر الأكبر كردير ومانى • وكان الساحر هذا يسعى لبناء كنيسة حقيقية • ذات طابع رسمى • أما مانى فقد كان ينادى بأن تتوحد الأديان الثلاثة الكبرى فى تلك الآونة • فقد كانت البوذية سائدة فى الهند وشرق آسيا • ثم المسيحية واليهودية • وقد كاد شهبور أن يمثل لمانى • الا أن « كردير » وقف له بالمرصاد • واضطر مانى أن يخضع للضغوط التى يواجهها •

وفى نفس الحديث عقد معلوف مقارنة بين القرن الثالث والقرن العشرين فقال ان القرن الثالث عرف صراعات الامبراطوريات • وصراعات اقتصادية وسياسية ومشاكل روحية • ودينية • وبعد اعدام مانى بعشرة أعوام أصبحت المسيحية هى الديانة الرسمية فى روما • وأحس الناس أن حياتهم لم تعد كافية بالقدر المطلوب • فراحوا يبحثون عن شىء آخر •

فى عام ١٩٩٢ نشر الكاتب رواية تحت عنوان « القرن الأول بعد بياتريس » وهى تنتمى الى الخيال العلمى • وكأنه قد نفّض يديه ، ولو مؤقتا ، من التاريخ كى يتجه نحو المستقبل • فيحكى لنا قصة غريبة ، تبدو واقعية وكأنها تمس كلا منا ، وتقوم الفكرة على انه طالما أن العلم قد استطاع معرفة نوع الجنين قبل ميلاده • فهل يمكن ذات يوم معرفة عادات وسمات ومستقبل هذا الطفل ؟ • وهل يمكن أن نتحكم فى الأجنة القادمة حتى يصبح العالم كله بلا نساء • ويمتلئ فقط بالرجال ؟ : « منذ عشر سنوات انتابتنى فكرة عن عالم بلا نساء • فلاشك ان علم الوراثة سيتقدم بشكل خيالى • كما أن الروحانية ستتخلف فى كل أنحاء العالم » •

وفى الرواية يصبح من المفضل أن يولد الغلمان عن البنات • فى البداية لا احد يصدق الأمر حتى الراوية نفسه المشغول بالسعادة التى حلت عليه • انه يحب صحفية تدعى كلارنس وهبته بنتا • فيمارس عليها كل مشاعر الأبوة التى كان ينشدها • ولدت بياتريس فى الليلة الأخيرة من أغسطس • قبل موعدها بقليل مثلما كانت تفعل وهى تذهب الى المدرسة • وبعد ميلاد بياتريس تقوم مشاكل سكانية • وتطرح أسئلة حول علاقة مولد كلارنس بما حدث • يظهر شعب جديد لديه الخيار للانتحار • لقد أصبحت النساء عملة نادرة • لذا يتم اخفاؤهن عن الأعين ويتم بيعهن بأعلى الأثمان • وفى بلاد الجنوب تتفجر ثورة من أجل اضطراب الأحوال السكانية • وتندلع الصراعات وينقسم العالم • ويسود الحزن • ويمر قرن • انه القرن الأول على ميلاد بياتريس انه

قرن مظلم • ويشعر الراوية أن عليه أن ينسحب مع أسرته الى مخبأ من الرخام كي يجد فيه الأمان •

ويقول معلوف : « لا شك أنني بالغ الحساسية • كرجل شرقي لهذه اللعنة القديمة التي تثقل على النساء • فى بلادنا ، مثلما فى الكثير من بلاد العالم الثالث ، فان مولد فتاة يستدعى الحداد فى باكستان • وفى الصين يقومون بقتلها » (١) •

كلمات قليلة تعتمد الكاتب اللبناني أمين معلوف أن يضعها فى صفحة منفردة فى نهاية روايته « صخرة طانيوس » التي فازت بجائزة جونغكور فى الأدب لعام ١٩٩٣ • وهى أن وقائع هذا الكتاب مأخوذة تقريبا بالكامل من حادثة حقيقية • حين قتل البطريك فى القرن التاسع عشر على يدى أبوكشيش معلوف الذى هرب الى قبرص مع ابنه • أما بقية الشخصيات فمن وحي الخيال •

ومثل هذه العبارة تعتبر مدخلا أساسيا الى عالم أمين معلوف • فالكاتب يعود من جديد الى أحداث حقيقية دارت فى الماضى ، ويستلهم من وثائقها روايته • ثم يضيف من خيالاته ما يتناسب مع روح روايته • حدث هذا حين رجع الى ما كتبه الرحالة حسن الوزان فى روايته الأولى « ليون الأفريقى » ثم الى جزء من سيرة الشاعر عمر الخيام فى رواية « سمرقند » وأيضا الى ما توفر لديه عن حياة النبى مانى فى روايته « حداثق النور » وأخيرا فى « صخرة طانيوس » •

لقد سعى معلوف دوما أن يضفر الخيال بالواقع • وأن يجعل الأول فى خدمة الثانى ، بمحاولة لحيائه بأى ثمن • فبدأت هذه الضفيرة ذات شكل خاص بالكاتب ، مهما اختلف الزمان أو المكان الذى تدور فيه أحداث كل رواياته •

وفى روايته ، سعى معلوف من ناحيته الى اتباع نفس الشكل الأدبى الذى سبق أن استخدمه فى رواية « سمرقند » حيث أتى فى البداية الى العصر الحديث ، مشيرا أن هناك وثائق يمكن أن تلقى الضوء على المرحلة الزمنية التى يود التوغل فيها • فاذا كان هناك باحث أمريكى من أصل عربى قد تمكن من العثور على أوراق تخص الخيام ، فان المؤلف - كراوية - فى « صخرة طانيوس » يؤكد عثوره على وثائق مهمة تلقى الضوء أيضا على جريمة القتل التى حدثت فى الرواية عام ١٨٣٨ بأحدى

L'homme qui aimait les femmes, le Nouvel observateur,
23-4-1992, p. 131.

(١)

الضييعات اللبنانية والتي انتهت باختفاء شخص يسمى « طانيوس » أطلق اسمه فيما بعد على الصخرة الكبرى المجاورة لضييعته « كفر عبيدة » .

يقول الكاتب في الصفحات الأولى من روايته عن هذه الصخرة : « تأملت كثيرا هذه الكتلة من الحجارة دون أن أجروء على الاقتراب منها . ليس بسبب الخوف من الخطر ، فالصخرة بالنسبة لقريتنا هي لعبتنا المفضلة خاصة بالنسبة للأطفال . فقد اعتدت أن أرى الصغار الذين يكبروننى يتسلقونها . وفيما بعد لم يكن لدينا أية لعبة سوى أن تلتصق جلودنا بالصخرة ونحن لا نستطيع مقاومة سحرها » .

والكاتب الذى سوف يحكى لنا ما شهدته هذه الصخرة طوال ربح من الزمن ، عليه فى البداية أن يعرفنا على أبطال هذه الحكاية الرئيسيين قبل أن يروى لنا وقائعها ، وقبل أن يحدثنا بالتفصيل عن الضيعة كمكان أشبه بحصن فى حشاياء كل هؤلاء البشر ، الذين اذا ابتعدوا، عنها أحسوا كأنهم السمك الذى خرج من الماء .

فأبطال هذه الحكاية هم : لمياء . والشيخ فرانسيس . ثم جريوس . والمرأة هى محور الأحداث هنا ، ويتسمى الفصل الأول كله باسمها . « اغواء لمياء » . انها تحمل جمالها كأنه عقيدتها . هى زوجة للقروى البسيط جريوس . وتعمل فى منزل عمدة الضيعة وشيخها فرانسيس . وفى هذا البيت طلب جريوس يدها للزواج . فهى بمثابة ابنة لفرانسيس الرجل الذى يمزج بين الطيبة والقسوة . وبين متناقضات عديدة مثل أغلب الذين يمتلكون مقدرات الأماكن والبشر .

والشيخ فرانسيس هو سيد الضيعة ، ولذا فكم يتمنى الجميع الحصول على مضائه ، وحيث يردد أحدهم مثلا : « لقد رأيت الشيخ اليوم » بشيء من الغمز . بينما يردد الآخر : « اليوم قبلت يد الشيخ » كأنه حصل على رضاء الزمن . فهذه اليد كما يقول معلوف قد تأتى بالسعادة ، أو التعاسة لأبناء الضيعة . وهى من القوة بحيث انها تمثل مهابة خاصة لهؤلاء الذين ذاقوا قسوتها حتى انهالت عليهم مصائبها . يجب أن يحترمه الآخرون . وأن يطلبوا حمايته . وربما أشياء أخرى خاصة النساء .

تلك كانت ملامح عابرة عن الشخصيات الرئيسية التى ستكون ذات علاقة فيما بعد بالوليد طانيوس ابن لمياء . أما المكان فهو ضيعة غير موجودة على الخريطة اللبنانية تسمى « كفر عبيدة » ، ولكنها تمزج بين سمات العديد من الضيعات فى ذلك العصر . انها واقعة هناك فى

الجبال • تخضع للنظام الاقطاعى • حيث يملك الشيخ الكثير رغم أن النظام الادارى فى ذلك العصر سيفرض عليه حاكما ويطيريك • والناس فى هذا السهل المنخفض لا يتطلعون الى أعلى • فهم يرون أن العمدة لا يمكن أبدا تجاوزه • ولذا ، فان معلوف يفرد له عددا من الصفحات للحديث عن ما يتمتع به من سمات متناقضة •

أما الزوج جريوس ، فهو رجل قليل الكلام ، والابتسام • ولم تكن لمياء تطمح فى أن يكون لها زوج خلافه • رغم أنه يكبرها سنا • بين الزوج وامراته كانت هناك مسافة زمنية • فقد كانت فى ربيعها الخامس عشر ، أما هو فكان فى خريفه الثلاثينى • ومع ذلك فهى سعيدة • بل ان الكثير من نساء القرية يحسدنها على مكانتها • فهى ذات حظوة خاصة بالنسبة للشيخ الذى يناديها أمام الناس بـ « بنتى » • وهى حين تسمع هذا النداء تشعر بسعادة غامرة • ولكن يقال ان حدود هذه العلاقة قد اقتربت من مرحلة الخطر • لذا ، فعندما ولد «الصغير» طانيوس أثيرت الأقاويل عن هوية الأب الحقيقى : هل هو فرانسيس أم جريوس ؟ •

لقد ظل هذا الأمر الموضوع الرئيسى لأهل الضيعة « رغم أنهم يتكلمون أقل • أنهم يأكلون ما يكفيهم ويتعاملون مع الشبيخة زوجة فرانسيس بنوع من الازدراء ، عكس نظرتهم الى زوجها • وليست هناك اشارة من سكان القرية الى حقيقة أبوة مانيوس • ولكن الكاتب أشار الى ذلك تلميحاً فى البداية • ثم ما لبث الأمر أن تأكد فيما بعد •

فليست لمياء مجرد خادمة فى البيت ، ولكنها عندما تدخل على الشيخ تقدم له الفاكهة ، تشاركه التقاط بعض الثمار رغم أنها أعلنت لزوجها ، خفية ، عن مخاوفها من الدخول الى الشيخ لأنه يطلب منها فى بعض الأحيان أشياء أخرى لا تلبث أن تنهرب من الحديث عنها ، حتى لا تثير شكوك زوجها •

وقد أشار المؤلف ان لمياء ظلت بعد زواجها من جريوس مسطحة البطن طوال عامين • وانها قد حملت بعد أن تناولت من ثمار تلك الفاكهة • ولذا ولد طانيوس فى يوم صيفى ولكنه ملبد بالغيوم • وقد احتار أبوه فى اختيار اسم له فكان « عباس » أولا ، ثم استقر المقام على طانيوس وهو اسم غريب بالنسبة للضيعة التى اعتادت أن تطلق أسماء أخرى لأبنائها •

وقد حاول معلوف أن يعطى العديد من التفسيرات للتسميات اللبنانية فاسم عباس كان تيمنا بعم الرسول (صلى الله عليه وسلم)

الذى يسمى باسمه اثنا عشر خليفة حكموا المنطقة العربية ردحا طويلا من الزمن . أما اسم فرانسيس فقد استمد من القديس فرانسوا داسيس الزاهد المعروف .

وهناك فصل بأكمله حول الخلاف الذى دار الى أن استقر على اختيارهم اسم الوليد الجديد . ولكن المثير حقا هو ذلك الفضول الذى استبد بأحدى النساء لمعرفة الاسم الحقيقى الذى على الوليد أن ينتمى اليه . هل هو الزوج جريوس ، أم الشيخ فرانسيس ؟ فذات يوم أتت زوجة القس الى بيت الرجل . يدور بينهما حوار مثير :

ـ آخر مرة ، طلبت يد « بونا » بطرس وأعطيتها لك . فماذا تريد هذه المرة ؟

ـ هذه المرة أريد يدك ، يا شيخ .

ويرتبك الرجل ، ولكن المرأة ، التى هى أيضا شقيقة لبياء ، تطلب منه أن يعترف لها ، حتى وان كانت امرأة ، اذا كان هو الأب الحقيقى للوليد ، وبكل ثبات وثقة يردد : « اذا وددت أن تعرفى .. فهذا الطفل ليس من صلبى » ، وهو يعلم تماما أنه كاذب .

ورغم أن الشيخ يكذب ، فانه يذهب الى بيت لحم من أجل إقامة مراسم الحج . أما جريوس الزوج ، فانه يتلقى التهانى وعليه أن يصدق جيدا ، داخل نفسه ، ان طانيوس ابنه . فهو اذا لم يصدق ذلك فسوف تتحول حياته الى جحيم .

وينتقل الكاتب من الهم الخاص ، الى الهم العام ، فالبلاد فى تلك السنوات تعتبر طريق مرور للجيش المصرى الى الشام ، والعاصمة العثمانية ، بينما يعم احساس بأن هناك نهضة قادمة . كأن لبنان تستعد لدخول العصر الحديث .

والجدير بالذكر أن معلوف هنا قد استخدم ثلاثة مستويات من الأزمنة ، فهو يعود من عام ١٩٢٨ الى ١٨٢١ حين ولد طانيوس . ثم هناك زمن المؤلف نفسه . الذى يروى من اطاره وقائع الرواية باعتبار أن أحداثها قد انتهت ، ولعل هذا يذكرنا بنفس الكيفية التى تناول بها الكاتب الكولمبى جابريل جارتيا ماركيث روايته « وقائع موت معلى عنه » فنحن سلفا نعرف ما ستسفر عنه الأحداث . لكن من أجل معرفة المزيد ، وحكى التفاصيل مثير دائما للمتعة ، يجب علينا أن نقرأ الرواية .

وإذا كان المؤلف قد انتقل بين هذه الأزمنة ، بكل سهولة ، فإنه فيما بعد يختار أن يتتبع ملفولة طانيوس الذى ينتظر مصيرا قدريا مليئا بالمعاناة ، فهو مولود ومعه « ثأره » الخاص . تحوطة تلك الصخرة الرابضة فى التاريخ التى عليها أن تتسمى فيما بعد باسمه . وهناك أيضا أبوان : أحدهما حقيقى والآخر يحمل اسمه . . ومجموعة من الأشخاص الذين سيلعبون دورا مؤثرا فى مصيره مثل البطريك ، وهو رجل أشد قسوة وظلما من فرانسيس . وأيضا حاكم البلاد الذى يصدر الفرمانات الواجبة الطاعة .

الجدير بالذكر أن هناك تقاربا واضحا بين بعض وقائع هذه الرواية ، ورواية ماركيث السابق الإشارة إليها . ليس فقط فى الصياغة الأدبية ، ولكن أيضا فى أن أحداث كلتا الروايتين مأخوذة عن وقائع حقيقية ذات علاقة بالمؤلف نفسه .

وقد اختار معلوف أن يجرى بالسنوات ، حتى بلغ سن الصبا . فما أن أصبح فى الخامسة عشرة ، حتى انقلب فرانسيس فجأة على معاونه القديم « رافوز » بعد أن رفع حصة الضرائب « الميرى » فلم يكن أمام الرجل سوى الهروب . وما لبث الاقطاعى أن أصدر أمره بمنع دخوله الضيعة . ويشير المؤلف أن السبب الحقيقى لهذا الغضب والطرده ليس أبدا الضرائب ، وإنما لأن الاقطاعى حاول أن يغرر بامراته مثلما فعل مع لمياء . ولكنه تصدى له . وما لبث جـريوس أن حصل على وظيفته . ولكن « رافوز » ما يلبث أن يعود ومعه شفاعاة من نائب الحاكم المصرى للمعفو عنه . ثم يلتقى بطانيوس الصغير ذات يوم فيحدثه أنه ليس مطلوبا منه أن يقبل يد الشيخ يوميا . مثلما يفعل أبوه . ولكن عليه أن يدرس ويتثقف . ويصبح بذلك أباه الروحى .

ويقبل طانيوس على التعليم . ويعرف أن هناك فرقا بين ما يتلقاه من معرفة وبين ما يدور من حوله من عادات وتقاليد . ويزامله فى الدراسة « رعد » الابن الشرعى للشيخ فرانسيس . وتتوطد العلاقة بالبطريك ، ويتردد الرجلان على بيت الحاكم العام للجبل .

وفى الضيعة هناك شخص آخر يدخل فى خضم الأحداث يدعى « القس شتولتون » . والذى يروى فى مذكراته أنه فوجئ بأن السنوات تقدمت فجأة بطانيوس . وأنه رغم سنوات عمره الخمس عشرة فإن بعض الشعيرات البيضاء قد بزغت فى رأسه : « تصورت أن هناك أسطورة فى هذا الركن من الجبل تتعلق بالشيب الذى يصيب الصغار . وبالفعل يحدث هناك شيء مرعب » .

وتشاع الأقاويل عن علاقة ما بين زوجة القس وبين « رعد » ، وهي مجتمع صغير مغلق مثل هذا لا تلبث أن تتسرب الحكايات ، الحقيقي منها والمزيف ، فلا شيء يختبئ بما فيها حكاية بنوة طانيوس . فان قصة رعد تنتشر على السنة النساء ، وتعود الى الأذهان قصص الأب القديمة . ويخلق الصبي طانيوس على نفسه أبواب المكتبة من أجل الاستزادة من المعرفة ، ربما رفضا لهذا العالم ، وربما بحثا عن وسيلة أفضل لفهم الحياة . ثم يحس أن هناك مشاعر ما تنساب المرء حين يرى فتاة جميلة ، مثل « أسماء » التي يحبها ذلك الحب الطفولي الجميل ، « ويحاول في البداية أن يحفظ سره في داخله . انها ابنة معلمه الكبير « رافوز » الذي يناديه دائما بـ « ابني » . وهي لم تتجاوز الثالثة عشرة بعد ، لكنها أيقظت فيه مشاعر رائعة مقدسة .

لكن هذا الحب النقي في حياة طانيوس لا يلبث أن يختفى . ففي عام ١٨٢٨ ، تتعرض الضيعة لهزة أرضية عنيفة تصدع قصر فرانسيس الضخم ، والذي يعيش فيه أغلب أبطال الرواية . كما تتصدع المنازل القروية . وينتج عن ذلك سلسلة من المآسي . فبالإضافة الى الموت . هناك القحط . ويقرر الحاكم مضاعفة الضرائب . أما البطريق فيحس أن عليه أن يمارس سلطاته لمصلحته الخاصة . انه رجل لا يهمه أن يكون هناك شرف ، بل أن تأتي اليه العوائد بأي ثمن ، وهو لا يكن للمشاعر النبيلة أي تقدير . حيث يسعى لتزويج « أسماء » بابن أخيه .

ويصاب طانيوس بألم عظيم ويهرب من حبه الى امرأة أخرى « لقد عرفت امرأة ، لم أكن أتكلم لغتها . ولم تكن تعرف لغتي . لكنها كانت تنتظرني على السلم . وذات يوم طرقت بابها لأخبرها أن سفينة تنتظرنا من أجل الرحيل » .

ويرحل طانيوس بعد أن مات البطريق صريعا برصاصة أصابته بين حاجبيه . كما يموت جريوس مقتولا . وتندلع حرب طائفية هي الضيعة ، باللغة القسوة مثل حرب الأمس القريب في لبنان . وكما يقول « شولتون » في أوراقه الخاصة : لقد رجوت طانيوس أن يرحل . كان هذا هو واجبي نحوه . وأنا أقول له : فكر ، فأنت لست صاحب مصلحة في هذه الحرب . ليحكم المصريون جيلك ، أو العثمانيون وليعلن الفرنسيون الانجليز ، لكنه ردد : لكنهم قتلوا أبي .

بعد أن يرحل طانيوس الى قبرص ، تنقطع صلته بالضيعة . فلا أخبار تأتيه من هناك ، كما أن أخباره لا تصل الى أهله ، وخاصة أمه

لمياء • انه واحد من كثيرين سافروا بسبب هذه الحرب الى لندن وباريس
وفينا والقاهرة • ولكن قلوبهم ظلت معلقة بالوطن • يرغبون فى عبور
البحر للعودة حتى لو تعرضوا للنيران • ويفكر فى العودة من أجل الثأر •
لقد وجد نفسه أمام وجهى عملة للثأر • الأول مرتبط بدماء أبيه ، والثانى
يتعلق بالازدراء الذى يحسه داخل نفسه ، وتنسكب الأحزان والهموم داخل
قلب الشاعر الذى أصبح شعره أبيض تماما • رغم براءة وجهه « أنت
يا طانيوس يا ذا الوجه الطفولى • والرأس المتسعة لستة آلاف عام • لقد
عبرت أنهار الدم والوحل وخرجت كالشعرة من العجين • لقد مزجت
جسدك بجسد امرأة • وألقيت بعذريتك فوق الأرض • اليوم أصبح مصيرك
معلقا وبدأت حياة أخرى • فانزل من فوق صخرتك • وانغمس فى البحر :
واجعل جسمك يلحق نقطة واحدة من الملح » •

لكن طانيوس لا يعود لينتقم على طريقة الثأر العربية • بل ليرى
أمه • فيكون اللقاء حارا للغاية وهى تصرخ باكية : « أنا فى حاجة اليك •
فلا تبتعد مرة أخرى » • ولكن الغريب أن طانيوس عاد ليختفى من جديد •
ويكون الاختفاء هنا أقرب الى عبثية مصائر أبطال الأساطير الذين
لا يعودون قط ، فقد فشل طانيوس الشاب الأشيب فى الاندماج داخل هذا
العالم الضيق ، الملئ بالقسوة • ولذا ، لا يجد أمامه سوى حل واحد هو
الخروج من الوطن • وقد تحدث الكاتب عن هذا الخروج فى حديثه الى
ابراهيم العريس فى مجلة الوسط (العدد ٩٤) قائلا : « لا يهمنا أين ذهب •
وكيف ذهب • يهمنا قراره كرد فعل على ما يحدث • النهاية هى خروجه
من عالم الرواية • اختفاؤه • هذه هى فكرة الكاتب • حكاية الهجرة
ما قبل الهجرة • فاذا كان على أن أوصل فسيكون من الضروري أن أحكى
قصة أخرى لا علاقة لها بالأولى » •

تلك كانت وقائع رواية « صخرة طانيوس » لأمين معلوف ، وقد
حاولنا سردها قدر الامكان • فمعلوف ليس فقط روائيا
موهوبا ، ولكنه لا ينسى فى داخله المؤرخ والصحفى • فهو
لا يحدثنا عن قصة « ثأر » امتلأ التاريخ بالملايين من أمثالها •
ولكنه يؤرخ للبنان ، فى تلك الآونة ، وينقل صورة صادقة وحية
لكل ما كان يحدث فى ضيعة لبنانية فى النصف الأول من القرن التاسع
عشر • وقد وقع معلوف فى حيرة لترجمة الأسماء والألفاظ الى الفرنسية
التي يكتب بها فتركها فى أغلب الأحيان عربية بلا دلالات • وكأنه كتب
«صخرة طانيوس» لأبناء وطنه الذين يعرفون الفرنسية وليس فقط لقراء
اللغة الفرنسية ، أيضا ، وليس للمقارئ العربى الذى لا يعرف الفرنسية
وتلك سمة واضحة لدى الأدباء العرب الذين يكتبون عادة باللغة
الفرنسية

قائمة الأدباء اللبنانيين الذين كتبوا باللغة الفرنسية

أبو زاید ، فؤاد :

- ولد عام ١٩١٥ فى ساحل علما (مرتفعات لبنان) • شاعر •
- وقصائص • نشر ديوانه الأول « اشعار الصيف » فى عام ١٩٣٦ ببيروت •
- والذى لاقى ترحيبا من الأكاديمية الفرنسية • ثم جاء ديوانه الثانى « اشعار جديدة » المنشور فى باريس عام ١٩٤٢ • نشر ديوانه الثالث « فكرة » عام ١٩٤٥ •

أبو سليمان ، الفريد :

- عاش بين عامى ١٩١٢ و ١٩٣٥ حيث مات وهو فى الثالثة والعشرين من العمر بعد اصابته بمرض عضال لا براء منه • كان يحس دوما أن نهايته قريبة • وقد اكتست نغمة قصائده بحزن عميق مكسب باليأس ونداءات مليئة بالتمرد • لم ينشر له سوى ديوان واحد هو « رماد ساخن » الذى صدر عقب وفاته بعشر سنوات • والذى طبع فى بيروت باللغة الفرنسية •

أحديب ، جومانة

- ولدت فى بيروت • نشرت أشعارها الأولى وهى فى الرابعة عشرة من عمرها • تعاونت مع صحف ومجلات عديدة لنشر قصائدها • عملت فى جريدة « النهار » و « مجلة لبنان » اللتين تصدران بالفرنسية • ثم « اكسيون » action و « كراسات الشرق » • كما عملت فى بعض الصحف والمجلات فى مصر • ونشرت بها قصائدها • نشرت أول ديوان لها فى عام ١٩٤٩ باللغة الفرنسية فى باريس •

اركاش ، جان :

- ولدت فى الاسكندرية • لأب لبنانى وأم ريفية فرنسية • درست الأدب والموسيقا وقامت بالعديد من الرحلات بين أوروبا والشرق • نشرت كتابها الأول « مصر فى مرآتي » عام ١٩٣١ و « الغرفة العليا »

المنشور بباريس عام ١٩٣٣ . ثم « الأمير ذو الصليب » بباريس عام ١٩٣٨ .

امون ، يلائش :

فرنسية من أصل لبناني . بدأت حياتها كفنانة تشكيلية . وعرضت لوحاتها في باريس وبيروت . روائية تكتب قصصا قصيرة ، ومقالات . نشرت كتابها الأول « تمسة لبنان » عام ١٩٣٧ . كما كتبت في صحيفة « النهار » التي تصدر بالفرنسية .

بطرس ، ايقلين :

ولدت في بيروت . واشتركت في النشاط الاجتماعي والحركة النسائية . تكتب الرواية ، نشرت روايتها الأولى « يدان » عام ١٩٢٦ التي كتب لها المقدمة كل من جيروم وجان تورو .

ذابت ، جاك :

ولد في بيروت عام ١٨٨٥ ، شاعر نشر ديوانه « ضحكات ونحيب » عام ١٩٠٧ ورواية « الصخب الدامي » عام ١٩١١ . ودراسة عن سوريا عام ١٩٢٠ . ثم رواية « هيلسا » عام ١٩٢٢ وديوان شعر يحمل عنوان « اشعار مختلفة » عام ١٩٢٥ .

جماتي ، يول :

مولود في جبل لبنان . شاعر . نشر العديد من الدواوين مثل « رماح الحرب » عام ١٩٢١ . و « جناح صغير لهووس ميت » عام ١٩٢٥ . و « شمس » عام ١٩٢٧ . و « باريس بالمغنسيوم » عام ١٩٢٨ . ثم « اشعار » عام ١٩٣٨ .

حايك ، قوج الله :

ولد عام ١٩٠٩ في بيت صباب بجبل لبنان . بدأ حياته بديوانين هما : « دموع وابتسامات » و « جنة ابليس » ١٩٢٩ . نشر روايته الأولى « برغوت » عام ١٩٣٩ . ثم نشر دراسات عن « يسوع » عام ١٩٤٦ . و « الله لبناني » عام ١٩٤٦ ببيروت . ثم ثلاث روايات هي « هيلينا » ببيروت عام ١٩٤١ . و « الغريبة » عام ١٩٤٧ . و « جورفيل الساحر » عام ١٩٤٧ . و « أبو سيف » ١٩٤٨ . ثم ثلاثية روائية تحمل عنوان « أبناء الأرض » عام ١٩٥٠ . « ابنة الله » ١٩٤٩ . « سجن الوحدة » ١٩٥٠ .

حكيم ، فيكتور :

ولد عام ١٩٠٧ . وقد نشر العديد من القصائد والمقالات في صحف
مصرية ولبنانية وفرنسية . نشر ديوانه الأول « فريناز » عام ١٩٤٥ .
ثم دراسة عن الشعر اللبناني عام ١٩٤٨ .

سـهير ، أدمون :

ولد عام ١٩٠٢ . شاعر . نشر منذ عام ١٩٢٨ مجموعة من القصائد
في صحف ومجلات بيروت . وفي عام ١٩٤٣ صدر ديوانه الأول في
بيروت .

شهادة ، جورج :

(انظر الفصل الثاني) .

شـديد ، أندريه :

(انظر الفصل الخاص بالأدب المصري)

شبيحة ، ميشيل :

ولد في بيروت عام ١٨٩١ . مؤسس ومدير صحيفة « النهار » التي
كانت تصدر باللغة الفرنسية . في عام ١٩٢٤ نشر ديوان شعر
يحمل عنوان « منزل الحقول » وساهم في إصدار العديد من المجلات
منها « المجلة الفينيقية » و « فينيقيا » و « مجلة لبنان » و « كراسات
الشرق » باللغة الفرنسية .

غانم ، خليل :

ولد في بيروت عام ١٨٥٧ . وسافر الى باريس وعمل في جريدة
« أوفيجارو » ثم في صحيفة « الحوادث » نشر ديوان شعر يحمل عنوان
« المسيح » عام ١٨٩٩ . ثم دراسة تاريخية مهمة من جزئين عام ١٩٠١
تحت عنوان « السلاطين العثمانيون » .

غريب ، ميشيل :

ولد عام ١٩١٢ في دامور بجبل لبنان . وقام بتدريس الأدب
الفرنسي في كلية البطريركية ببيروت . نشر ديوانه الأول « أرومات في
الظل » عام ١٩٣٦ . ثم نشر الكثير من القصائد في الصحف اللبنانية
التي كانت تصدر بالفرنسية .

قرداحي ، شكري :

ولد في عام ١٨٩٠ ببيروت . تولى وزارة العدل . ورئاسة شرفية للبلاط ، كما عمل مدرسا في الأكاديمية القانونية الدولية بلاهاي وفي كلية الحقوق ببيروت . ثم حصل على دكتوراه شرفية من جامعة الجزائر . ونشر مجموعة من الدراسات القانونية باللغة الفرنسية منها على سبيل المثال : « مفاهيم وممارسة القانون الدولي الخاص في الاعلام » عام ١٩٣٨ .

قلت ، هكتور :

ولد عام ١٨٨٨ ، شاعر ، عاش في مصر ونشر أشعارا في أهم المجلات بالقاهرة والاسكندرية ، عاد الى لبنان ١٩٢٠ . وعمل في الصحف والمجلات المحلية . وتولى مسئولية المكتبة القومية في بيروت ثم عمل قنصلا عاما في ساو باولو عام ١٩٤٨ ومن أهم دواوينه « السرو والخروج » عام ١٩٣٤ و « في الرياح القادمة » ١٩٣٧ . و « القديسة ماما » وكلها منشورة ببيروت .

كورم ، شارل :

ولد في بيروت عام ١٨٩٤ . وأصدر أول مجلة ثقافية لبنانية باللغة الفرنسية باسم « المجلة الفينيقية » ثم أسس دار نشر تحمل نفس الاسم . شاعر . من أهم دواوينه « الانسانية والجبل » ١٩٣٥ ، و « طفل الجبل » (مقالات) عام ١٩٣٨ . ثم « الفن الفينيقي » ١٩٣٩ . و « سر الحب » ١٩٤٨ و « سيمفونية النور » ١٩٤٨ .

كوري ، شارل :

ولد في باريس عام ١٩١٠ من أصل لبناني . طبيب وشاعر ، نشر ديوانه الأول عام ١٩٣٣ بعنوان « ساعات ضائعة » ثم ديوانه الثاني « من شاطئ لآخر » عام ١٩٤١ . والذي أهدته الأكاديمية الفرنسية جائزة خاصة .

معلوف ، أمين :

(انظر الفصل الثالث) (*)

(*) تم رصد هذه الاسماء من كتاب : Anthologie des auteurs libanais. المصادر في بيروت عام ١٩٤٨ :

الفصل الرابع :

الأدب الفلسطيني المكتوب باللغة الفرنسية

اختلفت تجربة الكاتب الفلسطيني الذي يعيش في الشتات ، من حيث علاقته باللغة التي يكتب بها أدبه ، عن أقرانه من الأدباء العرب الآخرين الذين يكتبون باللغة الفرنسية . فرغم أن هذا الكاتب وجد نفسه في شتات ، إلا أنه لم يشأ أن يغير من لغته التعبيرية ، لاحتساسه أنها شيء أساسي ورئيسي يربطه بوطنه الذي تشتت عنه . ونقصه بذلك الفلسطينيين الذين اختاروا أن يعيشوا خارج حدود الأرض العربية . وقد حاول السينمائيون من هؤلاء الفلسطينيين أن يقدموا أفلاما ناطقة بلغات غير عربية ، وذلك لأن على المخرج أن يمثل لشروط المنتج ، ولما كان المنتج في أغلب هذه الأحيان أوروبيا فإن الأفلام الروائية والقصيرة التي قدمها الفلسطينيون ناطقة بلغات أوروبية . مثل أعمال ميشيل خليفى التي انتجت في بلجيكا .

لكن الفلسطينيين لم يشاؤا أن يكتبوا إلا بالعربية . مهما عاشوا خارج حدود الوطن العربي ، والأسماء كثيرة في هذا المضمار ومنهم على سبيل المثال افنان القاسم .

وسوف نقدم هنا كتابا فلسطينيا تشكل حالته كمبدع لونا فريدا في الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية ، وهو الكاتب ابراهيم الصوص . وهو دبلوماسي فلسطيني عمل سكرتيرا عاما لمنظمة التحرير الفلسطينية في باريس منذ سنوات طويلة . إذن فهو موجود هناك بحكم منصبه الدبلوماسي وليس مفروضا عليه أن يكتب باللغة الفرنسية . لكن ابراهيم الصوص وجد نفسه في المدينة اليهودية الأولى في غرب أوروبا - باريس - والتي تضم أكثر من تجمع يهودي ، واليهود هم الذين يسيطرون على الكثير من صحافة المدينة ، وهم الذين يطلقون على الأشياء مسمياتهم الخاصة كأن نقول « أدب يهودي » و « فلسفة يهودية » و « فن تشكيلي يهودي » وما إلى ذلك . إذن ، فكل من يحاول الخروج على هذا

الناموس الذى يضعه اليهود متهم بمعاداة السامية . وقد يكون نازيا يريد ان يعيد للعالم صورة هتلر الذى عذب اليهود ورضعهم فى معسكرات الاعتقال الشهيرة .

أدرك ابراهيم الصوص أنه من أجل أن يفهم الفرنسيون قضيته التى يدافع عنها فيجب أن يمارس لونا من الكتابة أقرب الى هذه العقلية ، يبعد صورة الشخص الزاعق الذى يدافع عن أرضه . فلا شك ان الكتابات التى تتفق مع عقلية الفرنسيين سوف تمر من خلال مرشح خاص . لدرجة أن بعض اليهود أنفسهم لن يمانعوا فى المساعدة لنشر مثل هذه الأفكار الى القارئ فى كل انحاء أوروبا . طالما ان أهداف هذا الابداع ، لا تتعارض مع ما ينادون به .

اذن ، كان على ابراهيم الصوص أن يتغلغل من خلال أفكاره الخاصة ككاتب مبدع . حتى وان كانت هذه الأفكار لم تكن تناسب فى البداية أهداف منظمة التحرير الفلسطينية التى يعمل ممثلا لها فى باريس منذ أكثر من ثلاثة عشر عاما . الا ان أشخاصا من طراز الصوص ساعدوا فى تغيير أفكار المنظمة .

لقد اختار الصوص أن يتحاور مع اليهود على الطريقة الأوروبية . ان يذهب اليهم فى عقر دارهم . فيناقش ويبدع كما يشاء . ككاتب متمكن يفهم ما يدور حوله . فقد دفع فى أواخر عام ١٩٨٦ بروايته الأولى «بعيدا عن القدس» Loin de Jérusalem الى ناشرة باريسية تدعى ليانا ليفى . وغير خفى اسمها اليهودى . وانتهزت الناشرة الفرصة كى تدفع بكتاب الصوص الى السوق مصحوبا بكتاب آخر من تأليف الكاتب الاسرائيلى يورى آفينرى يحمل اسم «أخى العدو» . ولم تكن مصادفة أن تقوم دور نشر فرنسية أخرى بدفع كتب مماثلة من طراز «اشقاء اسرائيل الثلاثة» لشالوم كوهين . و «أنا يهودى عربى فى اسرائيل» لمردخاي شوشان ، وغيرها من أعمال الكتاب الاسرائيليين الذين تترجم أعمالهم مباشرة الى اللغة الفرنسية .

أما رواية الصوص فهى مكتوبة مباشرة باللغة الفرنسية . وتروى قصة شاب فلسطينى يدعى نبيل وقتاة يهودية مراهقة تسمى جابريللا . انهما يعيشان فى نفس المنزل بمدينة القدس . تربيا معا . واقتربا من بعضهما البعض طوال سنوات الطفولة والصبا حتى ترعرعا . وتحاببا ثم تزوجا . تبدأ أحداث الرواية عام ١٩٢٥ . قبل ان يتم نفى نبيل بثلاثة عشر عاما بعيدا عن مدينة القدس . والرواية أقرب الى السيرة الذاتية . فابراهيم الصوص لم يكن قد ولد فى عام ١٩٢٥ الذى تدور فيه الأحداث . أما جابريللا فقد كان الصوص فى الثالثة من عمره

عندما شاهدها لآخر مرة • حين تم نفيه خارج القدس عام ١٩٤٩ مع أبيه الذي ظل محتفظا بمفتاح البيت الذي اقامت فيه فيما بعد أسرة يهودية جاءت من رومانيا • وعندما تركت أسرة الكاتب مدينة القدس عثر الصغير على بيانو قديم تعلم عليه عزف المقطوعات الموسيقية • وقد دفعه هذا الى دراسة الموسيقى في باريس ثم لندن التي ألف بها أولى مقطوعاته الموسيقية • ثم عمل ممثلا للمنظمة •

لقد حول الصوص مهنة بطله من شاعر الى موسيقار • فمن المعروف ان الصوص قد بدأ حياته شاعرا ونشر ديوانا بالفرنسية يحمل عنوان « دافيد وجوليات » ثم جاءت روايته باللغة الفرنسية التي اجتر فيها ذكريات الطفولة عن أبيه • حيث يروي تاريخ أسرته منذ عام ١٩٢٥ وحتى الآن • وقد أبدى الصوص إعجابه بأدب مرجريت دوراس وباتريك موديانو ، وهو كاتب فرنسي يهودي من أصل تونسي • وفي الرواية تحدث عن مذبحه دير ياسين • وحرب عام ١٩٤٨ • وكما يقول الكسندر بوساجون ان الصوص : « يكتب بلا حقد • ولكن هذا يكفي لتسوية الصراع الذي يسمم الشرق الأوسط والعالم منذ ثلاثة أجيال • ولكنه حسبيما يقول لست مسالما • ولكن شعبينا لا يمكنهما ان يمارسا الحرب الى الأبد » (١) •

وجابريللا في الرواية يهودية جاءت من ألمانيا بعد ان تعرضت لاسرتها لمضايقات النازية التي كانت قد استولت على الحكم لتوها • وقد اختار الكاتب فترة الثلاثينات لروايته لأنها ، كما يقول ، لم يكن فيها رجال مسلحون جاءوا من بلادهم من أجل البقاء في إسرائيل ويحولونها الى مستعمرة متعجرفة •

أما الكتاب الثاني لإبراهيم الصوص فقد نشر في أبريل عام ١٩٨٨ تحت عنوان « رسالة الى صديق يهودي » *Lettre a un ami juif* وليس خافيا أن الكاتب قد استعار هذا العنوان من كتيب صغير كتبه البير كامى عام ١٩٤٢ تحت عنوان « رسالة الى صديق ألماني » ابان الاحتلال النازي لفرنسا • والكتاب ليس ابداعيا • ولكنه نص سياسى فى المقام الأول • وقد اختار الصوص أن يكون ناشره هذه المرة هو دار غير يهودية ، وتقول مجلة «لوفيل أوبسرفاتور» ان الكتاب قد جاء كرسالة خالصة من الكراهية قبل الاحتفال بأربعين عاما على قيام الدولة العبرية • وبعد فترة من مقتل المناضل الفلسطينى أبو نضال فى تونس • وتقول المجلة ان الكاتب قد دعا هنا يهود الشتات أن يبرهنوا على

حسن نواياهم باقناع اسرائيل بالتفاوض مع المنظمة ، ويهمنا أن نترجم جزءاً من الحديث الذي نشرته المجلة مع الكاتب بهذه المناسبة لالقاء الضوء على آراء الكاتب :

— لئونفيل أويسرفاتور : لماذا تكتب الرسالة الى صديق يهودى وليس الى صديق اسرائيلى ؟

— ابراهيم الصوص : فى الواقع ، لقد ترددت طويلا ، فاذا كتبت رسالة الى صديق اسرائيلى ، فان على أن أوجهها الى صديق اسرائيلى حقيقى ، وعلى أن اكتب الى الاسرائيليين فى معسكر السلام الذين يتظاهرون فى الشوارع ضد قهر الجيش الاسرائيلى فى الاراضى العربية المحتلة ، ولقد قلت لهم : حاولوا أن تذهبوا بعيدا ، وأن تحموا الفلسطينيين ، فى كل مرة ترون فيها الجنود أو العسكر يهاجمون قرية ، ضعوا انفسكم بين الجيش والفلاحين ، فى كل مرة ترون الجيش يفجر منزلا بالديناميت ادخلوا المنزل مع الأسرة الفلسطينية ؛ لأنكم سوف تمنعون الانفجار .

« ولكننى اعرف أن حركة السلام تشكل اقلية ، وأنها كانت أقل قوة أثناء حرب لبنان ، وعندما تظاهر أربعمئة ألف اسرائيلى فى تل أبيب ضد مذبحتى صابرا وشاتيلا كانت نسبة الاسرائيليين الذين يفضلون سياسة الضغط ويقبلون سياسة أكثر تشددا قد ارتفعت ، اذا لم تكن حركة السلام قد فرضت نفسها على التجمعات اليهودية فى الخارج ، فانها خنقت ، ولذا ، وجهت رسالتى الى كل اليهود عبر هذا الصديق الذى تخيلته .

— الا تخشى أن يخرج الصديق من جيبه ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية ويخبرك انكم تريدون تدمير دولة اسرائيل ؟

— لا ، فعندما سألت هذا الشخص أن يكون شجاعا مثل الاسرائيليين الذين ينزلون الى شوارع تل أبيب بنداء حركة السلام ، عندما اتكلم عن الشعب الاسرائيلى اقول ان هذا الشعب له حق الوجود ، ويأسر عرفات نفسه لا يكف عن ترديد هذا ، نحن لا نحارب أشباحا ، وأنا ادعو الاسرائيليين أن يخرجوا ميثاقهم بدورهم ، وألا يتجاهلوا وجود الشعب الفلسطينى ، اقول للصديق اليهودى : اذا أردت أن تلغى ميراث الهولوكست فيجب أن تعرف أيضا من ناحيتك ، وتعى ماضينا ، اعرف انك يجب أن تعيش فى سلام وأمن ، وأعرف مدى ارتباطك الروجى بهذه الأرض ، ولكننى لا أعرف أن لليهود الحق فى أرض الفلسطينيين ، الحق التوراتى غير موجود ، فحقى يأتى من أننى قد ولدت هناك ويجب

أن أعيش هناك • ولا أرى ، أخذاً في الاعتبار الارتباط الروحي ،
أن حق اليهود يمكن أن يكون على أرض • ومع هذا فأنا بوصفي فلسطينياً
أقول لهم : طالما أن ارتباطكم الروحي موجود • فأنا مستعد للمعيشة
معكم • تعالوا معي للعيش على مقربة •

ولكن الزمن يمر بسرعة • منذ اندلاع الانتفاضة في الأرض
المحتلة • لم يعد يوجد سوى مائة وخمسين قتيلاً وألف الجرحى •
والمبتورى الأعضاء ، والمطرودين • والمساجين • القتلى والجرحى
لديهم أسر • وأصدقاء • وعلاقات • حتى تتخيلوا درجة الحقد •
ورغبة الانتقام التي يمكن أن توجد في الشعب الفلسطيني • لقد
سمعت تصريح رئيس الوزراء الاسرائيلي الذي يشبه الفلسطينيين
بالجراد • لقد سمعت عن عنصرية المستوطنين • فالفلسطينيون يشمون
من هذه النغمة من العنصرية ضدهم ، أنهم لا يمكن أن يكونوا سعداء
بتشبيههم بالجراد • فلا يجب أن نعاملهم كالحشرات ، ندهسهم ويموتون •

— هل قرأ ياسر عرفات مسودة كتابك ؟

— لا • ولكن ليس في هذا الكتاب ما يستحق أن يوقع عليه
بنفسه •

الجدير بالذكر أن مجلة « لوبوان » الفرنسية قد نشرت في عددها
الصادر في ٣ أكتوبر ١٩٨٨ أن ياسر عرفات أكد أمام رولان ديماس وزير
الخارجية الفرنسية آنذاك : « لن أكون رئيس الحكومة الفلسطينية المؤقتة »
ثم استدار ، كما تؤكد المجلة ، ناحية ابراهيم الصوص وهو يقدمه مردداً :
ربما سوف يكون ابراهيم الصوص • والغريب أن الكاتب قد طلب بعد
هذا التصريح بشهور من السلطات الفرنسية أن تمنحه الجنسية
الفرنسية ، وقد كان •

لم يتأخر الرد الاسرائيلي كثيراً على كتاب ابراهيم الصوص •
ف رغم أن الكاتب الفلسطيني لم يوجه رسالته الى كاتب بعينه ، فإن الكاتب
الاسرائيلي ايلي بارنافي قد رد على ابراهيم الصوص في كتيب صغير يقع
في ثمانين صفحة تحت عنوان « رسالة من صديق اسرائيلي الى الصديق
الفلسطيني » بالتعاون بين مجلة الاكسبريس ودار نشر فلاماريون • وهو
مدرس في جامعة تل أبيب • واعتقد انه ليس مجالنا ونحن نتحدث عن
الأدب العربي المكتوب بالفرنسية أن نرصد ما جاء في هذا الكتاب • لكن
يمكن أن نقدم بعض أفكاره ؛ لأن ذلك كله قد جاء من مبدع بدأ يتعامل
في الصراع العربي الاسرائيلي بمفهوم جديد • حيث يقول الكاتب : « علينا

أن نتحاور مع منظمة التحرير الفلسطينية ، لأن الكثير من الدلائل قد تغيرت . فعندما جرّوت حنا سنيورا الصحفية واحدى المتحدثات باسم عرب الداخل أن تقول في القدس انكم لن تجرؤوا على الكتابة في باريس أن الصهيونية هي الحركة الثرية للشعب اليهودي . لاشك أن هذا يعنى . رغم كل ذلك ، أن كل شيء يتحرك في ملعب الفلسطينيين ،

ومن الواضح الدور الذى لعبه أدب الصوص في التمهيد للتحاور بين الفلسطينيين ، واليهود ، وقد حدث ذلك إبان محادثات أوصلو السرية، واختفى الصوص ، وما هو عرفات رئيسا للحكم الذاتى الفلسطينى .

الفصل الخامس :

الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية

« ولدت الحرب العالمية الثانية في الجزائر حياة أدبية أكثر ثراء وأكثر انفتاحا وتنوعا ، وقد جاء ذلك من صدمة الحرب ، وبداية الاتصال بثقافات أخرى . وأصبح الأدباء الجزائريون ، خاصة الشباب ، مطلوبين لدى القراء والناشرين . وقد ساعد ذلك على ظهور ما يسمى بالمدرسة الجزائرية » (١) .

ففي بداية القرن . كان الفرنسيون يعملون على أن تنطق شمال أفريقيا باللاتينية . وتحمس لهذه الفكرة أدباء فرنسيون مثل لوى برتران وروبير راندل . ثم مع بداية الثلاثينات كانت الفكرة هي صناعة أفريقيا على المنوال المتوسطي . وظهر جيل من الأدباء في تلك السنوات عرفوا تحت اسم « شباب البحر المتوسط » كان أغلبهم من الفرنسيين . وفي الأربعينات لمع الأديب الشاب ألبير كامى باعتباره فرنسيا يعيش ويكتب عن الجزائر . وسمى هذا الجيل الذي عاصر الحرب في الجزائر من الفرنسيين بالجيل الاستعماري الثالث ، ومن أبرز أبنائه « إيمانويل روبليس » صاحب مسرحية « ثمن الحرية » .

وقد شكل هذا الجيل مدرسة الجزائر . والذي ظهر إبداعه في مجلات مهمة مثل مجلة « فونتان » fontaine و « لارش » l'arche و « لانف » la nef وما لبثت هذه المجلات أن انتقلت إلى باريس عقب انتهاء الحرب .

وقبل أن تنتهى سنوات الأربعينات بدأت الأسماء الجزائرية الحقيقية تلمع في الأفق . ولأول مرة يظهر تعبير الأدب العربي المكتوب بالفرنسية في الجزائر . وفي تلك السنوات كان الاستعمار الفرنسي يتعامل

(١) Les littératures francophones depuis 1945, J. J. Joulent., p. 171.

مع اللغة العربية الفصحى باعتبارها من التراث . وكان يتم تعليمها في أضيق الحدود في فرنسا . وهكذا وجد الجيل الأول من الأدباء الجزائريين انفسهم امام اختيار واحد هو الكتابة باللغة الفرنسية التي يتقنونها . ومن ابناء هذا الجيل هناك جان حمروش ، ومولود معمري ، ومولود فرعون ، ونبيل فارس . وهم جميعا من البربر : ولغتهم الأصلية هي اللغة البربرية . أما الأدباء الذين لغتهم الأصلية هي العربية فهناك مالك حداد ومحمد ديب وكاتب ياسين .

وقد ساق هذا الكاتب الجزائري أن يستخدم اللغة التي يمتلك ناصيتها أكثر من غيرها . وهي أيضا في تلك الآونة لغة بني وطنه .

ويقول كتاب « الأدب فرانكفوني منذ عام ١٩٤٥ » ، (١) ، ان مسألة اللغة المكتوبة لم تكن تهم كثيرا في مجتمع ترتفع فيه نسبة الأمية أكثر من ٩٠٪ قبل عام ١٩٦٠ . ولذا ، فان الكاتب العربي في تلك الآونة كان يكتب لقارئ آخر وهو القارئ الفرنسي ، أو الأوروبي بشكل عام . وقد أحدثت هذه الظاهرة ما يسمى بالمأساة اللغوية للمستعمر . فالكاتب يمتلك لغتين لا يستطيع أن يستخدم أدوات واحدة منهما في التعبير . وكان الكاتب يحس أن الفرنسية هي اللغة الأم طالما أنه يحس بها . ويحلم ويفكر ، أما اللغة العربية فهي لغة غريبة في تلك الآونة . لذا ، اختار الكتابة بها دون أن يشعر بأي ندم ؛ لأنه لم يكن يملك سوى أن يفعل ذلك .

وقد شكلت هذه الظاهرة خطورة على الكاتب الذي يجب أن يناهض هذا الاستعمار . فأحس أن عليه أن يهاجر الى لغته العربية . لكن هذا لم يحدث بسهولة . ولعله لم يحدث لمن كانت جذورهم أشد في اللغة الفرنسية . وقد كتب كاتب ياسين أكثر من مرة أن « موقف الكاتب الجزائري الذي يعبر بالفرنسية هو أنه بين خطين من النيران يجبرانه أن يبدع . وأن يرتجل » .

وقد كان الجيل الذي ظهر في عام ١٩٥٢ أكثر شهرة في البلاد العربية ، حيث ان أغلب أعماله قد ترجم الى اللغة العربية وخاصة في مصر . فمن المعروف أن ثلاثية محمد ديب « البيت الكبير » La grande maison و « الحريق » l'incendie و « النول » le metier a tissu ترجمت في مصر في أواخر الستينات ونشرتها روايات الهلال . ومن ابناء هذا الجيل هناك جان حمروش . ثم مولود فرعون . وهؤلاء الأدباء ما لبثوا أن دخلوا في المعركة مع الشباب الذين جاءوا من بعدهم

(١) المصدر السابق .

مثل كاتب ياسين وبشير حاج على مالك حداد . منهم الشعراء ومنهم
كتاب الرواية كما هو معروف .

كاتب ياسين :

تجىء أهمية الكتابة عن كاتب ياسين ضمن الأدباء العرب الذين
يكتبون باللغة الفرنسية ليس فقط من أنه يمثل الجيلين الأول والثاني
من هؤلاء الأدباء . ولكن أيضا لأن علاقته باللغات التي ينتمى إليها
قد شكلت بالنسبة له بلبلة خاصة جعلته يدافع في فترة من حياته عن
اللهجات المحلية الجزائرية ، وينادي بها لغة للكتاب وخاصة الابداع
الأدبي . فقد تربى في مجتمع به العديد من اللهجات واللغات . فبالإضافة
الى اللهجة المحلية الجزائرية . هناك اللغة البربرية والعربية الفصحى
والفرنسية . ولذا ، سنجد أن مشكلة اللغة تؤرقه بشكل ملحوظ . وقد
بدأ هذا كثيرا في الأحاديث الصحفية التي أدلى بها في السنوات الأخيرة
من حياته .

ولا يمكن الكتابة عن السيرة الذاتية لكاتب ياسين دون الرجوع
الى الأحاديث الصحفية التي أدلى بها للعديد من المجالات العربية . خاصة
التي تصدر من باريس مثل « اليوم السابع » و « الوطن العربي » فضلا
عما كانت تنشره صحيفة لوموند من وقت لآخر كلما صدر كتاب جديد
للأديب ، خاصة في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته ، ففيما قبل لم يكن
يكتب عن سيرة الكاتب سوى القليل من السطور . وفي فترة من حياته .
كان قد توقف عن الابداع لأكثر من خمسة عشر عاما . ولذا راح يجتر
حياته وشهرته بشكل ما ، واستفاض البوح بما يتعلق بذاته
للصحافة .

ولد كاتب ياسين في السادس والعشرين من أغسطس عام ١٩٢٩ ،
بالقرب من مدينة قسطنطينية . « كانت أمي عبقرية . وكانت لديها سعادة
في التعبير الغريب بالعربية . كان أبوها رجل أدب . موهوبا مثل
أخوته في اللغة العربية . نسي ابنه لكن أمي كانت تنصت اليه من خلف
الباب . وتعلمت العربية الفصحى من مخبئها . وانتهى الأمر بأن ساعدها
أبوها في الدراسة » (١) .

أما أبوه فقد أدخله كتاب القرية ليتعلم اللغة العربية ويحفظ القرآن
الكريم . ولكنه ما لبث أن نقله الى المدرسة الفرنسية التي ظل بها حتى
عامه الخامس عشر .

(١) Kateb, le premier des lieux, le monde 20-12-1986, p. 10.

ويعتبر عام ١٩٤٥ نقطة تحول ملحوظة في حياة « كاتب » ، ففي الثامن من مايو قامت المظاهرات الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي . وتم القبض على كاتب ياسين . وطلبوا منه أن يخون وطنه . إلا أنه رفض . فبقى في السجن فترة من الوقت وراح يمارس الكتابة والابداع . « بدأ كل شيء بالنسبة لى بالشعر . ربما اننى كتبت قصائدى الأولى فى سن التاسعة و العاشرة . فى التاسعة قرأت بودلير . هذه العلاقة المبكرة بالشعر انما ادين بها الى أبوى . كانا يتمتعان بفطرية شعرية عالية . تصور أنهما حتى عندما كانا يتشاجران كانا يتناجيان شعرا . الا أن البداية الحقيقية تعود الى عام ١٩٤٥ . تعرف ولاشك ما حدث فى ذلك العام . لقد اطلقت الشرطة الفرنسية النار على الطلبة الجزائريين من المتظاهرين ، ولما كنت أنا واحدا منهم فقد أودعت السجن . كنت يومها طالبا فى المدرسة الثانوية فى سطيف . دام حبسى شهورا عدة . وحالما خرجت بدأت بكتابة مجموعتى الشعرية الأولى . تنقسم المجموعة الى قسمين . ذلك اننى لدى خروجى من السجن . تعرفت على « نجمة » - ابنة عم لى . ومتزوجة ، همت فى الحال بهذه المرأة ، وسأظل كذلك ، هكذا ضمت المجموعة قسمين : قصائد فى النضال وأخرى فى الحب . منذ البداية كان الشعر بالنسبة لى هو : « الشعب ونجمة » .

« لقد حالفنى الحظ بعد فترة . كنت جالسا فى مقهى ، وكان يجلس الى طاولة مجاورة رجل فرنسى أبيض . يشرب نبيذا ابيض . قام بيننا حديث . سألنى عن عملى . فقلت له اننى ، مبدئيا ، طالب ولكننى أمارس هواية الشعر . فقال لى اننى كنت محظوظا ، لأنه هو نفسه ناشر . وطلب الى أن آتية بمخطوطاتى . وحال قراءته لها قرر أن ينشرها . وهكذا كان . وجدت نفسى فى سن السادسة عشرة ومعى مجموعة مطبوعة . الا أن المسألة لم تنته عند هذا الحد . كانت هذه هى المناسبة لأن اكتشف أن شعرا كشعرى لا يتمتع فى الجزائر المستعمرة بحق الإقامة فى المدينة . نحن فى عام ١٩٤٦ . ما أن اطلع الفرنسيون على قصائدى حتى حالوا دون توزيعها فى المكتبات . فراح أصدقائى والمتضامنون معى من الزملاء يوزعونها جماهيريا . تصور (يضحك) أن المجموعة راحت تباع فى الحوانيت وصالونات الحلاقة ، أدركت حينها اننى ، اذا كنت أريد الاستمرار فى الكتابة ، فيجب أن أعتمد على هؤلاء البسطاء من أبناء شعبى . أدركت كذلك أن الشعر والنضال السياسى سيظلان الى أبد ، متلازمين لدى ، متكافئين » .

« للخروج من هذا العزل القسرى الموضوع على الكلام الشعرى اتصلت بعناصر المقاومة ورحت ألقى فى الجمهور محاضرات أدبية - سياسية ، ولكن سرعان ما اكتشفت أنه لا يصلح صوتى الى أكبر عدد

ممکن من الناس ، جزائريين وفرنسيين كان على أن اتجه الى باريس
« قم الذئب » كما يقال (١) .

ومن خلال السيرة الذاتية التي رواها كاتب ياسين للصحافة .
نرى أنه كتب روايته ، ودرته « نجمة » Nedjma في الفترة بين عامي
١٩٤٤ و ١٩٥٠ . ثم نشر مجموعة من المسرحيات التي جلبت له الشهرة .
ومنهما « الجثة المطوقة » Cadrave encerclé و « دائرة القمع »
le cercle de repénailles ١٩٥٩ . و « المرأة المتوحشة » la femme
sauvage ١٩٦٣ . و « الأسلاف يتميزون غضبا » les ancêtres
redoublent de ferocité ١٩٦٥ . ثم « الرجل ذو الصندل الكاوتشوك »
l'homme au sandales de caoutchouc عام ١٩٧٠ . و « عمل متناثر »
l'oeuvre en frogment ١٩٧٧ . وهي كلها أعمال مكتوبة باللغة
الفرنسية : ونتيجة للصراع الذي يدور بداخله فيما يتعلق بمسألة الكتابة
باللغة العربية . وجد أنه من الأسهل أن يكتب باللغة العامية الجزائرية .
وهي نفس التجربة التي سبقته إليها آسيا جبار .

وقد عاش كاتب ياسين بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٦١ هائما بين المدن
الأوروبية . وبين باريس وبلجيكا ويوغوسلافيا وألمانيا والاتحاد السوفيتي .
وهذه السنوات تمثل الخصوبة الإبداعية للكاتب . قام خلالها بكتابة
ثلاثيته المسرحية المعروفة « عدت الى البلاد بعد الاستقلال ، واستأنفت
العمل في جريدة الجمهورية الجزائرية التي عاودت الظهور من
جديد . ولكن بعد فترة قامت السلطات بمنعها من الصدور . دفعني
هذا الى القيام بجولات جديدة في الخارج . وبعد كل عودة كنت أبحث
عنا عن شيء أقوم به » (٢) .

في هذه الفترة ، مارس كاتب ياسين العمل الصحفي . بعد أن التقى
بالسفير بن يحيى ، سفير الجزائر في موسكو . فعمل في جريدة
« المجاهد » : « كان الرئيس بومدين ووفد من الحكومة يتهيئون لزيارة
مدينة وردله في الجنوب . فسبقت الوفد وذهبت الى المدينة في عشية
الزيارة الرسمية لتكوين فكرة عن حياة المواطنين . واستطلاع شكوهم .
طلبت الى أحد موظفي وزارة الاعلام أن يرافقني في جولة عبر المدينة .
ركبت سيارة الوزراء السوداء الضخمة ورحنا نقطع شوارع
المدينة الصغيرة . لا نقابل فيها قدم انسان تسعى . وفي مشارف

(١) لم انته بعد من تكوين الجزائر ، حوار كاظم جهاد ، اليوم السابع ١٣ أبريل

١٩٨٧ . ص ٣٦ .

(٢) المرجع السابق .

المدينة ، فحسب ، لمنا أربعة جدران • هيكل مبنى لم يكتمل • عندما توقفنا ودخلنا فيه وجدنا بين الجدران الأربعة خيمة • ماذا تفعل خيمة بين جدران أربعة ؟ اليس هذا شكلا سوريايا بحق ؟ « (١) »

فى هذا الحادث ، اكتشف كاتب ياسين أن الشرطة تبعد فقراء المدينة اذا جاء رئيس الدولة لزيارة المدينة • وطالب بإعادة السكان الى مناطقهم الأصلية كى تتمكن الحكومة من مشاهدتهم : « ولما لم يسمعنى أحد • قفلت راجعا • ولقد دفعنى شعورى الى مغادرة البلاد من جديد • جئت الى باريس • وبقيت فيها هذه المرة حتى ١٩٧٠ • ولم أعد الى الجزائر من جديد الا بعدما سمح لى وزير العمل بإقامة مسرح عمالى • وقد استطعنا خصوصا فى السنوات الخمس الأولى أن نقدم أعمالا جيدة أغلبها بالعربية المحلية فى الجزائر » •

وقد تحدث كاتب ياسين أيضا حول هذه المرحلة قائلا : « بدأت الكتابة بالعامية منذ خمس عشرة سنة • وانقطعت عن الكتابة بالفرنسية • هذا ، بالرغم من أن صديقة فرنسية لى ، هى جاكلين أرنو التى قامت بجمع أعمالى مؤخرا ، كانت تحثنى على الكتابة بالفرنسية • كانت تقول أنه يجب على هذا ، الا أئننى لم أكن أستطيع ذلك • لذا ، عملت على اللمة النصوص التى أهملتها خلال سنوات « (٢) »

وجاكلين أرنو هى باحثة فرنسية أو كما يراها كاتب : « امرأة نبيلة • امرأة رائعة فوق العادة ، كانت صاحبة قلب كبير بالرغم من أنها فقدت حظوة الطبيعة وعطفها عليها • كانت مصابة بالقلب ومريضة بالسرطان وتعب الأعصاب • مع ذلك فقد تابعت رسالتها الثقافية والجامعية وقامت بما قامت به تجاه الآداب المغربية وأعمالى • ان امرأة مثلها لأمر خيالى » •

ومادمننا بصدد الحديث عن كاتب ياسين كروائى عربى يكتب بالفرنسية • فيمكن أن نرصد دأبه فى اللغة العربية ، فهو يتحدث عن هذا الموضوع فى مجلة اليوم السابع - العدد السابق الإشارة اليه - قائلا : « الجزائر بلد هو بلاشك اسلامى • لقد أسلمنا • نحن الجزائريين • الا أننا لم نستعرب جميعا • ثم ما هى هذه العربية التى يقدمونها لنا فى الجزائر ؟ اذهب يا صديقى واستمع الى نشرات الأنباء فى المذياع والتلفاز : عربية عتيقة ، مبالغ فى تعتيقها • الى درجة بعيدة • وهى أنأى ما تكون عن الوضع الملموس فى عربية العراقيين والمصريين

(١) المرجع السابق •

(٢) المغربى المتشرد يعود - المجلة - ٢٧ مايو ١٩٨٧ •

واللبنانيين .. الخ .. لغة بلاغية بائدة . لا يفهمها حتى المثقفون . عملي المسرحي أنا قدمته بالعربية . ولكنها عربية حية متداولة يفهمها المثقف والعامل . فيها عالجت مشكلة المهاجر ومأساة فلسطين ، ومن قبلهما حرب فيتنام . ليست هذه لغة عربية ؟ من يرفع عنها هذه الصفة ؟ اللغة خصوصا في المسرح ، تشحذ على مبادرة الواقع .. الشعب هو من يصنع اللغة ، حتى في أخطائه « و هفواته » . حتى عندما يكسر اللغة أو يلويها فهو إنما يحييها . أنا ضد الأكاديميات . الأكاديميون هم محفظو اللغات لا محيوها ، لأنهم يدافعون عن لغة لا وجود لها في الحياة . فرنسيتي ، في الرواية على « فصاحتها » مشتغلة هي الأخرى بكلمات الحياة اليومية وبنائها . ولست وحدي في هذا . بل سيقني اليه كثيرون . في مسرحي العمالي ، العمل الجماعي هو القاعدة « (١) » .

ولسنا هنا بصدد التعقيب على رأي الكاتب . لكن ، كما رأينا ، فهو لم يكن له الخيار حين نقله أبوه من مدرسة تعليم القرآن وهو صغير الى المدرسة الفرنسية . فانه عندما أصبح كبيرا وجد نفسه عاجزا تماما عن ايجاد لغة عربية مناسبة للابداع . فاختار اللغة العامية الجزائرية في مسرحياته الأخيرة . ولا شك أن موضوع اللغة معقد تماما للكاتب ، كما كتب عنه كامل زهيري - مجلة الهلال - أكتوبر ١٩٦٥ - « ان أسلوب كاتب ياسين الفرنسي متميز حتى بين الكتاب الفرنسيين ، وهذا ما جعله يصيب شهرة بين القراء وتأثيرا عليهم » .

أما اللغة الجزائرية ، التي يقصدها الكاتب . فهي مزيج غريب بين الفصحى والجزائرية والفرنسية والبربرية . وقد بدأ هذا على سبيل المثال في عنوان مسرحيته « محمد خذ فاليزتك » Mohammed, Prend Ton Valise فمن المعروف أن « فاليزتك » هي إضافة « ك » الملكية الى كلمة Valise الفرنسية التي تعنى حقيبة . وقد حلت الـ « ك » هنا بدلا من الملكية الفرنسية .

جاءت أهمية أن نلقى بعض الضوء على السيرة الذاتية لحياة كاتب ياسين من أنها مرتبطة بأبداعه . خاصة روايته « نجمة » . فلا شك أن حبه لابنة عمه نجمة قد تأصل وجدانيا في أعماقه ، وجعله يتفرغ تسع سنوات كاملة لكتابتها . كأنه يجتر الحروف ، يسترجعها . ويستعيد ما فخرجت الرواية من قطرات دمه . ووجد أنه : رافقتني نجمة في جميع أسفاري . في الدول الأوروبية التي زرتها ، كنت في أواخر

(١) لم أنته بعد من تكوين الجزائر ، حوار جهاد فاضل . اليوم السابع ، ١٢ أبريل

الأربعينات عاملا مهاجرا في باريس . وكنت في نفس الوقت مناضلا في الثورة الجزائرية ، عبر رواية « نجمة » كنت أعمل لأعيش . وكنت أكتب نجمة لاحيا انتفاضة ثوار وطني » .

« لم تكن كتابة « نجمة » Nedjma سهلة أبدا ، أرقنتي طويلا قبل أن تصبح أثرا ناجزا . كنت أمام اختيار صعب . كيف أضع الجزائر في كتاب . الجزائر القوية والحية . الثورة الحاملة . الجزائر التي كان الآخرون لا يعرفون عنها شيئا سوى الاستقلال وسفك دماء ، شبابها . كان على أن أقنع الفرنسيين . بأن الجزائر ، جزائر نجمة ، ليست كما يتوهمون » (١) .

ونجمة هي فتاة جزائرية . يدور من حولها أربعة شباب يحبونها ، ومنهم كاتب ياسين . يحاول كل منهم أن يحبها بأسلوبه الخاص . وقد اتبع الكاتب ، مثلما كتب كامل زهيري . ايقاعين : ايقاع الجمل القصيرة . وصف بها المدن والشوارع والجدران ، والحياة . وجعل هذه الجمل القصيرة محكمة اشد الأحكام لاذعة الملاحظة خارقة الذكاء .

« وايقاع الجمل الطويلة ، يصف بها الشخصيات ، حتى أنك تجد الجملة عنده تتخللها جمل اعتراضية كثيرة يكاد طولها يبتلع صفحة كاملة من الكتاب » .

« وأقدر ما في هذه الجمل تلك الأوصاف أو التشبيهات دون تصنع » (٢) .

« ويرى كامل زهيري في نهاية مقاله عن « نجمة » : « فاذا قرأت « نجمة » كاتب ياسين . فلسوف تأخذك هذه الشاعرية المتدفقة العنيفة التي تتدفق في أوصالها وعروقها لأن قصة نجمة ليست قصة على ورق ، ولكنها قصة حية ، هي قصة الجزائر والجزائريين والشخصية الجزائرية . وقد تأخذك هذه الواقعية السليطة اللسان التي تجرح وتدمى كل مظاهر الحياة تحت الاحتلال . فهي حالة من انفضاض الجزائريين عن الفرنسيين . لا يحبونهم ولا يقبلونهم ويرفضونهم رفضا باتا . ولكنهم إذ يذعنون لهم أحيانا ، فهم يكشفون بعد ذلك عن عواطفهم الحقيقية بهذا الصدام الجسدي العنيف ، وهذه السرقات . وهذا القرار المستمر . وهذه .

(١) نجمة « تجربة لا يستطيع تكرارها » . مجلة الوطن العربي - العدد ٢٥٤ .

(٢) قراءات في الأدب الجزائري - كامل زهيري - مجلة الهلال - أكتوبر ١٩٦٥ .

السجون التي لا تفرغ من استقبال وتوديع ضيوفها حتى من تلاميذ المدارس وعمال المصانع وشغيلة المدن » (١) .

وقد طلت نجمة من جديد في أعماله المسرحية الأخرى مثل ثلاثيته التي تتكون من « الاسلاف يتميزون غيظا » و « مسحوق الذكاء » و « حلقة الثأر » ، هناك مجموعة من الرجال حول نجمة أيضا . منهم الأخضر ومصطفى وحسن وزوج أمه ظاهر . ونجمة حزينة تنشد حبها الضائع وهي تبكي . لقد اختفى حبيبها الأخضر . أما ظاهر فهو عجوز يقف الى جانب الفرنسيين ويستنكر موقف الأخضر ضدهم . وهناك أم الأخضر التي تنتظر عودة ابنها . فتجف يوما وراء يوم ، حتى تصبح عودا يابسا لا حياة فيه . تردد نجمة في أسي : « كل نداءاتي لا أسمع لها جوابا سوى وقع أقدام الجنود الثقيلة ولا أرى حولي سوى الجثث والدماء » . وعندما تعثر عليه بعد إحدى الغارات الفرنسية على الفدائيين لا تلبث أن تفقده مرة أخرى .

وتنضم نجمة الى جيش التحرير مع زميلاتها المجاهدات ، ويأخذ الحب مجراه في وسط المعركة . وإن كان هنا قد غير شكله . ووسط المعركة يتطاحن رجالان من أجل الفوز بقلب نجمة . وينتهي الأمر بأن يقل أحدهما الآخر . وتموت نجمة .

ومادنا بصدد الحديث أيضا عن لغة الكاتب . فأننا نورد مرة أخرى من أحاديث الكاتب عن لغته . فمن المعروف - كما سبقنا الإشارة - أن كاتب ياسين قد حاول في أواخر حياته - مات عام ١٩٨٩ - أن يكتب باللغة العربية . وتعثر كثيرا في التعامل مع الفصحى خاصة في مسرحياته : « أرغب بتصحيح فكرة عنى حول اللغة العربية وهي تتعلق بكوني أفضل مدافع عنها ، أرغب بخدمتها ، لا بقتلها » .

ويتحدث الكاتب في جريدة لوموند أن مسرحية « محمد خذ فاليزتك » قد حققت نجاحا كبيرا عند عرضها في فرنسا حيث شاهدها ٧٠ ألفا من المهاجرين . « كتبت المشهد الأول باللغة الفرنسية . أما الباقي فقد كتبته بلغة العامة . ثمانية عشر شهرا من العمل ليل نهار . ثم عرضت المسرحية في الجزائر طوال خمس سنوات تحت رعاية وزير العمل . وجدت نفسي مع تسعة ممثلين في مسرحيتي . وابتعدنا الى مسافة ٥٥٠ كم من مدينة الجزائر . الى مدينة سيدى بن عباس لم تكن معنا سيارة ، وفشل مشروعنا . كان الصمت يرين حولنا . فهذه مدن لم تعرف التلفاز . ولم يكن من السهل علينا أن نستمر » .

(١) المرجع السابق .

» عندما تصنع مسرحا • خاصة باللهجة العامية • فيجب أن تضع أصابعك في المكان الأصح • هناك هجوم يشن عليك بادعاء أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان نبيا فقط ولم يكن عاملا • لقد منعنا الاخوان المسلمون من التمثيل في الجزائر وهددونا • ومنعونا من التمثيل في عام ١٩٧٧ • ولم نستطع التمثيل •

» عندما تمنع قوى التقدم من التعبير والعمل • فإن المتعصبين يشغلون هذا الفراغ ويحتلون المكان • انه خطر يتولد من هؤلاء الذين يمنعون الناس من ممارسة عملهم • فأولى خطوات للاخوان المسلمين بالمسلمين جاءت من البنات • من طالبات المدينة الجامعية في «بن إكتر» • فلم تكن مصادفة أن تفاضل البنات نحو الأفضل « (١) »

وقد شهدت السنوات الأخيرة من حياة الكاتب تغيرا ملحوظا • ففيما قبل كان يرى أن عليه أن يكتب إلى المهاجرين الذين يعيشون في فرنسا • أو أن يكتب إلى الفرنسيين أنفسهم • ولكن في السنوات الأخيرة بدأ يفكر في الكتابة الابداعية للجزائريين باللغة الفرنسية «هنيالك بعض الأمل أن انشر أعمالى في الجزائر لأننى اذا كتبت كتابا فلكي المس نقطة ساخنة • محددة • كى أضع النقاط فوق الحروف • فإذا نشرت في فرنسا • فهو فشل بالنسبة لى وللجزائر • يجب أن ننظر إلى الجزائر اليوم ، فهناك حالة من تفجر المواهب خاصة في الشعر « (٢) »

وإذا كنا قد القينا بعض الضوء على ياسين كروائى ومسرحى • فائنا قبل أن نختتم الحديث عنه يهمننا أن نقدم بعضا من شعره الذى كتبه في مطلع حياته • ففي عام ١٩٨٧ نشرت دار بندياد كتابا أعدته الباحثة جاكولين أرنو تحت عنوان « العمل مجزأ » تضمن مجموعة من أشعاره نقتطف منها قصيدته المشهورة « صباح الخير » :

صباح الخير يا حياتى
وانت يا ياسى أيضا
هأنذا فى الحفرة
التي ولد فيها شقائى
لك يا نحسى العتيق
أحمل الآن بعض قلب
صباح الخير ، صباح الخير للجميع

(١) Kateb Yacine et ses reculese, le monde, 11-8-1985; p. 12.

(٢) المصدر السابق •

صباح الخير يا أصدقائي القدامى
هأنذا أعود بفنّي
وأجد نفسي وحيداً
أعرف أنه في هذا المساء
سوف نصعد جميعاً للغنى بحماس
مولود معمري :

يعتبر مولود معمري أبرز أبناء الجيل الأول للحركة الأدبية الجزائرية التي كتبت باللغة الفرنسية . ومن أبناء هذه المرحلة كما سبق الإشارة هناك محمد ديب ومولود فرعون ويتسمون بأنهم قد انتموا إلى المدرسة الواقعية التي تهتم بالقاء الأضواء على مشاكل المجتمع الحقيقية التي يعاني منها البسطاء كالتعليم والفقر والطموح والتطلع إلى الأثرياء وكيف يعيشون . ويقول فاروق يوسف اسكندر أنه في « كل أعمال هذه المدرسة الأدبية نلمس رقة الرواية الشاعرية الممتزجة بالعنف . والوعي القومي العميق بتقديس نضال الشعوب . . . والتنديد بالحروب من الزاوية الانسانية . لقد أضافت هذه المدرسة وخاصة أعمال مولود معمري الأدبية التي تقارب في غنائيتها النثرية وصفاتها ونقائنها إلى الأدب الفرنسي المعاصر نغمة جديدة ورعشة أدبية جزائرية جديدة . لقد أغنى أدباء الجزائر - مثل اخوانهم من الروائيين الذين يكتبون بالانجليزية - عن طريق إيقاع لغتهم وموسيقاهم الخاصة ، تلك اللغة الجديدة التي توسلوا بها للتعبير عن ذواتهم وعن بيئتهم الجزائرية التي انطلقوا منها » (١) .

ومولود ولد في قرية تعوريت ميمون التي تنتمي إلى ما يسمى بالقبيلة الكبرى في الثامن والعشرين من ديسمبر ١٩١٧ وذلك في أسرة غنية . فتلقى تعليمه في مدرسة القرية . عندما بلغ الحادية عشرة سافر إلى مدينة الرباط عند عمه . ودخل مدرسة اليسيه جورو . ثم عاد إلى الجزائر بعد أربع سنوات واستكمل دراسته . ثم سافر إلى باريس كي يكمل دراسته من جديد في مدرسة لوى لوجران . وفي عام ١٩٤٠ التحق بكلية الآداب بالجزائر . ثم شارك في الفرقة الأجنبية التي كانت تضم ايطاليين وفرنسيين وألماناً ووجد نفسه مساقاً إلى الجبهة في أثناء الحرب العالمية الثانية . وبعد الحرب عمل مدرساً للأدب في الجزائر . وفي بعض المدن القريبة من العاصمة . ثم سافر

(١) مولود معمري وصراع الجيلين . فاروق يوسف اسكندر ، مجلة الفكر المعاصر . يناير ١٩٦٨ ، ص ٨٦ .

للاقامة فى المغرب حتى عام ١٩٥٧ . وعاد اليها مرة أخرى ليعمل
مدرسا فى جامعة الجزائر . ثم مديرا لمركز الأبحاث الانثروبولوجية حتى
عام ١٩٨٠ .

نشر مولود روايته الأولى « التل المنسى » la colline oubliée
عام ١٩٥٢ . ثم جاءت روايته الثانية « نوم الرجل العادل » le sommeil
du juste عام ١٩٥٥ . وبعد عشر سنوات جاءت روايته الثالثة
« الأفيون والعصا » l'opium et le baton وفى عام ١٩٧٣
نشر كتابا تحت عنوان « موظف البنك » Le banquier يتضمن
مجموعة من المسرحيات والمقالات . كما نشر كتابا عن قواعد اللغة
البربرية عام ١٩٧٦ . وفى السبعينات شهد نشاطا متعلقا بالثقافة
البربرية - كما يسميها - مثل كتاب « ماشاهو » Machaho الذى
يتضمن مجموعة من القصص البربرية . كما نشر ديوان شعر يحمل
اسم « اشعار قبيلة » عام ١٩٨٠ ، ولم يعد مولود معمري الى الرواية
سوى فى عام ١٩٨٢ من خلال « العابرة » .

وجميع كتابات مولود معمري منشورة باللغة الفرنسية . ومطبوعة
فى فرنسا . وتدور أغلب حوادث رواياته فى القرى والريف بالجزائر .
مثل روايته الأولى « التل المنسى » التى تدور أحداثها فى إحدى قبائل
البربر . وفى هذه القرية عاش قبل سنوات الحرب العالمية الثانية مجموعة
من الجزائريين البربر فى عزلة عن العالم من حولهم . لا يكادون يعرفون
شيئا عما يحدث فى العالم . وهذا النوع من الحياة يجعل أبناءه يمشون
على وتيرة واحدة . وإيقاعهم غالبا ما يكون ساكنا . ولا جديد فيه .
لذا ، فإن البطالة تنتشر والناس يتسمون بخمول ملحوظ .

وعنما تندلع الحرب ، تنكسر العزلة ، ويجد أبناء القبيلة - مثلما
سيحدث بعد ذلك فى رواية لرشيد ميمونى - أن عليهم أن يغيروا من
إيقاعهم ، فالمآسى لا تجيء فرادى ، حيث أن الحرب تأتى حاملة معها
الكوارث . ونحن نرى هنا جيلين مختلفين يعيشان فى القرية . الجيل
الأول عتيق . وتقليدى فى أفكاره . واعتاد على العزلة . وهو راض بما
قسمته لهم السماء . لذا فهو مؤمن أشد الإيمان بالقضاء والقدر .
أما الجيل الجديد فهو الذى ظهر مع الحرب . وكسر العزلة . وهذا
الجيل احتك بالواقدين مع الحرب . ويعرف أن هناك نوعا آخر من
الحياة . لذا يتولد لديه التمرد . ولكل من أبناء هذا الجيل أفكاره وتطلعاته .
فالمعلم « مدور » الذى تخرج من مدرسة المعلمين يتطلع نحو مستقبل
آخر . ويواجه الأفكار التقليدية لمجتمعه ويحاول أن يتمرد عليها .
وهناك حوار بين شخصين فى الرواية حين يسأل أحدهما الآخر :

— هل أنت في السجن ؟

فيرد الآخر : أنا في الجزائر . ف كلا الحاملين سواء !!

ويقول فاروق يوسف اسكندر : « ان قرية تاسكا التي تجرى فيها حوادث الرواية في جبال البربر — حجرة صغيرة ضمن السجن الكبير تبدو فيها الحقيقة الاستعمارية في شكلها السافر ووضعها الأليم ، كما تبدو الحقيقة الإنسانية في حالات الكآبة والقلق النفسى والنضال : المال والخضوع لوطاة العادات القبلية والتقاليد . فالقرية مع صغر حجمها الجغرافى وبعدها عن حياة المدينة تعج بالحيوية والمفاجآت ، وتناجر الشخصيات . وفى طريقة مؤثرة تحمل القارئ على الاستجابة العاطفية السريعة بالمشاركة الوجدانية مع الحوادث . والصدقة العميقة مع أبطال الرواية » .

ولا أحد يعرف أيهما أفضل . هل العزلة حيث يكون السكون والوتيرة الواحدة . الصفاء الدائم أم الحرب وما تآتى به من عذاب ودمار . ففي الحرب تعاني القرية من صنوف الحرمان أضعاف ما كانت تعانيه قبل زمن كسر العزلة . ففي الحرب زادت المجاعات . ويمكن لشخص يحمل بعض الطعام الى أسرته أن يفاجأ بشخص آخر يرفع عليه بندقيته ويستأذنه أن يقتسم معه بعض الطعام الذى معه » .

« فالموضوع الجوهرى فى كل هذه الأعمال هو المواجهة بين المجتمع التقليدى والنظام الاستعمارى . وتتجسد هذه المواجهة فى قصة بضعة مصائر فردية بطبيعة الحال . فى التفاصيل كل التنوع الذى يعزى الى اختلاف طبائع الكتاب وحساسيتهم . أو يعزى الى اللبس والغموض الذى يقوم فى الحياة نفسها ولكننا لا نستطيع القول ان أساس التخطيط الأدبى للقصة ، عند هؤلاء الكتاب جميعا ، أساس واحد . ويمكن أن نرجعه الى تسلسل زمنى » (١) .

وتجىء أهمية روايات مولود معمري من أنها روايات سياسية فى المقام الأول . ليس فقط لأنها تقف ضد الاستعمار . بل لأنها تهاجم الأفسكار الغربية التى يعتقدها أبناء القرية فى روايته « القبل المنسى » ازاء الكارثة التى أصابتهم فهم يتصورون أن هذا البلاء ما هو الا غضب من أولياء الله . وبدلاً من الخروج من المأساة زادت نسبة التقاليد البالية . ولم يعد أحد يسير على هدى الله الحقيقى . فزاد ضلالهم . ويقول فاروق يوسف اسكندر ان شياب هذه الرواية « يسخر من الشيخ ومن التقاليد

(١) المصدر السابق .

وعالم الغيبيات والقضاء والقدر . ولكن أخذاً منهم لا يقدم حلاً لمشكلات قومه . . انهم يعلنون السخط والثورة تملأ قلوبهم ولكنهم لا يقدمون حلولاً « جيل ضائع » وهو عميقة تفصل بين الجيلين : القديم والجديد . . ولوحات أجيد صنعها تجمع بين زوغة الفن التصويري والوثيقة الاجتماعية . . والوصف البارع للتدبير بالخروب من الناحية الانسانية فى أسلوب يمتزج بالعنف والشاعرية (١) .

وفى رواية « الأفيون والعصا » تدور الأحداث أثناء حرب الاستقلال من خلال اخذى القرى البربرية التى شهدت بعض وقائع هذه الحرب . ونمو الوعي لدى طبيب كان من المصابين باللامبالاة . فالدكتور بشير الأزرق يترك حياة الترف فى الجزائر العاصمة متوجهاً نحو الجبل حيث توجد قرية « تاله » مسقط رأسه التى تعيش فى حالة حرب . انها دائماً نفس القرية التى تحاصرها الجبال ولكن هذه القرية غير سلبية . فهى تشترك فى حرب التحرير لدرجة أنها تبادت تماماً فى هذه الحرب .

« مشاعر نفسية مضطربة مؤلمة كانت الحرب تثقل بوطأتها على الأشياء فتجعلها أكثر اختصاراً وأكثر كآبة . حتى اذا انتهت الحرب . وعاد من الشبان من كتبت لهم السلامة . راحوا يحملون سخطهم وقلقهم على مستقبلهم . فعادوا الى الهجرة الى أوروبا بحثاً عن لقمة العيش . ففرغت الأسواق من صخبهم القوى العنيف ، ولم يعودوا يتريضون للفتيات حينما كن يرحن ويجنئن فى الماضى يفرغن جراحهن فى أوعية مثقوبة ولما حرمت العين والدروب من ضحكات الفتيات وعبثهن أضحت كئيبة هادئة كحكاية الشنيوخ » (٢) .

والجدير بالذكر أن معمري كان مهتماً كثيراً ، كباحث ، بدراسة ظاهرة الأدب المكتوب باللغة الفرنسية . وهو يرى أن هذا الأدب قد أسهم اسهاماً عظيماً فى قضية التضرر الأفريقى ، وله وجه نظر غربية فى هذا المضمار حين قال ان اللغة المستخدمة فى ذلك الأدب كانت لغة المستعمرين « حتى يمكن منازلة النظام الاستعماري فى ميدانه ، وان كانت قد وجدت ، مع ذلك بضع صحف باللغة العربية تنجى الى عدد محدود نسبيًا من القراء . ولكن الجمهور الذى كانت تصنله هذه الصحف ، فى الواقع ، كان جمهوراً أكبر بكثير من جمهور القراء ، بل كان يمتد حقيقة الى الشعب المغربى كله . فقد كان أولئك الذين يعرفون القراءة

(١) مولود معمري وصراع الجيلين . فاروق يوسف أسكتدر . الفكر المعاصر - العدد ٢٥ - من ٨٨ .

(٢) المرجع السابق ، من ٨٧ .

يشرحون الأمور لمن لا يعرفون وعلى أسلوب الارتشاح الغذائى . ان صحت هذه العبارة . كان الناس جميعا ينتهون الى المشاركة فى تلقى الأخبار . بل فى تلقى المذاهب الفكرية والسياسية ، (١) .

وقد تعامل معمري مع الأدب على أنه موجه أساسا الى جمهور مختلف عن الجمهور الذى يعبر عنه وموجه اليه . وكأن الأدب بمثابة سلاح دعائى لمناهضة الاستعمار . او منشور كى يعرض على أبناء الوطن الاستعمارى ما يرتكبه الأبناء من بشائع فى المستعمرات .

ويرى مولود معمري فى مقاله عن الأدب الأفريقى باللغة الفرنسية ان أعمال المبدعين من الجيل الأول فى الجزائر قد تركزت أساسا حول حركات التحرر .

محمد ديب :

لا يكاد يمر عام ، الا ويفوز أحد الأدباء العرب الذين يكتبون بالفرنسية بجائزة أدبية كبرى فى فرنسا . ومنذ عام ١٩٨٦ وحتى الآن أقيمت الأضواء حول أدباء عرب ينتمون الى جيلين فازوا بجائزة الاكاديمية الفرنسية للناطقين باللغة الفرنسية ، او الى أدباء شباب تجاوزوا الأربعين بسنوات قليلة مثل الطاهر بن جلون وأمين معلوف .

أما جائزة الاكاديمية فهى بمثابة تقدير لأدباء من طراز كاتب ياسين ، والبير قصيرى ، ومحمد ديب الذى كان آخر الفائزين بها عام ١٩٩٤ ، وهى جائزة عالمية ، تبلغ قيمتها نصف القيمة التى تمنح للفائز بجائزة نوبل .

ومحمد ديب المولود فى ٢١ يوليو عام ١٩٢٠ فى مدينة تلمسان ، هو روائى ، وشاعر ، وكاتب مقال ، وله مسرحية واحدة ، ومجموعة من كتب الأطفال . وقد درس ديب فى مدينته ، وقرض الشعر وهو فى الرابعة عشرة من عمره . ورغم أن أباه كان موسيقيا بارعا ، فان الصغير لم يتلق منه أى تعليم ، حيث توفى الأب فى سن مبكرة . وتولت أمه مسئولية ابنائها الأربعة . وهذه الأم ستكون الشخصية الرئيسية فى ثلاثيته الشهيرة التى بدأ نشرها فى عام ١٩٥٢ .

(١) الأدب الأفريقى باللغة الفرنسية مولود معمري - الأدب الأفريقى الاسوعى -

وقد حمل ديب المسئولية الأسرية وهو صغير السن . فمارس العديد من المهن ، كعامل نسيج ، ومدرس ، ثم عمل صحفيا بجريدة « الجزائر جمهورية » . بين عامي ١٩٤٩ و ١٩٥١ ، ومارس العمل النقابي ، وفي عام ١٩٤٦ بدأ ينشر قصائده ، ومقالاته . وقد أثرت مهنته كعامل نسيج . في ابداعه الشعري والروائي ، فهو يتعامل مع الكلمة باعتبارها خيطا يمكن غزله مع كلمات أخرى ليصنع جملة أدبية ، أو عملا ابداعيا متميزا ، ولذا فقد راح يعايش شخصيته المتخيلة « عمر » قرابة اربعة عشر عاما . حتى انتهى من تأليف الثلاثية وربما لسنوات طويلة بعد ذلك .

في عام ١٩٤٨ ، زار محمد ديب فرنسا لأول مرة من خلال وفد أدباء جزائريين . وبعد ثلاث سنوات تزوج من زوجته الفرنسية . وسافر الى فرنسا عام ١٩٥٢ كي يحضر صدور روايته الأولى « المنزل الكبير » . وأقام هناك حتى عام ١٩٥٤ حيث نشر الجزء الثاني تحت عنوان « الحريق » وفي عام ١٩٥٧ نشر مجموعته القصصية « في المقهى » . ثم نشر الجزء الثالث والأخير من الثلاثية عام ١٩٥٧ تحت عنوان « النول » . وفي عام ١٩٥٩ تم طرده من الجزائر لمواقفه المناهضة للاحتلال الفرنسي فاختار أن يقبم في منطقة جبال الألب . وفي نفس السنة نشر أول كتاب للأطفال تحت عنوان « بابا فكران » ، وروايته « صيف أفريقي » .

وبداية من عقد الستينات ، عرف محمد ديب الرحيل بلا توقف . فسافر أولا الى دول المعسكر الشرقي ثم استقر في المغرب بضع سنوات ، وفي السبعينات اقام بالولايات المتحدة من أجللقاء محاضرات في جامعة كاليفورنيا . وفي عام ١٩٧٥ سافر الى فنلندا ، ثم عاد ثانية الى الولايات المتحدة ، وعاد من جديد الى فنلندا .

ومع بداية الستينات أيضا تحول ديب الى الشعر فنشر ديوانه الأول « الظل الحارس » ، أما ديوانه التالي فقد نشره عام ١٩٧٥ تحت عنوان « تشكيلات » . ثم جاء ديوانه الثالث « أومنيروس » عام ١٩٧٥ . و « نيران جميلة » عام ١٩٧٩ و « ايتها الحياة » ١٩٨٧ . أما رواياته فكان يكتبها بشكل منتظم ، ولم يتوقف أبدا عن كتابة الجديد منها . ولم يقف عند نجاح ثلاثيته التي ترجمها الدكتور سامي الدروبي الى اللغة العربية ، ونشرت في روايات الهلال عام ١٩٧٠ . ففي عام ١٩٦٢ نشر ديب روايته « من يذكر البحر » ، وبعد سنتين جاءت روايته « الجري فوق الشاطئ البري » ، وفي عام ١٩٦٨ جاءت « رقصة الملك » ، وبعد عامين صدرت روايته « الله عند البربر » . ثم نشر « سيد الصيد » عام ١٩٧٣ . و « هاييل » عام ١٩٧٧ . وفي عام ١٩٨٥ نشر « شرفات اورسول » .

محمد ديب

ومن أشهر المجموعات القصصية لمحمد ديب « الطلسم » عام ١٩٦٦
أما مسرحيته الوحيدة ، « ألف صرخة لامرأة محاربة » فقد نشرت عام ١٩٨٠ .

ورغم كل هذا الابداع الغزير في حياة كاتب لم يتوقف عن الرحيل ،
فانه عندما يذكر اسم محمد ديب نذكر على التو ثلاثيته الشهيرة ، ولا يسكن
الوقوف عند هذا العمل الابداعي دون أن نذكر المصادر التي تأثر بها
الكاتب ، فلا شك أننا أمام سيرة أقرب الى تجربة الروائي ، حياته التي
عاشتها أسرته ، فهناك الكثير من التشابه بين تجربة الكاتب ، وبين عمر
الشخصية الرئيسية في الرواية .

ويقول الكاتب حول تجربة تأليف الجزء الأول من هذه الثلاثية :
« رحت أنظر حولى » وبدأت أكتب قصصا درامية منمنمة ، وشيئا فشيئا
بدأت أستجمع كتابي الأول « المنزل الكبير » الذي كتبتسه على الأقل في
خمس أو ست سنوات قبل نشره في عام ١٩٥٢ . وقد وضعته جانبا لأن
الأدباء الجزائريين الشباب في تلك الآونة كانوا يرون استحالة نشر
الكتب » .

وهذا الجزء الأول من الثلاثية مكتوب قبل أن تندلع ثورة الجزائر
وتدور أحداثه عام ١٩٣٩ . من خلال أسرة بسيطة . وعمر ابن هذه
الأسرة يلتقى بأطفال أشقى منه ، أطفال كأنهم الجراد من فرط هزالهم
ونحولهم . ملابسهم لا تعدو أن تكون خرقا مجمعة ، أما أقدامهم
فتحميها نعال من جلود الشياه مربوطة بحبال من الحلفاء . وربما ركضوا
حفاة بغير شيء في الأقدام أكثر الأحيان . ان أعينهم الكبيرة التي يمتزج
في حدقتها الأشهب والأخضر تخلق حلقة غريبة في هذه الاراضي الجديدة
التي تركت لهم . أما ما يلوح فيهم من جد وصرامة فقد بدا لعمر شيئا
غريبا عجيبا . ألعابهم ليست هي الألعاب المألوفة عند أطفال تلمسان .
الحيوانات هي رفاقهم . لا رفاق لهم سواها . وهم مغلقون ، يحسبون
الضمت ، ويحتقرون كل ما ليس من الريف » (١) .

وهؤلاء الأطفال الذين يمثلهم عمر ، يبدون مبكرين في نموهم كما
يرى محمد ديب ، واحساسهم بالشقاء يلعب في أعينهم . ولذا فان عمر
يشعر بينهم انه طفل صغير ، وهم يسببون له الرعب باندفاعهم العارم
الذي يظهر فيهم عند ملاحقة هدف من الأهداف ، مثل قتل الطيور ، أو
قيادة القطعان ، أو تحدى الفرنسيين .

(١) محمد ديب ، التحريق ، ترجمة سامي الدروبي ، روايات الهلال ، نوفمبر ١٩٧٠ .

وعمر لديه من المعلومات ما يفوق هؤلاء الرفاق ، فهو يؤك لهم ان الأرض كروية • وان الشمس ثابتة ، وانهم هم الأطفال ، يدورون حولها مع الأرض • كما انه يتكلم اللغة الفرنسية ، ويجيد العمليات الحسابية • لذا فانه يبدو طفلا غير مألوف أمام الآخرين ، حتى الكبار •

ورغم تميز عمر ، فانه طفل يتييم ، يعرف معنى الجوع الحقيقي والدار بالنسبة له دار جوع ، وحاجة الى الطعام ، ولذا فان حجارة هذه البيت افضل لأنها لا تجوع مثل ساكنيها • وهنا يتساءل عمر :

... لماذا نحن فقراء ؟ هل صحيح ان هذه قسمتنا وان لا أحد يعلم ؟ لكن هناك اغنياء •

وهو يلتقي هؤلاء الاغنياء ممثلين في بعض زملائه بالفصيل • ولذا فهو يرفض ان يسرق ، او يتسول ، ووسط هذا الفقر الشديد ، والحاجة فان عمر يحس بالاعجاب الشديد بالمناضل حميد سراج ، فهو يريد ان على المستعمر ان ينتهى • ولذا فان عمر يثق به • ولا يتردد ان ييروح له بكافة مكنوناته • كما ان هناك شخصا آخر يثق بعمر في كلماته ، هو العجوز « بن سارى » •

وعندما يكبر عمر في رواية « الحريق » يكتشف الأسباب التي تدفع مجتمعة للشعور بالخزي ، وهى الاستعمار والاوروبيون • « انه يعرف الآن أين تبدأ الأشياء وعلى وجه الدقة ، يعرف الآن أين يقع ذلك الخط الذى بعده لا يجوع الانسان ، والذى قبله يشعر بحرقه فى دمه وبشدة لا تفارقه • ذلك الخط انما ترسمه وتغطيه فى آن واحد امواج المزارع ، وأوراق الشجر ، ونبضات الينابيع ، وسمط المراعى » •

وتدور وقائع الثلاثية بين صيف عام ١٩٣٩ ، وشهر نوفمبر ١٩٤٢ • وهى فترة ساخنة من حياة الشعب الجزائرى ، فهى الفترة التى بدأ فيها حزب الشعب الجزائرى يمارس انشطته السياسية ، بعد ان تأسس عام ١٩٣٧ • كما انها فترة الحرب العالمية الثانية التى اوقعت بفرنسا تحت الاحتلال النازى • وتبقى الدار الكبيرة شاهدة على عصره ووصله • انها دار عتيقة ، وكبيرة • انها تبدو احيانا اقرب الى سجن كبير • ويطلق عليها الكاتب اسم « دار مسبيطار » او المستشفى حسب ترجمتها من اللغة البربرية •

« هذه الحياة ، هذه الأرض ، كان لا يعرفهما عمر الا قليلا ، وذلك منذ كشف له عنهما ذلك الرجل الذى يسمى كومنذار ، والى هذا الرجل انصرف ذهن الصبى حين وصل هذه المرة ، متسائلا عما حل به ، ولولا ان الخسق قد شمل الأرض لهرع الى حيث يقوم كوخه » •

وأم عمر المسماة « عيني » هي أرملة لنجار • وهي تتولى مسئوليات معقدة لأسرة ، فهي امرأة ، وأم ، وعاملة ، وربة أسرة ، فهي مضطرة الى العمل كي توفر الخبز لأبنائها الأربعة : عيوشة ومريم ، وجيلالي ، وعمر ، وقد مات جيلالي من المرض مثل أبيه ، وبعد عامين من رحيله ، يبدو الحمل ثقيلًا عليها ، فرغم الآلام ، فإن عليها أن ترعى أمها • ولذا ، فإن الشيخوخة تبدو على ملامحها قبل الأوان • كما أنها تبدو حازمة ، بل وقاسية مع أبنائها •

وتعيش « عيني » وسط جو اجتماعي مشابه ، فكم من الجارات أرامل مثلها ، مثل « يمنة » و « زينة » وهناك فتاة على وشك الزواج هي « زهر » ، و « عتيقة » التي تصاب بحالات من الجنون • كما أن هناك العجائز ، وبنات العم اللاتي يجئن من وقت لآخر للزيارة •

ويروى ديب في الجزء الثاني من الثلاثية كيف وصل رجال المستعمر الى القرية ، ووضعوا قوانينهم لانتزاع بعض الأراضي من الفلاحين ، وتحويلهم الى أجراء لديهم • ويشتعل في القرية حريق كان وراءه «كارا على» أحد اتباع السلطة ، ويكون هذا الحدث فرصة للاحتجاج من أجل القبض على العناصر النشطة من الفلاحين • لقد شب حريق ، ولن ينطفئ أبدا • سيظل هذا الحريق يزحف في عماية • خفيا مستترا • ولن ينقطع لهيبه الدامي الا بعد أن يغرق البلاد بلالائه •

وكان هذا الحادث سببا في أن يتنبه عمر أن الجزائر أرض غنية بثرواتها • ويجد نفسه يسرق لأول مرة من أصحاب الثروة • وتتغير الحياة بعد أن تفشل الأم في اجتياز الحدود نحو المغرب ، وذلك بسبب الحرب • ويتم القبض على الفلاحين المناضلين •

ويدور الجزء الثالث من الرواية في يناير عام ١٩٤٢ • فقد أصاب القرية كساد اقتصادي بسبب الحرب ، مما يدفع بعمر أن يعمل في ورشة نسيج • انها ورشة ترجع الى القرون الوسطى ، والناس فيها يمارسون أعمالا قديمة منذ سنوات • وصاحب العمل ماحي بوعنان يحتقر عماله ، وهو يعرف أنهم لا يحبونه • ويعيش عمر في حالة من الملل • ويسمع زميله عباس يردد في حالة جنون استبدت به : « وجودنا ضيق في هذا العالم » بما يثير الصخب من حول الأثرياء • فيرد شخص : هؤلاء الناس ليسوا حشرات • انما الحشرات من صيروهم الى هذه الحال • وهم يعيشون على أجسامنا •

وفي « النول » نرى عددا أكبر من الشخصيات الجديدة التي لم يسبق لعمر أن قابل مثلها في حياته الضيقة في داره الكبيرة • فهناك سكاالي ،

ولامين ، وشول ، وحمرا ، وعكاشة ، وحمروش ولكل منهم حكايته ، وعالمه ويسعون لكسب أرزاقهم .

وتنتهى الرواية نهاية مفتوحة ، كأنما أراد الكاتب أن يقدم جزءا رابعا لها ، فها هو عمر يشاهد أحد الجنود الفرنسيين فى الظلام ، عندما كان يستحم فى النهر الصغير ، فيحييه ، ويتناول منه قطعة شيكولاته «كانت نظراته تنتقل من شيء إلى شيء آخر ، وكان فى وجهه تعبير عن جديد يوشك أن يكون قاسيا عنيفا » . وبالفعل فقد كان فى ذهن الكاتب أن يفعل ذلك لكنه أثر أن يبدأ ثلاثية جديدة بدأت مع روايته « الله عند البربر » . . واستكملها فى « سيد الصيد » لكنه لم يستطع استكمال هذه الثلاثية ، ففى عام ١٩٧٧ ، كتب رواية جديدة هى « هابيل » حول موضوع الهجرة . فهابيل رجل يجر عربة فى مدينة غريبة ، يعيش حالة من التوهان .

وفى هذه المدينة يكشف بطل الرواية الخبائث ، فقد طرده أخوه من بلاده . وكان عليه أن يبحث لنفسه عن اسم ، وان يفكر فيما فعله قابيل مع أخيه ، وطوال سبعة أيام كان على هابيل أن ينتظر الموت وينتظر سيارة كى تدمسه ، أو شخصا كى يقتله . حتى يتعرف على سابين وهى ابنة كاتب مشهور يلقب باسم « العجوز » ، لكن انتحار الفتاة المفاجيء يثير دهشته ، ويحاول أن ينساها بأن يتعرف على فتاة مخبولة تدعى ليلى . فقرر أن يتبعها الى المصحة العقلية .

والاسم الحقيقى لهابيل فى هذه الرواية هو اسماعيل . ويقول الكاتب جان ديجو فى كتابه عن « الأدب المغاربى » الناطق بالفرنسية « أن محمد ديب قد كتب رواية سياسية وهو يعطى لأسماء أبطاله معنى . فبطله مهاجر مثل بطل رواية « الغريب » لكامى . ولقد هاجر هابيل بسبب أخيه « ذلك الأخ الذى يحكم بلاده . انه اخ حقيقى ما لبث أن اصبح شقيقا روحانيا . انه أشبه بأية حكومة فى أى مكان » .

أما آخر رواية نشرها محمد ديب فتحمل عنوان « شرفات أورسول » وذلك فى عام ١٩٨٥ وهناك تشابه ما بين بطل الرواية عيد وبين هابيل ، فهو محكوم عليه أن يغادر بلاده فى مهمة رسمية الى بلد فى الشمال أطلق عليه اسم أورسول . وعاصمة هذه الدولة هى ياربر . انهسا بلاد الشمس التى تسطع فى منتصف الليل ، ومن الواضح أن محمد ديب قد حاول أن يكتب رواية عن فنلندا التى عاش فيها سنوات طويلة . ويقوم البطل بارسال تقارير الى حكومته ، ولكن أحدا لا يقرأ تلك التقارير . وكثيرا ما يتجاهل الدبلوماسيون انجازاته . وذات يوم ، وبينما هو يقوم بنزهة عند الشاطئ ، يكتشف حفرة مليئة بمخلوقات خيالية تطلق

صرخات حادة • ولا يعرف ماذا حدث بالضبط له منذ تلك اللحظة ، فهو مدفوع نحو الشمال أكثر فأكثر ، يخرق الجُرر ، والليل الملىء ببيتاض الثلوج ، ويتعرف على امرأة تدعى آيل • ولكنه ما يلبث أن يفقدها • ومع ذلك لا يتوقف عن الرحيل •

ويقول الكاتب جان ديجمو ان هذه الرواية الجميلة ، تبدو غريبة ، ومزعجة في اضاء الكاتب المزيعة ، وفي اجوائه المعبقة بالموت والجنون ، وتعطى الاحساس ان محمد ديب قد وصل الى نقطة من المنفى الأبدى • أكثر من إقرانه من الكتاب المغاربة • ويبدو ذلك في الطريقة التي ينطق بها بطل الرواية لفظ « الجلالة » • فالكاتب يعطى البلد اسما خياليا يعنى الشمس باللغة الفنلندية • وهناك علاقة خاصة بين الرواية وبين بلاده • انها علاقة روحية تعكس عالم ديب •

والتشابه واضح بين عيد وبين هابيل ، فكلاهما في حالة هجرة ، والنساء اللاتي تقابل كلا منهما مصيرهن الموت في حوادث غامضة ، فـ « آيل » • • تموت بعد ان تصدمها دراجة بخارية • وتترك حبيبها بعد تعارف قصير في حالة من الحزن ، والتساؤل : لماذا ؟

كان آخر كتاب نشره محمد ديب هو ديوان شعر في عام ١٩٨٧ • • يحمل عنوان « أيتها الحياة » وقد ضمنه مجموعة من قصائده الجديدة وقد توقف الكاتب بعد ذلك عن الكتابة دون سبب واضح • • ومن المهم ان نشير الى ان لغة الكاتب الشعرية قد تغيرت ، فبعد قصائده الطويلة ، فان قصائده الجديدة قصيرة للغاية ، ومن هذه الأمثلة :

وقال البحر

الوجه

لاهث

والتقاعد كبير

بين الشباطين

وأخبر الأجنحة

البيضاء

ويتكلم محمد ديب عن تجربة قصائده المنشورة في ديوان « تكوينات » أنه أحس بأن كتابة النثر قد سدت عليه الطريق ، فأصابه الإرهاق ولم يحس بأية قوة كي يعاود الكتابة مرة أخرى . . . لذا ، كان الشعر هو ملجأه ومرفأه الذي يرسو عنده . وقد جاء هذا الديوان مزيجاً بين الشعر المنثور والنثر . وجاؤل فيه محمد ديب أن يتخلى عن كل قيود الكتابة .

وتنتمى قصيدته « صيف » المنشورة في ديوانه « الظلال الحارسة » الى هذا النوع من الابداع الذي سعى فيه الكاتب للتخلص من كافة القيود التي تقيد كشاعر . وقد اخترنا هذه القصيدة كنموذج واضح من ابداع محمد ديب الشعرى حيث يقول :

جسده حالم تحت ضياء

الصيف كسفينة آدمية بين رايات الحرب

وهذا الشاب :

ينتفك عطشه الابدى فى الرغبة

وصمت الموت الذى يتوجه

أما قصيدته « أوجه الليل » المنشورة فى نفس الديوان ، فهى تنتمى أيضا الى نفس اللون من الشعر الذى يكتبه محمد ديب . وفيها يقول :

(١) ،

تعود الجموع دائما الى شكلها الأولى

ودائما فى الليل .

وجبوه ضامرة

تكشفها أضواء القطارات الطويلة المتقابلة .

هناك دوما السيارات ، ونداءات باعة الصحف
كانها تعيد ضبط العالم الغريب بالندم
وهكذا ترتطم الجدران عند اعتاب الموت •
وفنادق الحب تروى مشاعلها

★★★

أشدد الراحه
وتفتح المدينة دائما ابوابها كي تقسودنى
الى الدروب التى يهرب فيها الظل الذى خلقنا منه
انا جى نظرة النجوم الساكنة
واطير فوق الشارع واضواء النيون
آه •• لا شيء يتبعنى ، فالمدينة غير موجودة •

★★★

(٢)

امشى فى المدينة احفر المرايا العاكسة
حيث تتتابع الرصفان ، والمفتريات ، والدروب ،
والعواميد والجدران الملطخة بالاعلانات ، وكأنها عارية ،
واشجار سامقة تخرج من اقفاصها الحديدية

★★★

ضائع وكاننى فى عالم ليست فيه معاناه
واتطلع للحظة الى اقواس المصابيح

حيث يحلق الضوء الأخضر الغامض فوق الحدائق
ثم يرحل من جديد ٠٠ حتى ينقشع الفجر فنسمع وقع أقدامنا

★★★

فى كل ركن ٠٠ المكان شديد الظلمة ، تملؤه الأضواء المبهرة
والعيون المغلقة ، تتجول أمامها دون أن نعرف
انه تحت المدينة النائمة ينبض قلب يهدوء ٠

★★★

وتنسال نافورة فى اعماق الميدان المظلم
أيها الليل ، أيها الليل الطيب ، استقبل الظلام المسكين
فالسهران قد غمرته السكره والدوران ٠

هذه القصيدة « أوجه الليل » كتبها الشاعر محمد ديب فى أوائل
الستينيات ، ثم نشرها فى ديوانه الأول « الظلال الحارسة » عام ١٩٦١ ٠
وهو نفس الديوان الذى أعاد نشره مضافا اليه قصائد جديدة فى عام
١٩٨٤ ٠ وفى هذه القصائد بدا الشاعر على علاقة توحد كامل مع الطبيعة
٠٠ خاصة فصولها ، وأيامها ، وإليائها ، فعناوين قصائده هى عن الربيع ،
والشتاء ، والليل ، والظلام ، والضياء ، والظلال ٠ ولذا ، فليس من الغريب
أن نرى هذه المفردات تتكرر داخل القصيدة الواحدة فى أى من هذه
القصائد ، وبذلك فإن للشاعر مفرداته اللغوية الخاصة به ، وهو
لا يجددها ، بل يكررها ٠ والشاعر موجود فى هذه القصائد يتجول فى
الشوارع ، ويرقب أضواء النيون ، ويمشى الى جوار السيارات ، وهو
وحيد ، يتحدث الى نفسه يقرض الجديد من الشعر ٠ ويحس بتوحد خاص ،
رغم شعور الغربة الواضح ، مع كل ما حوله من بشر ، وأشياء ٠ بل أن
هذه الأشياء تبدو أكثر التصاقا به فى قصائده من البشر ٠

وفى قصيدة « صيف » يمكن أن نلاحظ عالم محمد ديب الشعري ٠
فهى تعد نموذجا واضحا لكافة إبداعاته الشعرية ٠ أن لم نقل أن أغلب
هذه القصائد تكاد تكون نسخا كربونية ، أو سلسلة متكررة من نفس
المشاعر ٠ الاحساس بالغربة ، والعزلة ، ولعل كثرة ترحال الشاعر ،
« وسفرياته » التى لا تنتهى كانت سببا أساسيا لاحتساسه بهذا العالم ٠

وإذا بدأنا بمفردات الشاعر فسوف نرى أن محمد ديب ينظر الى المدينة من الخارج باعتباره ضيفا عليها ، رغم أنه لم يشر هنا بشكل واضح الى المدينة وأبعادها ، وهويتها ، فان مفرداته هنا تؤكد على غريته . فالآخرون بالنسبة له مجرد « وجوه ضامرة » ، يعود أصحابها الى أشكالهم البدائية التي كانت عليها قى بداية التاريخ . وهى أيضا وجوه لا تظهر للرأى الا من خلال ما تعكسه أضواء القطارات التى تندفع فى أروقتها .

وما يؤكد من مفردات الشاعر أنه غريب عن هذه المدينة حديثه عنها من خلال « فنادق الحب » و « أبواب المدينة » . ثم تلك الأشياء الموجودة فى كل المدن الأخرى . ولا تميز واحدة منها عن الأخرى مثل الرصقان ، ومفترقات الطرق ، والدروب ، وأعمدة النور ، والجدران التى لطختها الاعلانات والأشجار السامقة . والحدائق التى تحلق فوقها أضواء النيون الخضراء .

هذه الأشياء كلها تساعد الشاعر على زيادة الاحساس بالضياع . لذا فان محمد ديب يكرر استخدام نفس المفردات ، ليس بين القصائد وبعضها البعض ، بل أيضا فى داخل نفس القصيدة . مثل كلمة « الليل » ، و « الظل » ، و « الدروب » ، و « الأضواء » . بل وكلمة المدينة نفسها ، كأنما الشاعر يؤكد أنه سجين لها .

والمدينة كما يصفها الشاعر هنا نائمة ينبض قلبها بهدوء شديد . وهى تخلو من حركة الا من قطارات عابرة ، ورجل يمشى وحده بين دروبها يحقر داخل المرايا العاكسة ، فلا يكاد يرى وجهه ، والحركة الأولى فى هذه المدينة هى حركة هذا الشاعر السهران حتى لحظات الفجر . فهو الساهر الوحيد بينما « المدينة نائمة » .

ولم يتوقف عند أصحاب الوجوه الضامرة الذين يظهرون فى مثل هذه الساعات من الليل ، وهو يصفهم فى مكان آخر بأنهم مغلقو الأعين . ولكنه ينبهنا الى أن الأشياء من حوله متيقظة ، مفتوحة العيون ، مثل المرايا العاكسة . فهى تبدو شاهدة على مروره بين أروقة المدينة ، ومثل القطارات التى تسقط أشعتها على وجوه المازة فتضيئها ، ومثل السيارات والظل الهارب ، وأضواء النيون . بل أن الأشياء الجامدة تتحرك فى عالم محمد ديب ، فالرصفان ، ومفترقات الطرق ، والدروب ، وأعمدة الاضاء بل والجدران الملطخة بالاعلانات ، والأشجار السامقة . كل هذه الأشياء ليست ثابتة مثلما فى أى مكان ، بل هى « تتتابع » وزاء بعضها البعض ، فتتحرك بينما المدينة نائمة .

ولعل الصوت البشرى الوحيد الذى يسمعه الشاعر فى هذه القصيدة ، هو صوت نداءات باعة الصحف ، وعلى كل فهو نداء غير حميمى . أشبه بالعيون المغلقة ، والوجوه الضامرة ، يكاد يكون «ديكور» لنفس المدينة ، فكان الليل فى مثل هذه المدن لا تكتمل صفته ، الا اذا كان به باعة صحف . وبالفعل فان الشاعر يرى ان السيارات ، وأيضا نداءات باعة الصحف ، تقوم باعادة ضبط هذا العالم غير المألوف ، وتجعله مصابا بالنسدم .

والقصيدة هى لحظة معايشة قصيرة ، واذا قارناها برؤى محمد ديب ، فسوف نرى انها مجرد نبض عابر من الذى يحياه أبطال رواياته ، فنحن امام رجل تائه يعيش لحظة تيه ، او فلنقل ان حياته كلها هى هذه اللحظة ، هى لحظة من السكره الخاصة ، والدوران عن المألوف . ورغم أننا لا نستطيع أن نحدد زمن الدراما فى القصيدة ، بين بداية القصيدة ونهايتها ، فان هناك لحظتين مؤكدتين ، الأولى ان هناك ليلا . ثم هناك بعد ذلك انقشاع الفجر ، وبين هاتين اللحظتين قام الشاعر بالتجوال فوق الأرضفة ، وراى آلاف الأشياء ، ابتداء من الجموع التى تعود الى شكلها البدائى ، والمقصود به هنا هو الموت ، او النوم ، باعتبار ان النوم حالة من الموت ، مروراً بتضاريس الشوارع . الى ان ينقشع الليل ويأتى الفجر .

وليس هناك توحيد بين الشاعر ، وبين تلك الأشياء التى يراها ، لذا فانها تجعله يشعر بالمزيد من الغربة ، ولم يحدث أى تألف بين الشاعر وبين هذه الأشياء . ورغم ان المدينة تبدو حائسة للشاعر ، تفتح له ذراعيها ، وأبوابها كى تقوده الى دروبها ، فان هذا ليس كافيا كى يتألف معها ، فالقصيدة تفتى ، وقد أصاب الدوران الشاعر . ورغم أن سكينة ما قد حلت به حين نبض قلبه بهدوء ، فان ما رآه محمد ديب فى هذه المدينة أشبه بما يراه كل غريب فى أية مدينة بها نفس المعالم ، وفى نفس اللحظات .

والشاعر حبيب للمدينة ، ولليلها المظلم ، فجدرانها ترتطم عند اعتاب الموت . وفى دروبها تهرب الظلال . ولذا ، فان التعبير الموجز والصحيح الذى وصفه الكاتب عن نفسه هو انه « ضائع » ولكنه ضياع غريب ، فكأنه فى عالم خال تماما من أية معاناة . لذا فهو يحس بالسكينة :

انه تحت المدينة النائمة ينبض قلب بهدوء .

وفى هذه السكينة يصبح الضوء أخضر ، تمتلئ الميادين بالأضواء
المبهرة ، ثم تنسال نافورة المدينة فى أعماق الميدان المظلم فتجعله
مضيئاً ..

والغريب أن الشاعر سى منتصف قصيدته قد أعلن أن المدينة التى
ساز بها ، وتجول بين أروقائها ، غير موجودة ، ولم يكشف عن عدم
وجودها بالنسبة له ، فهل هى مدينة أحلام ، أم أن لحظة التجوال كانت
لحظة رؤية خاصة له ، أم أن كل ما رآه كان بمثابة حلم يقظة ؟

آه .. لا شيء يتبعنى ، فالمدينة غير موجودة .

وهكذا ، فإن الكاتب يحاول أن يقتل مدينته . أو أن يعتبرها غير
موجودة طالما أنها خالية من الحميمية ، رغم أنه لم يشر قط الى رغبته
الشديدة فى أن يتواصل مع آخرين . وفى المقطع الثانى من القصيدة ،
فإن الشاعر يضع الموت فى مقابل الحب .

رشيد بوجدره :

جاء شكل الأدب العربى المكتوب بالفرنسية عند رشيد بوجدره جديدا . فالكاتب الذى نشر روايته الأولى « الطلاق » la réjudiation باللغة الفرنسية عام ١٩٦٩ كان عليه أن يتعامل مع اللغتين بنفس القدر . فهو اذا كتب رواية باحدى اللغتين . كان عليه أن يترجمها بنفسه وبلغته الابداعية الى اللغة الثانية . حدث ذلك فى كل أعماله ، تقريبا ، ابتداء من روايته الأولى « الطلاق » وحتى آخر أعماله . وهو فى كل تجربة منها عليه أن يختار العنوان الذى يناسبه . والتعبيرات اللغوية الأقرب الى قارئه سواء العربى أم الفرنسى ، فروايته « معركة الزقاق » تمت ترجمتها الى الفرنسية تحت عنوان « فتح جبل طارق » . وهناك روايات ترجمها آخرون مثل « الارث » . التى ترجمت بواسطة انطوان موسىالى الى اللغة الفرنسية عام ١٩٨٦ .

وبوجدره روائى فى المقام الأول . فهو معروف كمبدع فى مجال الرواية ، وحول تعليمه اللغة العربية تحدث الى خميس خياطى . قائلا : « البلد الوحيد الذى استعمرته فرنسا ومنعت فيه تعليم لغته الأم هو الجزائر . كانت اللغة العربية ممنوعة وكان ذلك سببا فى مجيئى الى تونس (معهد الصادقية) ، كان قانون « بيلا وان » يمنع تعليم وتدریس اللغة العربية فى الجزائر ماعدا اللغة المحلية . كان « بيلا وان » يعتبر أن اللغة العربية لغة ميتة واللغة المحكية تفتقد الى القوانين . فنجد الجزائري يتعلم فى المدرسة اللغة التى يتكلمها فى المنزل والشارع . . وهذا الشيء هو السبب فى شروعى فى الكتابة باللغة الفرنسية . وبعد ذلك عدت الى لغتى العربية » .

« لقد كتبت باللغة الفرنسية للضرورة . لم يكن من الممكن نشر كتاب « الطلاق » فى اية دولة عربية . مسألة الهوية واللغة والذاتية هى من المسائل الأساسية بالنسبة للروائى العربى . لقد قتل الفرنسيون فينا الذاتية والهوية والعشق والحب والجسد . فالادب العربى لم يهتم الا بالجسد . الذاتية تؤدى الى الهوية التى هى بالتالى تطل على اللغة . فاللغة هى الأساس للذاتية والذاكرة . . افصاحى عن هويتى العربية ورجوعى الى اللغة كان من الضرورى . اما أن أعود الى اللغة العربية أو أصمت أو أنتحر . اما أن أنتقل الى العربية وأتابع الكتابة فيها أو أكف عن الكتابة وأنتحر . كاتب ياسين أنتحر بشرب الخمر وكذلك مالك حداد . ليس من الصحيح أن كاتب ياسين يكتب باللغة المحلية ، فهو لا يعرفها ، كاتب ياسين انسان رجعى . . رجعى . . رجعى وغير حديث . مواقفه غير محدثة . لماذا ؟ لأن اللغة العربية

اليوم هي الحداثة سواء بالنسبة للغة المحكية أو اللغة البربرية . ما هي اللغة البربرية ؟ أنا بربرى شاوى . خمسون فى المائة من لغتى البربرية هي من اللغة العربية . اين هو الابداع فى اللغة البربرية ؟ . الأدب الشفوى أقل قيمة من الأدب المكتوب » (١) .

وقد أثرنا أن نستعين بهذه الفقرة الطويلة من حديث بوجدره كى نرى كيفية تغير المفاهيم الخاصة باللغة فى الجيل الذى ينتمى اليه بوجدره وهو الذى ظهر مع نهاية الستينات ولع فى سنوات السبعينات . فالكاتب هنا مزدوج اللغة الابداعية . وهو يكرس اللغة التى يريد حسب الظروف التى تحكمه ، أو حسب الجمهور الذى يوجه اليه كتابته .

وحتى فى لغته العربية ، فإن الكاتب يستخدم الفقرات الطويلة على طريقة ويليام فوكنر وكلود سيمون . وفى روايته « الارث » على سبيل المثال نرى علاقة حب تربط بين رجل مسلم وفتاة يهودية . وهناك وسط هذه العلاقة عودة دائمة الى الورا . فالراوية هنا يعود الى ماضيه بلا توقف . انه يروى قصة هذا الماضى وهو مقيم فى نفس المكان الذى عاش فيه سنوات المراهقة . وهو يسترجع بطاقات البريد . والصور القديمة . ويتصفح مجلات قديمة . ويكتب بلا توقف قصص أفراد أسرته . عن أبيه الذى مات فى حجرة مجاورة . وعن سفره الى أماكن بعيدة . لقد أرسل الى أسرته الكثير من البطاقات البريدية من كل بلد زاره . ها هي هذه البطاقات تصلح خامة جيدة لروايته الغارقة فى الماضى . ففى كل منها مدون تاريخ ارسالها . وعليها بعض العبارات . وما هو ابنه يسأله عن بعض التفاصيل . كما أن المرأة التى يحبها لا تكف عن ملاحظته . انها مثله مشغوفة بماضى حبيبها . وهو يحكى لها دوما عن هذا الماضى . ويبدو الأمر الآن وكأن كل شيء قد أصبح أرثا .

أما روايته « ألف وعام من الحنين les 1001 années de la nostalgie » التى نشرت بالفرنسية عام ١٩٧٩ ، فهي رواية موعلة فى القدم . باللغة الضخامة . ومزخرفة بالشخصيات والأحداث . لقد أراد الكاتب أن يصنع ملحمة العربية المعاصرة . فمن الواضح أن بوجدره قد توغل الى الأعماق فى عالم « ألف ليلة وليلة » . وراح الحنين يدفعه أن يتوغل فى عالم الاسلام وتاريخ المسلمين لأكثر من ألف عام مليئة كلها بالحنين .

(١) الرواى العربى مهووس بالسياسة . حوار خميس خياطى . اليوم السابع

وتدور الأحداث فى قرية معاصرة تسمى المنامة • تقع فى أطراف الصحراء • ولكن بعض الأحداث التى تعيشها فيها قد دارت يوما ما فى الماضى • ويقول الكاتب انه فى هذه المدينة الخيالية عاش ذات يوم العلامة ابن خلدون • ثم هناك رجل اسمه الكاتب محمد بلا اسم • يعيش فى وحدته وحنينه للماضى • وهذا الرجل يعيش فى أسرة لديها أكثر من ثمانية عشر زوجا من الأطفال التوعم ، وهو الآن أكبر أبناء هذه الأسرة • وهو الوحيد الذى ليس له توعم •

لقد رزقت الأسرة ثمانية عشر من التوائم •• لذا ، فان بطل هذه الرواية يعتبر شخصا معجزة • لأنه ولد فريدا بين اخوته • وهو قادر أن ينتقل بين الماضى والحاضر ، بسهولة شديدة •

يقول لنا فوجان فروستى ان « كتاب بوجدره يعلمنا ، اذا كنا نجهل ، أن الرق ، الذى حرمه الاسلام ، كان موجودا فى العصر الذى كانت فيه « ألف ليلة وليلة » تحدث سحرها • وكان يتم جلب الرقيق السود من القرن الأفريقى واثيوبيا وزنزيار من أجل تجفيف البرك ومن أجل تخزين القمح فى العالم المسلم الذى كان يصل حتى الاتصاد السوفيتى الحالى • هذه الخصوصية كانت حقيقية • وقد تعلمنا أن هناك ثورتين مؤثرتين • وبالغنى الأهمية • هما ثورة السود • والزند التى خلقت دولة حقيقية لمدة خمسة عشر عاما • انها دولة القرامطة التى ولدت على مقربة من العراق • كانت حركة شمولية استمرت طوال قرنين وكانت أقرب الى جمهورية أفلاطون • وما هو بوجدره يؤكد على السمات الرومانسية ، وليست التاريخية لعمله • وهو يؤكد على نماذج منها • ويضع الرسوم التوضيحية » (١) •

اختار رشيد بوجدره أن يصنع فى هذه الرواية عالما فنتازيا عربيا ، مليئا بالخيال والسحر • ومليئا بكل ما يمكن أن تمنعه السلطات فى البلاد العربية • وخاصة العبارات المكشوفة التى اشتهر بها الكثير من الأدباء المغاربة ، وايضا الناطقون بالفرنسية فى الوطن العربى ، ولكنه بشكل عام لا يصل الى أية درجة من درجات الاباحية •

وليس كل أدب رشيد بوجدره غارقا فى الفنتازيا • فروايته « قاهر الغربية » التى نشرت فى فرنسا عام ١٩٨١ تتحدث عن واقعة تاريخية حقيقية دارت فى شهر مايو عام ١٩٥٧ ، حول الغارة الأخيرة التى ارتكبها الفرنسيون ضد رئيس المجلس الجزائرى • بعد أن تم القبض عليه وحوكم

(١) Les mensonges de schéhrazade, le nouvel observateur 9-10-1979.

بتهمة الخيانة • وتم اعدامه من قبل منظمة المقاومة • ويقول بوجدره
ان « كل أدبي هو ذاتيات • انى لا أستعمل الذاتيات كقناع أخفى به
شيئاً ما ولكن كإرضية كأساس ، لأنه من خلال الذاتية بإمكانك خلق الكيان
الروائى وبدون ذلك يكون الروائى شيئاً متحجراً بدون عروق ودم
وشحم • كل الأدب الروائى العربى يفتقد الى هذا العنصر • أما الشعر •
وتلك حقيقة تناقشنا فيها مع بعضنا البعض عدة مرات • الشعر العربى
هو أفضل شعر فى العالم من ناحية الجودة • فمثلاً لا يوجد فى العالم من
يتحمل المقارنة بأدونيس على مستوى اللغة والابداع • • الانسان العربى
لا يتكلم عن أشياء حميمة • عن الأشياء الخاصة • الجوانية • فهذا الشكل
هو شكل اجتماعى نفسانى مطروح • وهذا المجتمع يرفض الحديث عن
أشياء معينة تستسلم الى نوع من الرقابة الذاتية تعتمد على المثل القائل
« أعوذ بالله من كلمة أنا » ، والكاتب العربى الذى لا يطرح الذاتيات ،
عليه الا يكتب روايات ليتوجه الى التاريخ والبحوث والشهادات • الرواية
المعاصرة والاكتشافات النفسانية قائمة على الذاتية » (١) •

وفى أعمال اخرى للكاتب ينتقل بين الواقع المعاصر والتاريخ العربى ،
فى روايته « معركة الزقاق » التى ترجمت الى الفرنسية ، تحت عنوان
« فتح جبل طارق » ، ينتقل بين كل من الماضى الى الحاضر • الماضى هنا
هو زمن فتح الأندلس حين عبر طارق بن زياد البحر • أما الحاضر فنراه
من خلال طبيب يدعى ايضاً طارق • وهذا الطبيب يحب اباه كثيراً • وهو
رجل موغل فى التاريخ • يعشقه ويقرؤه بكل شغف • وبين الحاضر الذى
يمثله طارق الذى ينضم الى المقاومة • وبين التاريخ الذى فتح فيه
العرب الأندلس يحدث المزج • وهذه الرواية هى « جملة واحدة متقطعة •
مستعادة ، تنغرس فى ذكريات الطبيب فتأخذ منه أحلى وقائع شبابه •
وينتهى الامر بسؤال مطروح ليس له جواب : « أين المنقذ ؟ » • أين المنقذ
من تقلبات الدهر والذاكرة ؟ أين المنقذ من تقلبات سلطة الأب وليونة
الأم ؟ أين المنقذ من القمع اليومى الذى يواجهه ومن خيبته عند اكتشافه
لحقيقة « جبل طارق » المعاصرة : بعض البيوت والصبيان والشيوخ
واقفين تجاه الريح العتيدة • • لا أكثر » (٢) •

(١) الروائى العربى مهووس بالسياسة • حوار خميس خياطى • اليوم السابع

٩ نوفمبر ١٩٨٧ ، ص ٣٦ •

(٢) المرجع السابق •

آسيا جبار :

تنتمي الكاتبة الجزائرية آسيا جبار الى مرحلة وسط بين كاتب ياسين ورشيد بوجدره . وقد اخترناها لأنها تمثل حالة خاصة وفريدة في مسألة الابداع ليس فقط لأنها امرأة ، كنموذج للمرأة الكاتبة التي تبدع باللغة الفرنسية ، بل ، أيضا لأنها جربت أسلوبا مختلفا . فاذا كان ياسين قد حاول أن يكتب للمسرح بلغة عامية جزائرية بعد أن عجز عن فعل ذلك باللغة الفصحى . فان آسيا جبار قد جربت السينما . حيث تختلف لغة التعبير هنا كثيرا . . فيمكن للفيلم أن يتكلم بلغة الصورة .

وقد جربت آسيا جبار الكتابة باللغة العربية في مرحلة ما من حياتها ، الا أنها عجزت تماما عن التعبير عما يجيش به صدرها . فالابداع غالبا له لغة واحدة . وعاشت الكاتبة في حيرة . فلا رواياتها قرئت في الجزائر بنفس الكيفية التي تريدها . . ولا هي صنعت أفلاما كما تشاء . فعادت مرة أخرى الى الأدب بعد طول انقطاع .

تقول لالا خفاجة : « اذا عاش المرء في قلب العملية الحضارية وعلى تخومها . فانه ليس موقفا محايدا بين التلوث واللاتطور . لكنه ممارسة للحالتين معا . حاولت الكاتبة الجزائرية أن تفعل هذا . عندما تكون امرأة من العالم الثالث على رصيف باريس . فان الرصيف لا يعطيها جنسية أخرى . سوف يظل انتماءؤها للأيدى الخشنة ، لأناس يريدون أن يصنعوا شكلا مختلفا للحياة » (١) .

وآسيا جبار المولودة في الجزائر عام ١٩٣٦ هي نموذج لنساء عديدات تائهات بين حضارتين . وقد قيل أنها حاربت الفرنسيين بالفرنسية . وذلك حسبما يقول الكاتب المعروف الآن بوكيه . ان الكتابات التي وضعها كتاب شمال أفريقيا العرب قد أحدثت الزلزال . مؤكدا أنه كان من المفروض أن تترهل الثقافة الفرنسية من السياسة الفرنسية » (٢) .

نشرت آسيا روايتها الأولى « العطش » la soif عام ١٩٥٦ . أي وهي في العشرين من عمرها . وكما يرى مراد بوربون أنها رواية شباب أكدت أن آسيا تمتلك ناصية الموهبة . والسحر والذكاء . وقد مكنتها ذلك من الاسترخاء على مخدع الأدب ، وقد قيل ان آسيا جبار في تلك السنوات هي قرانسواز ساجان الجزائر . تمتلك قلما خاصا في سرد الوقائع الباريسية » (٣) .

(١) الكلمة للمرأة - لالا خفاجة - مجلة أوراق - العدد ٢٠ ، ص ٢٧ .
(٢) Asia Djabar, jeune afrique, Dec. 1994.

(٣) المصدر السابق .

وعلى مدى أكثر من أربعين عاما لم تنشر آسيا جبار سوى مجموعة قليلة من الروايات فتشت فيها جميعا عن جذور شعبها التاريخية والاجتماعية . فعندما حصلت بلاندا على استقلالها عام ١٩٦٢ . عادت الى الجزائر تهنتها وهي تحمل بين يديها مسودة روايتها الثانية : « اطفال العالم الجديد » وقد فتحت لها جامعة الجزائر ذراعيها . حيث قامت هناك بتدريس التاريخ ولكن الابداع كان يطارد الكاتبة فلم تستغرق طويلا في التدريس . وفي عام ١٩٦٧ عادت الى فرنسا وهناك نشرت روايتها الثالثة « القبرات الساذجة » *Les alouettes naives* حول وضعية المرأة المسلمة في الوطن وفي المهجر . ومنذ ذلك الحين تصدرت آسيا جبار الحركة النسائية العربية في شمام افريقيا . ففي عام ١٩٦٨ حضرت مهرجان الثقافة الافريقية في الجزائر وقدمت مسرحية مكتوبة بالفرنسية تحمل عنوان « الفجر الدامي » *Rouge l'aube* حول مرارة الاحتلال الفرنسي للجزائر . وعندما ترجمت بنفسها هذا النص المسرحي الى اللغة العربية بدا اكاديميا خاليا من الحياة . وعبثا حاولت اعطاء النص روحه العربية ولكن بلا جدوى . وكأنه من الصعب عليها أن تعود من منفاهما داخل لغة أوربية الى لغتها التي من المفروض أن تكتب بها .

أما صدمتها مع السينما الجزائرية فقد كانت - حسبما يقول مراد بوربون - من أن السينما القومية قد بدت لها باللغة الاكاديمية . وعندما عهد اليها التلفزيون الفرنسي ان تخرج فيلما في عام ١٩٧٧ ركبت سيارة مع كاميرا وذهبت لتصوير البسطاء من الناس وجاء فيلما « نوبة النساء بجبل شنودة » تعبيرا عن دور المرأة الريفية في حرب التحرير . وقد حصل هذا الفيلم على جائزة مهرجان فينيسيا عام ١٩٧٩ . ثم فيما بعد اخرجت فيلما الثاني « زردة » .

في عام ١٩٨٥ حاولت أن تستفيد من تجربتها السينمائية فقامت بتحويل فيلما الأول الى رواية تحمل عنوان « الحب والفنتازيا » . ومثلما فعلت في الفيلم فعلت في الرواية . فكلمة « نوبة » - في الفيلم - تعني مجموعة من العازفين يعزفون الواحد تلو الآخر أو هي تناوب لقطع موسيقية من خمسة فصول - وجاءت الرواية كأنها هذه النوبة . مقسمة الى خمسة اقسام لها تأثير الالمان المتعاقبة . وفي الرواية تعطى آسيا جبار الكلمة للنساء . وتجعلن يتكلمن الواحدة بعد الأخرى . فيصفن الأضرار التي تركتها حرب التحرير الجزائرية على أنفسهن وعلى عائلتهن .

تدور أحداث الرواية حول مصير مجموعة من النساء والفتيات المرتبطات بحضارتهن ارتباطا قويا . واللواتي يصرن في مرحلة من حيواتهن حائرات في أمورهن : فهن تارة خاضعات للرجل . وفي تارة أخرى ثائرات على التقاليد والعائلة .

تفتتح الكاتبة روايتها بسير امرأة جزائرية . بدأت تتحرر من القيود التقليدية وقد تأثرت في صباها كثيرا بالحرب الجزائرية الأولى التي استمرت بين عامي ١٨٣٠ و ١٨٧١ ، ترى هذه المرأة في أيها المعلم الصادق في عمله . الذي يسعى الى رفع الجهل والتخلف عن الناس بالوسائل التربوية المتاحة في تلك السنوات . ورغم انه كان يتقبل الكثير من المفاهيم الغربية التي اتى بها المستعمر الى الجزائر . فانه كان يتصرف أحيانا طبقا لأساليب التربية التقليدية كما كانت في الريف الجزائري . وعلى هذا النحو كانت علاقته بابنته . مع انه أتاح لها أن تتعلم . ومكنها من أن تتصرف بحرية حتى تزال عنها كآبة العيش في الأوساط المغلقة .

وفي الرواية هناك نماذج لنساء أخريات منهن أرامل . وفلاحات عشن أيضا حرب التحرير : « هؤلاء النسوة لم يمارسن الأدب في حياتهن . أكثر مما عانين في الحرب . كانت كلماتهن خناجر . لقد سمعت حكاياتهن تردد . وأردت أن أترجمها كي أنقل القرن التاسع عشر داخل صوت من خلاتهن (١) »

هؤلاء النساء خرجن من بيوتهن أو مارسن نشاطا غير النشاط المنزلي . لكن بناتهن قد ساهمن مساهمة واسعة في حروب التحرير الطويلة . قدمن للمجاهدين شتى أنواع الدعم والمساندة الى أن حصلت البلاد على استقلالها . وقد دفعت هؤلاء النسوة الكثير من دمائهن ، فقد كان الجنود الفرنسيون يبطشون بهن أبشع البطش . وصفت الكاتبة بعضا منه وصفا دقيقا مؤثرا . مثل المذبحة التي حدثت في قرية « القنطرة » القريبة من وهران ، أو في مذبحة جبل بقمارية في يوليو ١٨٤٥ . أو تعذيب المجاهدين من نساء ورجال في قرى أخرى حيث حول الفرنسيون خزانات المياه الرومانية الى سجون حشروا فيها المناضلين والمجاهدين .

لقد اكتشفت الكاتبة وهي تبحث في التاريخ أن اللغة الفرنسية التي تكتب بها ملطخة بالدم . وحين دقت في تاريخ العلاقة بين الضباط

Dans la crue de la douleur. T. Ben jelloun, le monde
10-5-1985, p. 21.

(١)

الفرنسيين واثرياء الجزائر ، رأت أن العنف هو الشاهد الذي تكتب به التاريخ . أو كما تقول : « أنا وريثة هؤلاء القتلى » . لقد حاولت من خلال هذا الكتاب أن أثبت أن هناك دما في ميراث اللغة ، (١) . في إحدى الحوادث الدامية التي كانت تهتم بها تتحدث عن وقائع احراق خمسمائة جزائري في ١٩ يونيو ١٨٤٥ على أيدي الفرنسيين في الخزانات السابق الإشارة إليها .

ويقول الطاهر بن جلون أن هذه الرواية هي عن الحب الذي تكنه آسيا نحو لغتها العربية ، لكن لذة الحب لم تعمل بعد . في المجتمع المغربي التقليدي . فالرجل لا يسمى زوجته أبدا . فهو يطلق دائما على زوجته وأولاده تعبير « البيت » . ووالد الرواية كسر هذه القاعدة . فأرسل بناته إلى المدرسة الفرنسية متمنيا أن يكن في طليعة المجتمع . وقد كان ينادي امراته دائما بـ « سيدتي » (٢) .

وتقول آسيا في نفس الحديث عن علاقتها باللغة : « درست اللغة الفرنسية . وأصبح جسدي منسقا على النمط الغربي » . وعندما كان الآخرون يسألون الأب عن السبب في أن بناته لا يرتدين الحجاب يرد : لانهن يذاكرن . وبفضل المدرسة الفرنسية استطاعت البنات الهروب من المحبس كي يعبرن عن طموحن . وتعلمت الكتابة الفرنسية كلغة كتابة وليس سوى ذلك . وهي تقول انها تعلمت الفرنسية كي تسرق شيئا من عدو الأمس .

هذا العدو كم سرق ونهب مدنا بأكملها ! ، وكم أعدم من بشر ! . ولم يكن الفرنسيون في حملاتهم الانتقامية المزعومة يبقون على الأطفال ولا على النساء ، ويرى الناقد الألماني بيتر هوفمان بستر أن « الكتاب من أوله إلى آخره عرض لشجاعة المرأة الجزائرية واستعدادها للتضحية . ولكن ، ماذا جنت من شجاعته في حرب التحرير وتضحيته ؟ ما نراها اجتنت من شيء ذي شأن . بل على العكس . لقد ازدادت رطاة التقاليد التي تجعل للمرأة دورا في العائلة لا تتخطاه » (٣) .

وجول هذه الرواية كتب المستشرق جاك بيرك قائلا : « انه يا لسعادة المؤمن أن يجد في ضيقه سعادة نقية خالصة » . وذكرى معبقة بالمستقبل . لذا ، راحت الروائية تستجمع الفرنسية التي ملكت زمامها وجربت موهبتها في تخيل صورة الحروب . والانغلاق والرغبة . وهي تحلل بلغتها

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

(٣) مجلة « فكر وفن » العدد ٥٢ ، ص ٩٤ .

وتتحدث عن مغامرة شعب له حياته • وحيويته • حيث ترى آسيا جبار ذلك الصباح من صيف عام ١٩٢٠ حين حطت جحافل الفرنسيين على حفلات العرس الجزائري وراحت تقود الرجال الى سجون فرنسا ، (١) •

أما رواية « ظل السلطانة » L'ombre du Sultana المنشورة عام ١٩٨٧ فهي بمثابة تكملة لروايتها السابقة • وحسبما تقول الكاتبة « هي قسم من أقسام نوبة العزف • تمثل الرواية الأولى آلة الكمان لأن نغماتها جهورية ولها علاقة بالتاريخ والمأساة • أما « ظل السلطانة » فهي تمثل آلة تصدر أصواتا رقيقة • وبطلة الرواية تدعى حجيلا • امرأة عربية تعيش في أحد الأحياء الشعبية بمدينة الجزائر • تزوجت من رجل طموح لكنه نموذج للرجل الشرقي الذي يؤمن بالعزلة والانغلاق « لا يتسم قط • وكان العيوس هو لغة التخاطب بينه وبين زوجته • يأمر وينهى • يطلب منها ان تأتي له بأشياء مثل منفضة السجائر • انه انسان بلا اسم • أما هي — كما كتب خميس خياطي — فامرأة طيبة رقيقة تتأثر بسهولة وبدون عنف • من هنا يأتي اختيار اسم حجيلا لها • على اسم طائر رقيق • فهي في بداية الطريق • بعيدة عن التمرد والثورة • عاشت مع أمها واختها ككزة في إحدى الضواحي الفقيرة •

وحجيلا ودت • ذات مرة • أن تتمرد على هذا الزوج الطاغية فخرجت من الدار • مثلما فعلت نورا بطلة ايسن في بيت الدمية « — دون اذنه وبدون حجاب • فتشعر لأول مرة وكأنها فقدت جسدها وكيانها وحريتها « فتصبح مجرد عيون ترى ولا ترى • تنمو لديها رغبة الرؤية خلصة •

ومحاولة لتقليل قيمة الرجل • فان الكاتبة تتحدث عنه بضمير الغائب • فهو شخص بلا اسم محدد • شبح كبير يأتي ويذهب • وعندما يعرف الرجل ان امرأته خرجت من الدار بدون اذن ينهال عليها ضربا امام ابنها •

وقد تحدثت آسيا جبار في نفس العدد من « اليوم السابع » قائلة : « تمثل الحب والفتنازيا » علاقتي بأبي • أما « ظل السلطانة » فهي تصور علاقتي بأمي • القسم الثاني من الرواية الأولى هو تعبير عن علاقة فتاة بأبيها وبالتالي باللغة • فعوض أن تكون اللغة الفرنسية لغة الغير ولغة المستعمر • كانت بالنسبة لي لغة الأب • وهذه اللغة فتحت لي أبواب العالم • وأصبحت علاوة عن كونها لغة الآخر • لغة الحرية •

(١) La langue de l'envahisseur le nouvel observateur 9-5-1985.

حين أحاول تحليل ذاتي أجد أن اللغة الفرنسية مكنتني من الهروب من سجن المنزل . لقد حاولت في هذه الرواية التقرب من اللغة المحلية الجزائرية . أن استعمل لغة النساء اللاتي حافظن على هويتهم ، (١) . وفي تعليقه على هذه الرواية عند ترجمتها إلى اللغة الألمانية كتب بيتر هوفمان بستر أن آسيا جبار تروي « بدقة الضغط النفسي الذي تعانيه نساء شباب من جراء الصحاح أمهاتهن عليهن في أن يطعن أزواجهن ويقمن بما يطلبونه منهن من الواجبات . فهؤلاء الشباب هنا يكن ضحية لتربية أمهاتهن اللاتي يتصرفن إزاءهن بموجب رد الفعل الناتج عن الاحباط والخيبة . لا تشير آسيا جبار في كتابها إلى ما قد تكون غاية هذا النزاع بين الرجل والمرأة المستهلك لطاقت كبيرة . كان أولى أن تصرف في مجالات أخرى . وعلى كل حال سينقضي زمن طويل حتى تصبح المرأة مساوية للرجل في الحقوق ، شريكة له وكفاء أمام القانون وفي المجتمع وفي العائلة (٢) .

وما دما بصدد الحديث عن ازدواجية اللغة عند الكاتب ، فإن آسيا جبار قد عانت الكثير من هذا الاغتراب بين لغتين وهويتين ثقافيتين . وقد تحدثت في مجلة اليوم السابع أنه « لاننا لم نكن قادرين على الكتابة مباشرة بالعربية ، فقد بذلنا جهدنا لكي يصار إلى ترجمة أعمالنا سريعا إلى هذه اللغة . واسفر الأمر عن ظاهرة غريبة . إذ أن البنا ، أن تحول إلى العربية ، لم يحقق النجاح المرتجى . والذنب هو ذنب عملية العبور هذه أكثر مما هو ذنب نوعية الترجمة . فالجمهور لا يحب هذا النوع من التأقلم . الجمهور الذي يقرأ أبدى الكثير من الحذر . لأنه يفضل أن يكشف الكتاب المغاربة عن نصوصهم مباشرة » (٣) .

رشيد ميموني :

برزت مجموعة من الأسماء المهمة في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية في الثمانينات مثل طاهر جاعوت وعز الدين بونمور الذي مات برصاص المتشددین في مايو ١٩٩٣ . إلا أن أبرز هذه الأسماء وأكثرها نشاطا وشهرة وتواجدا هو رشيد ميموني المولود في مدينة بودو القريبة من الجزائر العاصمة عام ١٩٤٥ . والذي درس الاقتصاد في بداية حياته . وقد نشر رشيد روايته الأولى « لن يكون الربيع أكثر جمالا » ،

(١) امرأة حلمت بشارع مستحيل ، خميس خياطي ، اليوم السابع ٨٧/٣/٢٠

ص ٤٢ .

(٢) مجلة فكر وفن ، العدد ٥٢ سنة ١٩٩٢ ، ص ٩٤ .

(٣) مجلة اليوم السابع ، ١٢ يناير ١٩٨٧ .

في الجزائر في عام ١٩٧٨ . وما لبث أن توجه الى فرنسا مع أوائل الثمانينات لينشر فيها أعماله القالية . ففي عام ١٩٨٢ نشر روايته « النهر المحول » التي تدور حول مناضل من الجيش الجزائري الوطني في معركة التحرير . تصور البعض أنه قد مات ، فيفاجأون بعودته الى القرية . ولم يكن عليهم سوى أن ينكروه لأن البطل دائما يجب أن يكون ميتا .

أما روايته « طمبيزه » Tombeza المنشورة عام ١٩٨٤ فانها تدور حول شخص مولود لأم اغتصبها رجل . وانكرتها عائلتها بعد فعلتها الشنعاء التي ليس لها يد فيها . انه يحاول أن يجد لنفسه ظلا في هذا العالم بأن يكون ثريا . أو شخصا مرموقا .

وفي عام ١٩٨٩ نشر ميموني روايته الفرنسية الثالثة والتي لفتت اليه الانظار وهي تحت عنوان « شرف القبيلة » . وقد اكدت هذه الرواية اننا امام كاتب يسير على نهج كافكا ويصنع لنفسه ولابطاله اجواء خاصة . فالى جانب المكان الذي يبدو سعيدا في رواياته ، وهو غالبا قرية صغيرة ، فهناك مجموعة من الأشخاص مرتبطون بهذا المكان يحاولون الدفاع عنه . والالتصاق باديمة .

والمكان في رواية « شرف القبيلة » l'honneur de la tribu هو قرية بعيدة عن الذاكرة تسمى « الزيتونة » . هذه القرية غير موجودة تقريبا على خريطة البلاد . لقد نسيها جنود الاستعمار الفرنسي . وبالتالي فان الثوار لم يفكروا فيها . لأنه حيث يوجد المحتل توجد الثورة ورجالها . ولذا فان القرية معزولة عما يحدث في البلاد .

وتبدأ أحداث الرواية حين يستلم موظف البريد رسالة تفيد بأن رجال المستعمر قد اعلنوا ان « الزيتونة » أصبحت برتبة « قائم مقام » ولا شك أن مثل هذا التركيز المفاجيء على المدينة سيجعلها في دائرة الضوء . ويرى البعض أن الوضع الاقتصادي سوف يتحسن .

والرواية تدور على لسان راوية يسمع من أحد شيوخ القرية ما حدث للقرية . فقد جاء أبناء القرية الى هنا بعد فترة قصيرة من الغزو الفرنسي للبلاد ، جاءوا كي يبتعدوا عن هذه النكبة التي أصابت الجزائر . وكان عليهم أن يصنعوا مجتمعا معزولا . ليس فقط عن فرنسا . بل وأيضا عن الجزائر .

لقد جاء على القرية ذات يوم حاكم عينه رئيس الحكومة الثورية الجديدة . هذا الرجل معروف لدى البعض من القرويين . فهو ابن لأحد الرجال الذين لهم نشاط في القرية . وهذا الرجل لا يعرف ميا . هي

مهمته بالضبط ، لذا فليس من الغريب أن يسخر من البعض أو يمزح من الآخرين * ثم لا يلبث أن يتحول الى طاغية * وهنا تتغير ايقاعات الحياة في القرية التي لم تعرف الطغاة من قبل * فعلى شيوخ القرية أن يقاوموا هذا الطاغية *

ومن الواضح أن الكاتب يعطى إشارة باللون الأحمر حول ما يمكن أن يأتى به أية طاغية للبلاد * ولا شك أن هذا الرأى سيكون هم الكاتب فى أعماله القسامة * وفى أحاديثه الصحفية * بل وفى مواقفه من المتشددين الاسلاميين فى الجزائر *

وفى عام ١٩٩٠ نشر ميمونى مجموعة من القصص القصيرة فى كتاب يحمل عنوان « حزام الفسولة » La ceinture de l'organe حاول فيه من جديد التصدى لظاهرة الطاغية * والطاغية هنا قد لا يكون الشخص * ولكنه قد يكون نظاما اجتماعيا * والكاتب يرى أن الشعب الجزائرى على اختلاف مشاربه السياسية بيروقراطى التفكير * وقد جاء ذلك نتيجة للخمول والتخلف والضغط النفسى والفساد * وتجاوز القوانين والحكومات *

أما روايته فى عام ١٩٩١ فتحمل عنوان « الحياة على الكفاف » Une peine à vivre وتطارد الطاغية بمنظور مختلف أقرب الى روايات الكاتب الأولى التى بدا فيها مدى تأثره بعوالم كافكا * فالرواية تدور أحداثها فى بلد غير مسمى من بلاد العالم الثالث * وفى هذا البلد ، كما فى أغلب هذا العالم ، هناك طاغية ينتظر دائما المزيد من العبيد * وهذا الطاغية يقع فى الحب * وتمتلك امرأة بلا اسم مثله كل مشاعره بشكل يؤدي الى الجنون * وأيضا الى سقوطه من فوق عرشه * وهذا الطاغية اشبه بحكام عرفهم العالم الثالث بجنونهم الملحوظ * من بوكاسا الى موبوتو ونورييجا وماركوس ودوفالييه وربما هو مزيج منهم جميعا * * لقد احتفظ الطاغية بحبيته فى القصر كأنها رهينة لحيه وزاح يحبها حتى الموت *

ويرى الكاتب أن « فعل » أى طاغية هو أن يكون له ضحايا وأنه فى الغالب شخص يفتقد أهلية العقل * كما تحدث الى مجلة « الشروق » قائلا : « مضبون رواياتى لا يمس عمق فكرة حقاً ، فأنا لا أحرص الناس ضد التقدم العصرى * وذلك لأننى أوّمن بأنه لا مفر من الحداثة والمعاصرة » *

(١) حذار فقدان الذاكرة - حوار حسين قببسى ، مجلة الشروق ١٤ مارس ١٩٩٢

هذا هو بعض من عالم رشيد ميموني . آخر الأجيال الأدبية الشابة في الجزائر . . . والذي وضعت جبهة الانقاذ قبل وفاته في يناير ١٩٩٥ ، مع أدباء آخرين ضمن المطلوب اغتيالهم واسكاتهم . . . وقد كتب ميموني العديد من المقالات في الصحف والمجلات الفرنسية في الآونة الأخيرة ، هاجم فيها الجبهة . . . وليس موضوعنا بالطبع التركيز على مواقف الكاتب السياسية في حياته . . . قدر اهتمامنا بمسألة لجوء هذا الكاتب الى الابداع باللغة الفرنسية . . . فلا شك انه يعد الرواية الأولى وجد ميموني فرصته لدى دور النشر الباريسية . . . ومثل هذه الفرص لاتتاح لكل من يكتب بالفرنسية . . . وقد دفع هذا الكاتب الى أن يقدم خمس روايات في عشر سنوات تقريبا مؤكدا انه أبرز الأسماء الجزائرية ، التي تكتب بالفرنسية بعد رحيل كاتب ياسين ، الذي توقف بدوره طويلا . . . ووسط حالة من الجفاف الابداعي عند كتاب آخرين موهوبين . . .

الطاهر جاعوت :

وأصبح على الأدباء أن يموتوا من أجل ابداعهم ، من أجل كلمات جميلة كتبوها يوما ما . . . فكان لزاما عليهم أن يخرج عليهم قوم ملثمون ، بغتة ، في ساعات النهار ، ويطلقون النيران ، فتتناثر دماء فنان ، حاول أن ينتثر من حوله الزهور ، وأن يجسد من حوله الشاعر الجميلة ، والنبيلة . . .

كان هذا هو حال الشاعر والروائي الجزائري الطاهر جاعوت الذي لقي مصرعه في مايو عام ١٩٩٤ في مدينة الجزائر ، وجاعوت شاعر لم يفعل شيئا سوى أن قرض القصيدة وحاول أن يزرع أملا بكلماته . . .

يمثل الطاهر جاعوت واحدا من أبناء الجيل الثالث من الأدباء الجزائريين الذين يكتبون مباشرة باللغة الفرنسية ، فحين ولد في عام ١٩٥٤ ، كانت الجزائر كلها تستعد للثورة وكان الثوار يقرءون روايات كاتب ياسين ، ومولود معمري ، ومولود فرعون . . . وحين كان في الثامنة ، حصلت بلاده على استقلالها ، فالطاهر من مواليد ١١ يناير عام ١٩٥٤ بمدينة أصفهان الجزائرية . . . وقد درس في هذه المدينة حتى المرحلة الثانوية ، حيث اتجه الى العاصمة . . . وهناك حصل على الليسانس في علوم الرياضة ثم درس العلوم والصحافة . . .

وقد تولدت موهبة الطاهر الشعرية في سن مبكرة ، أي وهو في الحادية عشرة من العمر ، ورغم لغته الفرنسية ، فانه قد اهتم في شعره بالواقع الجزائري المعاصر . . . وفي عام ١٩٧٥ نشر ديوانه الأول « المدار

«الشائك» ثم جاء ديوانه الثانى عام ١٩٧٨ تحت عنوان «القوس حامل الماء» وفى عام ١٩٨٠ صدر ديوانه الثالث «قطن الجزيرة وشركاه» .
أما آخر دواوينه فهو «العصفور المعدنى» .

ويمكن تقسيم ابداع الطاهر جاعوت الى مرحلتين منفصلتين
تماما ..

كان فى الأولى شاعرا مليئا بالغموض ، ويهتم باللغة ، وتراكيبها المعقدة، انتهت هذه المرحلة تماما عند بداية الثمانينات فتوقف عن القرض .
واتجه الى الرواية ، حيث نشر أولى رواياته عام ١٩٨١ تحت عنوان «امرأة منزوعة الملكية» . وفى عام ١٩٨٤ نشر روايته الثانية «الباحثون عن العظام» ومجموعة قصصية باسم «فخاخ الطيور» . وفى عام ١٩٨٧ نشر رواية «اختراع الصحراء» أما روايته «العسس» فقد فازت عقب صدورها عام ١٩٩١ بجائزة البحر المتوسط .

وقد تباينت دور النشر التى أصدرت هذه المؤلفات بين دار نشر فى باريس وبين دار نشر جزائرية . وفى عام ١٩٨٤ كلفته إحدى دور النشر الجزائرية بإعداد مجموعة من مختارات الشعر المعاصر المكتوب باللغة الفرنسية ، بالتعاون مع إحدى الصحفيات تحت عنوان «الكلمات المهاجرة» .

وطوال الفترة بين عام ١٩٧٥ ، وحتى اغتياله فى الثانى من يونيه ١٩٩٣ عمل مشرفا على الصفحة الثقافية فى مجلة «الجزائر الأحداث» التى تصدر باللغة الفرنسية فى الجزائر ، كما كان يرأسل مجلة «أحداث الهجرة» التى تصدر فى باريس . وفى بداية عام ١٩٩٣ شارك فى تأسيس مجلة «القطيعة» الأسبوعية وعمل مديرا لتحريرها ، والتى كان هدفها الأساسى عمل قطيعة مع كل فكر ظلامى وضد شد الجزائر نحو الغد ، حيث اهتم بتحديث اللغة والفكر وقد شارك معه فى تحرير المجلة أدباء من طراز «رشيد بوجدره ورشيد ميمونى» الذى قرر الهجرة الى المملكة المغربية عقب اغتيال جاعوت بعد أن أصبحت حياته فى خطر .

وابداع الطاهر جاعوت يميل الى الغموض وليس من السهل قراءته حيث يدور النص كما جاء فى موسوعة الأدباء الجزائريين حول مفاهيم خاصة مثل اللغة والهوية والمنفى . ومن بين قصائده المنشورة فى ديوان «القوس حامل الماء» ، يقول : (كما ترجمه الى العربية الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى) تحت عنوان «أمل» :

الشعراء

وهيكل الأنوار

المشيد من فقار ظهوركم
هل تجد فيه اخيرا ..
هذا الخبز الذى نبحث عنه ؟
أسمعها تصعد من فوقكم ..
ضجة الأنهار ..
ومن أحضان هياكلكم المتصلبة ..
يثبجس رفضكم أن تتسلقوا ..
جدار الصمت !

أشتهى أن أعيد (.....) كل شيء
فى جسد - عاصفة
لقد فقدت الى الأبد
نجم الرحلة الهادئ
وعلى أن أواصل تشردى
آه .. كم هو ثقيل جلد الشاعر !

ساغنى حتى اللحظة
التي تصبح فيها المتعة
انفجارا فى الرأس ..

هل أتحمل قدرى الغاشم ؟
داخل جلدى المؤقت ..
هل لى مكان بين النجوم ؟ ..

ليس هناك الا الخوف من ان ينتزعوا حلمي » . .

فى حديث للكاتب الطاهر جاعوت الى مجلة « شئون عربية » التى تصدر باللغة الفرنسية (عدد نوفمبر ١٩٩٢) يقول عن مرحلة تصوله فى بداية الثمانينات من قرض الشعر الى الرواية : « الأنواع الأدبية التى مارسها قريبة جدا من بعضها البعض . وخاصة فى هذه الأيام ، حيث لدينا كتابة متفجرة . فمنذ عام ١٩٨١ ورغم اننى نشرت روايات فقط فأننى استمررت فى كتابة القصائد . فمازلت اكن للشعر وقارا كبيرا . والشعر بالنسبة لى هو الشكل الأكثر قبولا . والأكثر سعة حتى من الرواية نفسها التى لا يمكنها ان تصبح فوق سلم ملء بالمرونة . ولهذا فأننى لم اعتبر نفسى روائيا . واعتقد اننى كاتب أكثر منى روائيا . وأهم شىء فى أى كتاب هو أننا نمارس فيه الكتابة . والعمل على مستوى اللغة التحول فالحكايات لا تهمنى كثيرا . وأنا لا أجيد قص الحكايات سوى تلك القصص الخرافية التى رويتها فى « الباحثين عن العظام » .

والغريب أنه رغم هذا الرأى الذى ذكره الطاهر جاعوت فانه لم ينشر أية قصائد منذ اتجه الى كتابة الرواية ، وبدأت هذه الكلمات أشبهه برجل يشعر بأنه خان حبيبته السابقة ، فراح يعدد فى مآثرها دون أن يعود اليها أو أن يترك حبيبته الجديدة ، لأنه بكل بساطة غير قادر على اتخاذ القرار أو لم تعد لديه القدرة على ذلك . خاصة أن تلك الحبيبة لديها سن وسائل الجاذبية ما يجعله سابحا فى نهرها المتدفق .

فاذا كان الشعر قد عبر فيه الطاهر جاعوت عن لحظة آنية ، مليئة بالغموض ، اهتم فيها بتجريب حاد مع اللغة ، فانه فى رواياته قد عاد الى طفولته الى تلك السن المليئة بحكايات جذابة ساحرة ، فالكاتب هنا لا يستهويه ما يحدث على الساحة الاجتماعية والسياسية فى بلاده ، لذا فانه يهرب الى زمن الطفولة . حيث تملك المرء شهوة الحياة فى مجتمع مثالى . والرغبة فى الرحيل الى الفضاء الرحب . وفى نفس الحديث المشار اليه عبر الطاهر جاعوت عن هذه الحالة التى انتابته قائلا : « اعتقد أن الطفولة تلعب دورا بالغ الأهمية فيما نكتبه . فروايتى الأخيرة « اختراع الصحراء » ، تنتهى بالطفولة . انها نوع من السيرة الذاتية للعديد من الشخصيات تبدأ بسن البلوغ وتنتهى بالطفولة مظلمة بكل المشاعر التى يحسون بها وهذا هو حال كل أبطال الرواية » .

« بالنسبة لى فان الشيء الوحيد الحقيقى هو الطفولة • ولا شك ان تعلقى ببلادى فى المقام الأول وطنى وكان سببه ما تلقيتة فى طفولتى وجعلنى أنتمى الى هذا البلد • ولهذا فان رواياتى الأربع لا تحتفى بالنزعة القومية بنفس الشكل الموجود فى الأدب الجزائرى بشكل عام » •

« علاقتى بالتاريخ الوطنى والقومى هى علاقة انتقادية ، قائمة على أساس تناقض التاريخ العومى وعلى الذاكرة التجميعية والتاريخ الشخصى وأنا أحس دوما أن هذا التاريخ الشخصى يساهم فى خنق المشاعر القومية الحقيقية • ويضع ذلك كله فى إطار ضيق وبالم الحدة • أما أنا فاننى أنتمى لتاريخ آخر يتمثل فى حق كل شخص فى تاريخه وفى ذاته المتسعة » •

وكما أثار الطاهر جاعوت نقاده فى فهم عالمه الصعب والغامض وكما أثار قائله الذين اغتالوه لمجرد أنه كتب دون متابعة أعماله ، فان الطاهر جاعوت قد نفى عن نفسه أنه كاتب ملتزم ، حيث قال فى حديثه الى مجلة « شئون عربية » السابق الاشارة اليها : « لم أكن أبدا كاتبا ملتزما ، فذلك نوع من الفخاخ ، كان يمكنى أن أسقط فيه عندما بدأت فى الكتابة ، ففى تلك المرحلة من الشباب المبكر كان المناخ العام فى الجزائر ثوريا للغاية ومع ذلك لم أسقط فى ذلك الفخ ؛ لأننى فهمت الثورة الجزائرية بمفهومى الخاص » ••

ويكمل الطاهر جاعوت فى حديثه الى الكاتب عبد القادر زغلول قائلا : « أنا كاتب يدافع عن القيم الأخرى •• فليها معان أخرى فى بلد مثل بلادنا ، وأنا أحاول أن أعبر عن مواقفى فى الصحافة ، وليس هناك موقف نضالى فى كتاباتى ليس هنا موقف نضالى قوى • وقد رفضت دوما أن أضبع نفسى فى أطر أيديولوجية • ومرجعى فى ذلك هو عاطفتى الخاصة • وإذا كتبت أو من كثيرا بالأدب ؛ فانى أو من بشكل أقل فى بعض المفاهيم والقيم السياسية فالكتابة بالنسبة لى مسألة خاصة • محاولة لتجديد العالم من حولنا »

☆☆☆

قائمة بأهم الأدباء الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسية

آبا ، نور الدين (١٩٢١) :

ولد في مدينة سطيف . درس القانون في الجزائر . ثم سافر الى فرنسا وإيطاليا . عمل صحفيا وناضل من أجل القضية الفلسطينية . ثم عاد بعد طول اغتراب الى الجزائر عام ١٩٧٧ . شاعر . من أهم دواوينه : « فجر الحب » عام ١٩٤١ ، و « وراء الطلال » عام ١٩٤٢ و « أبواب الغروب » ١٩٤٣ ، و « أغنية ضائعة ليلاد عائدة » ١٩٧٨ ومن مسرحياته « آخر يوم للنازي » عام ١٩٨٢ .

حمروش ، قاوس (١٩١٣ - ١٩٧٦) :

ولدت في تونس . شقيقة جان حمروش . تنقلت بين باريس وتونس . بدأت نشاطها بكتابة الأغنية . تزوجت من فنان تشكيلي . وعملت في الراديو التونسي . روائية وشاعرة من أهم أعمالها : « البذرة السحرية » ، ١٩٦٦ ، ورواية « العاشق الخيالي » عام ١٩٧٥ . ومجموعة كبيرة من الأغنيات .

حمروش ، جان (١٩٠٦ - ١٩٦٢) :

اسمه الحقيقي جان المحب . ولد في قبيلة صغيرة . وهاجر مع أسرته الى تونس . ودرس هناك ، عمل مدرسا . ثم سافر الى أوروبا . وعندما عاد الى الجزائر عمل في الاذاعة الفرنسية كما عمل في الاذاعة الجزائرية . مارس السياسة . توفي في باريس . شاعر . من أهم دواوينه المنشورة في تونس « رماد » ١٩٣٤ و « النجمة المقدسة » ١٩٣٧ . كما نشر مجموعة من اللقاءات مع بول كلوديل . واندريه جيد وفرانسوا مورياك .

بلغانم ، وبيير (١٩٢٥) :

ولد في باريس . عمل بناء . واقام في الجزائر . ثم رحل الى باريس ، شاعر من أعماله « نزهة مع ظلك » عام ١٩٥٤ ، « ليلة اتالي »

١٩٢٥ . و « القفزة المستعانة » عام ١٩٧٤ ، ومسرحية عن « سبارتاكوس »
عام ١٩٧٠ .

يوجيرة - رشيد (١٩٤١ -) :

(انظر الفصل الخامس) .

الحمراوى ، على (١٩٠٢ - ١٩٥٠) :

ولد فى أسرة من عين الحمام . سافرت أسرته الى مكة . ثم
استقرت فى الاسكندرية عام ١٩٢٢ . سافر الى بلاد عديدة . واستقر
فى القاهرة . مات فى حادث عام ١٩٥٠ . روائى . نشرت روايته
« ادريس » عام ١٩٤٨ . ثم أعيدت طباعتها باللغة العربية عدة مرات .

جبار ، آسيا (١٩٣٦) :

(انظر الفصل الخامس) .

حاجى ، بشير على (١٩٢٠) :

ولد فى أسرة بسيطة . ودرس فى المدرسة القرآنية . ثم فى مدرسة
فرنسية . عمل فى مجال النشر . دخل السجن عام ١٩٥٤ . أقام فى
باريس والجزائر . شاعر . وكاتب مقال . من أهم رواياته « غنية من أجل
١١ ديسمبر » ١٩٦١ ، و « لتستمر البهجة » ١٩٧٠ .

جاعوت ، الطاهر (١٩٥٤ - ١٩٩٤) :

(انظر الفصل الخامس) .

محمد ديب (١٩٢٠ -) :

(انظر الفصل الخامس) .

عمراتى ، جمال (١٩٣٥) :

ولد فى سور الخزلان . ودخل السجن عقب اشتراكه فى مظاهرات ،
هاجر الى سويسرا واشترك فى إصدار العديد من الصحف الجزائرية مثل
جريدة « الشعب » . وعمل فى الاذاعة . شاعر . من أهم دواوينه :
« اغنية للاول من نوفمبر » ١٩٦٤ ، « شمس ليلا » ١٩٦٤ . و « أيام

١٤٩٠

بلون الشمس « ١٩٧٩ . له مجموعات قصصية منها « الغروب الأخير »
١٩٧٨ ، ومن مسرحياته « بين الأسنان » و « الذاكرة » ١٩٧٩ .

فارس ، فييل (١٩٤٠) :

ولد في القبيلة الصغيرة . التحق بالجيش . درس الفلسفة . رحل
الى أماكن عديدة في العالم . روائي وشاعر . من رواياته : « يحيى
قليل الحظ » ١٩٧٠ . و « عابر الغرب » ١٩٧١ . و « حقل الزيتون »
١٩٧٢ و « ذكريات الغائب » ١٩٧٤ . و « موت صلاح بيه » عام ١٩٨٠ .
أما دواوينه فمنها أغنية عقالي « ١٩٧١ .

فرعون ، مولود (١٩١٣ - ١٩٦٣) :

ولد في القبيلة الكبيرة . ابن أسرة ريفية . عمل في الزراعة .
ثم ذهب الى المدرسة . ثم عمل في التدريس . اغتيل في عام ١٩٦٢ .
روائي وشاعر من أعماله الروائية : « ابن الفقير » ١٩٥٠ . و « الأرض
والدم » ١٩٥٣ . و « أيام القبيلة » ١٩٥٤ . و « طرق صاعدة » ١٩٥٧ .
ومن أعماله الأخرى : « أشعار سي مهند » ١٩٦٠ . و يوميات ١٩٦٢ .
١٩٦٢ . و « نصوص جزائرية » ١٩٦٢ .

معمري ، مولود (١٩١٧) :

(انظر الفصل الخامس) .

ميموثي ، رشيد (١٩٤٥ - ١٩٩٥)

(انظر الفصل الخامس) .

ياسين ، كاتب (١٩٢٨ - ١٩٨٩) :

(انظر الفصل الخامس) .

الفصل السادس :

الأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية

استطاع الكاتبان المغربيان أحمد سفيروي وأدريس شرايبي أن يفتتحا الابداع المغربي المعاصر في عام ١٩٥٤ بروايتين شهيرتين هما « علبة العجائب » la boîte au merveille و « الماضي البسيط » le passé simple المكتوبتين باللغة الفرنسية . وكما جاء في كتاب la littérature francophonie depuis 1954 فإن هذا التاريخ يعتبر بمثابة مولد للأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية . وقد صنع هذا الأدب جيلا موازيا للجيل الجزائري الذي ظهر في عام ١٩٥٢ مثل محمد ديب ومولود فرعون وغيرهما وليس من المنصف أن نقارن بين عطاء نفس الجيل في البلدين ، وذلك لاختلاف العديد من الظروف التي عاش فيها الكاتب في كل من البلدين . فلا شك أن الحضور الثقافي الفرنسي في الجزائر كان أشد وأقوى . وقبل هذا العام ، على سبيل المثال لم يكن يوجد في المغرب أدب فرنسي مثلما حدث في الجزائر . كما أن اللغة العربية لم تكن تائهة في المغرب مثلما حدث في الجزائر . وعليه فإن أدبيين مثل شرايبي وسفيروي كانا يجيدان اللغة العربية الفصحى مثلما يجيدان اللغة الفرنسية . وسوف نرى أن الكثير من هؤلاء الأدباء الذين كتبوا بالفرنسية قد درسوا علوم القرآن في طفولتهم وحفظوا سورته الكريمة . في نفس الوقت الذي لم يبتعد فيه البربر عن الثقافة العربية .

وقد عرفت المغرب أدباءها الذين يكتبون بالفرنسية ، كما عرفت الذين يكتبون بالعربية . ولا شك أن الحركة الأدبية المغربية قد أفرزت عددا أقل من الأسماء البارزة من مثيلتها في الجزائر ، ليس فقط من حيث العدد بل أيضا من حيث الأهمية . ومن أبرز هذه الأسماء التي ظهرت في نهاية الخمسينات محمد خير الدين . وعبد الكبير الخطيبي . ومصطفى نيسابوري . وأيضا عبد اللطيف لمعبي .

والغريب أن أول مجلة أدبية ظهرت في المغرب كانت ، كما جاء في الكتاب المذكور ، تحمل اسم « انفاس » وقد صدرت عام ١٩٦٦ . وفي العدد الأول من المجلة . بدت الشكوك حول الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية . وتساءلت المجلة : « هل يجب أن نصرح أن هذا الأدب لا يخصصنا أكثر من أنه جزء بسيط منا ؟ » ليست لدينا اجابة حول حاجتنا لأدب يحمل ثقل واقعنا الحالي ، في مواجهة ثورة متوحشة تاطمنا .

وقد اهتمت المجلة دوما بالدفاع عن الأدب المكتوب بالفرنسية . باعتباره عربيا . ولا شك أن غير هذا قد دفع بالأدباء المغاربة الى الاحساس بأنهم غرباء في وطنهم فترك أكثرهم بلاده ورحل ادريس شرايبي الى بقاع الأرض كلها على سبيل المثال ، قبل أن يستقر في فرنسا . وفعل مثله عبد اللطيف لعبي . ثم الطاهر بن جلون . . وزادت أهمية التعامل مع هذا الأدب . فاذا انتقد المجتمع المغربي تصويره البعض يهاجمه ، وأن كاتبه مدفوع من الاستعمار لتشويه صورة العرب . وقد حدث ذلك بشكل واضح مع ادريس شرايبي عندما نشر روايته الأولى « الماضي البسيط » Le passé simple في عام ١٩٥٤ حيث اثار الرواية فضيحة في الأوساط المغربية . وراجت الصحف تكيل له السباب والشتائم وطولب باعدام الكاتب . فلم يكن أحد من الشعب المغربي يتصور أنه في اللحظة التي يشحذ فيها الجميع الهمم من أجل النضال للاستقلال . فان كاتباً ينشر رواية مليئة بالعنف حول تمرد شاب ضد أبيه . هذا الأب كما تصوره الرواية اقطاعي و « سيد » زمانه . وهو جلاد الأسرة . ورغم الأدب الطاغية ، فان التقاليد لا تحبذ قط أن يتمرد ابن ضد أبيه . فلا شك أن هذا يسقط كافة القوانين الاجتماعية . وفي فصل من الفصول يتحدث الابن عن أبيه وهو يمسك السكين ويفكر في أن يقتله . يبتسم الابن وهو يمسك السكين التي استعملها في فتح كتبه . كما استعملت في ذبح الدواجن في عيد الفطر . وحز رقبة الخروف في عيد الأضحى .

وقد دفعت الظروف بشرايبي أن ينكر أية صلة له بالرواية . ثم سافر الى بلاد عديدة لسنوات طويلة منها ايطاليا وألمانيا والنمسا ويوغسلافيا وبريطانيا . وتقول موسوعة أدباء المغرب باللغة الفرنسية أن شرايبي قد عاش في اسرائيل عامين (أو بالأحرى شهرين) باسم مستعار (١) . وقد نشر شرايبي رواياته كلها فيما بعد باللغة الفرنسية . منها رواية « التيوس » les boues عام ١٩٥٥ . و « الحمار » l'âne

(١) Dictionnaire des auteurs maghrebiens. Jean Dejeux , Karthala, Paris, 1984, p. 231.

١٩٥٦ . ثم « الحشد » la foule ١٩٦١ و « الحضارة أمي »
la civilisation, ma mère ١٩٧٢ ، وفي هذه الروايات كان - شرايبي
يتحدث بأسلوب انتقادي واضح للمجتمع المغربي . فهو يرى ان العالم يتغير
بينما بلاده لاتزال شابة صغيرة .

أما الجيل التالي الذي جاء بعد شرايبي وسفريوي فهناك محمد
عزيز الحبابي الذي عرف كفيلسوف وأستاذ جامعي . وهو يكتب باللغة
العربية . كما كتب أيضا بالفرنسية . ثم هناك فيلسوف آخر يدعى
عمانويل منير .

ويعتبر عبد اللطيف لعبي واحدا من الأدباء المرموقين في جيل
الستينات . حيث اصدر مجلة « انفاس » باللغتين العربية والفرنسية .
ولكن نشاطه الغالب هو قرض الشعر باللغة الفرنسية . أما مصطفى
نيسابوري فهو شاعر آخر جمع قصائده المكتوبة بالفرنسية في ديوانين
الأول في عام ١٩٦٨ تحت عنوان « ذاكرة عالية جدا » . ثم « ألف ليلة
وليلتين » عام ١٩٧٥ ، وبينما ازدهرت الرواية المكتوبة بالفرنسية في
الجزائر . فان الشعر المكتوب بالفرنسية قد ازدهر في المغرب . على
أيدي محمد خير الدين وزغلول مرسى .

لذا ، فليس من الغريب أن يبدأ الطاهر بن جلون ، عند ظهوره في
أوائل السبعينات ، ابداعه كشاعر . وقد التصق بالشعر فترة قبل أن
يتجه كلية الى الرواية . ونتيجة لأهمية بن جلون كأديب يكتب باللغة
الفرنسية ، ويعتبر الآن واجهة هذا النوع من الأدب المغربي فأننا سنوف
نخصص الجزء الغالب من حديثنا عن ابداعه . . خاصة ان هذا الابداع
قد توج في عام ١٩٨٧ حين فازت روايته « ليلة القدر » بجائزة جوناكور
وهو بذلك أول عربي يحصل على مثل هذه الجائزة المهمة .

والطاهر مولود في مدينة قاس في عام ١٩٤٤ . وقد كان الوليد
الوحيد في اسرة لم تنجب سوى البنات . وسوف نرى ان هذه التجربة
قد أرقت الكاتب كثيرا وعبر عنها في روايته « ابن الرمل » و « ليلة
القدر » . وقد هاجرت الاسرة بينما الطاهر في العاشرة من عمره الى
مدينة طنجة . وظلت هناك ثمانى سنوات . وعندما بلغ الثامنة عشرة
سافر الى مدينة الرباط لدراسة الفلسفة في الجامعة . ثم توجه الى
مدينة تطوان عقب تخرجه في عام ١٩٦٨ من أجل العمل كمدرس
للفلسفة . وانتقل بعد ذلك الى الدار البيضاء . نشر أولى قصائده في
عام ١٩٦٥ ثم قرر ان يدرس علم النفس في باريس . والتي اختارها
للاقامة منذ عام ١٩٧١ . حيث وجد وظيفة مناسبة في جريدة لوموند
التي لايزال يعمل بها حتى الآن .

نشر الطاهر بن جلون ديوانه الأول « رجال تحت كفن الصمت »
 hommes sous linceul de silence عام ١٩٧١ فى الدار البيضاء . أما
 بقية أعماله فنشرت جميعها فى باريس وهى على النحو التالى : « ندوب
 الشمس » ci catrice du soleil - ديوان شعر - عام ١٩٧٢ . و « حرودة »
 Harrouda رواية عام ١٩٧٣ . ثم « احاديث الجمل » le discours du
 chameau شعر عام ١٩٧٤ وديوانه « بذور الجلد » أصليلة .
 نكريات الطفولة « Grains de peau .. Asilah وهو كتاب نشر فيه محمد
 بن عيسى - وزير الثقافة المغربى - مجموعة من الصور . وفى
 عام ١٩٧٦ نشر بن جلون كتابه « ماتت اشجار اللوز متأثرة بجراحها »
 وهو عبارة عن مقالات قصيرة وقصائد شعر . وفى نفس العام نشر
 مختارات من الشعر المغربى الحديث باللغة الفرنسية تحت عنوان « ذاكرة
 المستقبل » . وفى روايته الثانية « انزواء العزلة » la réclusion solitaire
 وفى عام ١٩٧٧ نشر مجموعة مقالات فى علم النفس حول رسالة الدكتوراه
 التى كان يعدها تحت عنوان « منتهى العزلة » la plus haute de solitude
 ثم جاءت روايته « موحا المجنون . موحا العاقل » عام ١٩٧٨ . وفى
 عام ١٩٨٠ عاد مرة اخرى الى الشعر ليقدم ديوانه « خبايا الذاكرة » .
 A l'insu de souvenir ، وفى نفس العام ترجم الى الفرنسية رواية
 « الخبز الحافى » le pain nu لصديقه محمد شكرى وكتب لها
 مقدمة باللغة التميز . ثم نشر روايته « صلاة الغائب » عام ١٩٨١ .
 وقام فى عام ١٩٨٢ بنشر مجموعة من النصوص تحت عنوان « منفى
 الحجارة » l'exil de pierres وفى عام ١٩٨٥ نشر روايته « ابن الرمل »
 وجاءت روايته « ليلة القدر » عام ١٩٨٧ لتحصل على جائزة جيونكور .
 وفى عام ١٩٨٩ نشر روايته « يوم الصمت فى طنجة » ثم نشر روايته
 « غض البصر » عام ١٩٩١ ، و « تصاعد الرماد » ، و « الملاك الأعمى »
 ١٩٩٣ ، و « الرجل المحطم » ١٩٩٤ .

ورغم أن الكاتب يعيش فى باريس وينشر باللغة الفرنسية ،
 إلا أن كل أعماله تدور أحداثها فى المغرب . بين مدنها وفوق أديمها .
 وأبطال هذه الروايات هم مغاربة وعرب فى المقام الأول . ولعل هذا هو
 سر مذاق الكاتب . وكما جاء فى جريدة الوطن الكويتية انه « كلما كنا
 قريبيين من مسقط رؤوسنا امتلكنا أكثر الفرصة فى أن نخاطب العالم
 كله . وفى أن نكون مفهومين من الجميع . وإذا كتب احدا رواية عن
 الانسان عموما فانه لا يؤثر فى أى قارئ بشكل خاص » .

« اذن ، هويتى واضحة • هى عربية ومغربية • وبالتالي فان كتيبى تشهد على هذا الانتماء » (١) •

ويقول بن جلون فى نفس الحديث انه « لا مشكلة هوية ادى • أقول ان لغتى هى الأدب • ولا اشك فى عروية ما أكتب • ومن البدهى أن يكون هذا الأدب الذى أكتبه عربيا فى الجوهر والروح وليس فى الكتابة » •

« لم نعد كتابا هامشيين فثمة جمهور كبير يتابعنا الآن • وهو الذى يمنحنا الشرعية والاعتبار ، وليست الأوساط الأدبية الفرنسية » •

ولو نظرنا الى ابداع بن جلون ، فسنراه مرتبطا فى المقام الأول بالمكان العربى • قضايا • ومشاكله • ومعاناته • وقد بدا هذا بشكل واضح فى كتابه « ماتت اشجار اللوز متأثرة بجراحها » فهى على سبيل المثال يدافع عن القضية الفلسطينية والفلسطينيين • ويقول فى خطاب له وجهه الى ابنه : « لقد توقف اليوم داخل تجعيداتى منذ أن مرت آلاتهم الدامية فوق منزلنا • كم هى مرعبة تلك السيارة الضخمة التى تنتهش الشئ القليل الذىبقى لنا : قطعة من الأرض • سقف وثلاث اشجار • انها آلة تصنع الضوضاء ، تلمع الشمس وتنفجر فى الضحك المتواصل عندما تخرج من الزهور البرية الصغيرة الهشة التى تسعى الى النمو • رأيت أسنانه المصفرة من دماء الأرض التى تحطمت فوق حفنة رمال • رياح خفيفة تحز جذور الشجرة • تهبط الشمس وتجمعها • اعتقد انها تسكن سحابة صغيرة جامدة لا تتركنا منذ ان كنا بلا سقف • بلا مأوى • اخوك الصغير يجرى كى يقفز • كتب المدرسة يعلوها التراب • لقد خفنا • وحاولت الآن ان تلتهمها » •

« مجروحون من أرضنا • خجلون فى اشجارنا • كنا هناك ثلاثتنا • يصيبنا موت مفاجئ • وجزء منا اعتقد انه قد مات • لقد انتزعوها بالطبيعة فى الفجر ، ظللنا هادئين • فتحوا جراحنا واحتسينا موتنا • كان له طعم المر • قالت أمك ان لها - جراحنا - عطر الياسمين • فتحت السماء على نداء العصفور اليتيم • ولاحظنا جسد الضوء مغطى بالدماء الجديدة • ترنحت السماء فى هذا اليوم لأن الظلم العارى قد سطر خطوطه فوق أرضنا وأجسادنا » (٢) •

(١) لسنا هامشيين • عقل العويد • جريدة الوطن (الكويت) ١٩٨٩/٤/٢٥ •

(٢) Les amandiers, sont mort de leurs blessures. T. Ben jelloun, maspero, Paris, 1976.

وبهذه اللغة الشعاعية الراقصة يكتب الطاهر مقالاته السياسية .
فى مقال له ، أو لعله نداء باطنى ، الى الشاعر الفلسطينى محمود درويش بعنوان « أرض يتيمة » يقول : « محمود درويش . هو هذا الصوت الذى يشدو بالحب . صوت مشدوه بالشعور المضفرة من البساتين التى تركها عند الفجر . فى سن السابعة . عاش فى دير السد . الأرض محتلة . فوق أرضى « بوطنية لا حدود لها » . غير محددة المصير . والكرباج الذى يسقط من الضحك عندما يحوم الطائر بين السحب وزيد البحر . عاش محمود فى حيفا حتى عام ١٩٧٠ . وفى كل يوم يقدم شعرا وحجرا . يصنع من كل جملة حقلا من الوحدة المليئة بالصور وفروع أشجار الزيتون . انه منفى خارجى . فى موسكو والقاهرة ثم بيروت حيث أثار ضجة عابرة » (١) .

وفى مقال آخر بعنوان « العربية . العربية » حول زيارته للمسجد النبوى الشريف بالمدينة المنورة ومدى شعوره بالزهية والخشوع الذى أحس به كتب : « ليست الصحراء قصيدة . ولكنها أيضا أفكار مسبقة . وصورة ملونة مرسومة بالنيون أعلى العمارة التى لا تنتهى فى أركان الشوارع التى لا سقف لها . انها ذكرى شاحبة . تنتقل فوق جبين السحب التى تبدو فى وجه السماء حيث تكمن النجوم » .

وتؤلم الوحدة الكاتب دوما . ويقول : « أنا صغير فى وحدتى . لكننى أضحك . لم أقص لحيتى هذا الصباح . وليس هذا أمرا جسيما . فلا أحد ينظر الى . انهم يقرءون فى الدهاليز . يقرءون فى المترو . لا يضيعون أوقاتهم . بينما أقف فى الممرات أسمع الشباب يغنون . فأضحك وأفرح . سوف أتكلم مع أى شخص . لا ، سوف يعاملنى كشحاذ . من هو الشحاذ . من هو الشحاذ فى هذه البلاد ؟ لم أره قط . أناس ينزلون متكاتفى الأيدي . وآخرون يصعدون . أشعر أنهم متشابهون . سوف أتكلم مع هذا الثنائى ، سأجلس أمامهما طالما أن المكان شاغر . وسوف أخبرهما بشيء لطيف أشبه بمواء القط أو عواء الذئب » (١) .

وما يكتبه الشاعر هنا فى صورة مقالات ليس سوى نوع من التعبير الشعري المنثور عن أشياء يحسها . ولذلك فإن هذه الانطباعات قد بدت مجسمة كثيرا فى هذا الكتاب عن القصائد . لكن موضوع الوحدة الذى يعانى منه الكاتب يطارده فى قصائده وانطباعاته . . فهي يكتب عن « طبوغرافية » الوحدة . وهناك مجموعة قصائد قصيرة متناثرة

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

جمعها تحت عنوان « أصيلة » فصل الزبدة « وهى قصائد لا تزيد كسل
منها بأية حال عن خمسة أو ستة أبيات » قليلة الكلمات مثل :

أدير رأسى للمدينة
وأهازج البحر
واستعبد صوتى
كأنه المرج
الأطلال تحتفظ بندوبها
ويسكب الزبد ملحا فوق الهلب
ملح كثير يثير مشاعر الأطفال

وفى آخر مجموعة من هذه القصائد هناك قصيدة رائعة يقدمها قائلا:
« أنا فى الحكمة والحقيقة » أمتلك مفاتيح المدينة » سيد البحار
والصيادين » أنا اليوم مقبرة فى الأرض الرطبة » أجمل المقابر التى
أصابها الجنون » حيث ينام فيها المجانين ومرضى الحب » المرضى
الحقيقيون »

.. أما القصيدة فيقول فيها :

أنا مجنون بعائشة
الأكثر حسنا من القمر
النقية كجنونى
ليس من الصدى
أن أبكى وأصيح وأسكت
أرقص فى الهلب
وأتكلم مع الموتى
بينما يرتجف المفتاح
كتاب مفتوح للأطفال الخائفين
أنا مقبرة الفقراء

أما كتابه « ندوب الشمس » فهو يضم كذلك مجموعة من القصائد
الطويلة استوحاها من جو المغرب وأطلق عليها اسم « مراکش » كما يضم
قصصا قصيرة بلا عنوان » ثم ثلاث قصص أقرب الى الانطباعات منها

الى فن القص حيث مزج الشعر بالمسرد لدرجة يمكن تصورها قصائد قصصية قصيرة . مثل « الجمال » و « الشجرة » وهى كلها تعبر عن الحياة فى شمال أفريقيا : « من وقت لآخر تمت الشجرة نبضاتها . وتتمدد جذورها . سرعان ما يستفيد منها الأطفال كى يخرجوا ويلفوا فى الغابة العارية وهم سعداء . تدور الشمس بين أصابعهم . ويفتحون أذرع السماء . ويهرب الصباح بين أشواكها . كى يشهد على إبحار المهاجرين » .

وفى الفصل الأخير من هذا الكتاب يقدم بن جلون انطباعه حول الكتابة قائلا : « اكتب لأنه ليس لى وجه . اكتب لأعبر عن التناقضات . التناقض الذى يقربنى من كل هؤلاء الذين ليسوا انا . من كل الذين يصنعون الجنود الذى يسيطر على ويخوننى . لا اكتب « من أجل » أو « فى » أو « مع » أى منهم . ألقى نفسى فى موكب . وأهرول الى عزلتى حيث الكلمة لاهثة ويصبح الفراغ أكثر اتساعا » (١) .

ويضم ديوان « أحاديث الجمل » مجموعة من القصائد المغربية المجنونة التى تعكس شعور الكاتب بفراغ الوحدة والحنين الى الألفة . وبين بعض فقرات وقصائد الديوان ، يقدم الطاهر بن جلون كالعادة مقتطفات نثرية اختارها هنا من كتاب « هكذا تكلم زرادشت » لنييتشه . وقد أهدى احدى هذه القصائد الى الشاعر محمود الهمشري التى يقول فيها :

لا تبكوا الموتى

لقد تعلمت من الرمال

وتعلمت من السجر

وتعلمت من الشمس

أن الموتى ليسوا فى حاجة الى دموعنا

ويبدو بن جلون مهموما دائما بقضية فلسطين . فى ديوانه عن « خبايا الذاكرة » يكتب أشعاره عن قضية فلسطين وعن الحرب الأهلية فى لبنان . ويبدو مدى تغلغل مشاكل بلاده العربية فى وجدانه وهو فى مهجره الذى اختاره . فهو يفكر فيها وهو يركب المترو . وأيضا حين يجوب شوارع المدينة التى يعيش فيها . وقد عبر عن هذه الأحاسيس فى ديوانه « منتهى العزلة » قائلا : « اذا حدث وتركت باريس الى المغرب أو الى أى مكان . فأننى أفتقد هذا النفور . مثلما أفتقد وجوه ومشاعر هؤلاء الأصدقاء الذين ارتبطت بهم فى هذه المدينة . لقد تربيت أول الأمر

Cicatrice du soleil. T. Ben jelloun. Paris, Maspero, 1982.

(١)

فى قاس ثم فى « طنجة » • وسط حضارة عربية داخل منزل • فرنسية عربية فى المدرسة • لذا لم يبد لى الطرف الآخر من البحر المتوسط غريبا تماما • فباريس مثل المغرب • بها أسواق كبيرة • واللوان وروائح • يحدث أن تنتابنى الرغبة فيها • فى سوق باريس ليس لك الحق أن تلمس أو تذوق بل عليك أن تختار بعينيك وتدفع بعذ النظرات بالعيون • ربما لهذا السبب فى باريس وحدها ثلاثمائة وخمسون قاعة عرض سينمائى • لذا فان مخرجى أفلام ما قبل الحرب - مثل كارنيه ورينوار ورينيه كلير - دائما ما يظلون فى الذاكرة حتى الآن •• الآن هناك سينمائيون جيدون لكنهم ليسوا فنانيين كبارا » (١) •

ويقول فى نفس الكتاب ان الأديب فى العالم الثالث فى حاجة ان يتعرف الى كتاب آخرين وأنه قد تعرف على جان جينيه الذى علمه حياء الأدباء • أما صديقه الناشر ماسبيرو فقد ساعده على نشر كتبه فى داره الخاصة التى طبعت أغلب دواوينه الشعرية •

هذا هو العالم الشعرى للطاهر بن جلون •• ولكن ماذا عن

رواياته ؟

لا شك أن هناك أشياء عديدة من ذاكرة الكاتب قد تجسدت فى هذه الروايات • مثلما تجسدت فى أشعاره • والذاكرة خصبة بالأمكن والأشخاص الذى يعيشون عليها • وفى أغلب روايات بن جلون هناك جزء من سيرته الذاتية • هذه السيرة متناثرة فى هذه الروايات بشكل يمكن الإمساك بها بسهولة وأيضا يمكن أن تفلت منك بسهولة • فالكاتب يصوغ هذه السيرة ببراعته الفنية التى لا تجعله يقع فى شرك السيرة الذاتية التى قد تنحى بالكاتب عن القص الروائى •• وقد تؤثر كثيرا فى فنية العمل : وفى رواياته يبدو المكان ، والأسرة • عماد كل أعماله الفنية • ولا شك أن الطرفين قد تفاعلا معا فصنعا مزيجا خاصا لكل منهما الآخر •• فلا يمكن أن تذكر الأب والأم دون أن تذكر البيت الذى عاشا فيه مع أبنائهما • ولا المدينة التى انتقلا إليها • والمدينة هنا ، كما عاش بن جلون هى قاس • أو طنجة • انهما دائما نفس المدينتين ، كأن العالم لم يتحرك خارج حدودهما •• ورغم العالم الرحب الواسع الذى ذهب اليه بن جلون فيما بعد ، فانه أثر أن يحبس نفسه فى هذه المدينة ، كما أن الكاتب يذكر مدنا أخرى مغربية مثل الدار البيضاء التى يراها فى رواية « حرودة » مدينة المستقبل • أما طنجة فانه يداعبها فى نفس الرواية ويطلق عليها اسم « الخيانة » وهذه

A l'insu du souvenir T. Ben jeloun, Maspero. Paris, 1980.

المدن بالنسبة للكاتب هي مدن الطفولة . وفي هذه المدن تتباين أشكال الناس خاصة النساء . فهناك المرأة الفاضلة الطيبة ، وهي غالبا أمه كما أن هناك بنات الهوى .

ويمكن أن نجد كل هذا العالم والسّمات في روايته الأولى « حرودة » والذي تكرر بعد ذلك في كل رواياته ، فهو يهدى الرواية إلى أمه . تلك المرأة التي عليها أن تتعامل مع الأب كأنه البطيرك . أو « الاله » - مثلما حدث في رواية شرايبي الأولى - والمرأة هي التي تصنع تمثال هذا الرجل الذي هو أبوه .

وفي رواية « حرودة » لا ينسى بن جلون أنه شاعر . فيتغنى لها ويصفها شعرا قائلا :

حرودة

طير

نهسد

امراة

عروس بحر

مجسدة في الكتاب (١) .

وحرودة امرأة هوى تختلف كثيرا عن أمه ، كما سبقت الإشارة ، وجسدها يتعري بسهولة أمام الكلمات المكتوبة . وهو ليس جسدا عاريا . بل هو جسد مقدس يناسب هذه المهنة . وهي في منظور الكاتب نموذج للمرأة كما جاء في قصيدته . وحرودة تعيش في فاس . وهي مكان متسع لامراة مثلها . وفي شهر رمضان تبدو المرأة مختلفة تماما حيث يحل الورع على المدينة . وهناك مزج بين المدينة التي يعيش فيها الكاتب وبين المرأتين اللتين هما أمه وحرودة . فهو معجب بكلا النقيضين . وإذا كانت فاس مدينة حرودة . فإن طنجة مدينة واسعة بها الأطلال والمؤسسات وهي مدينة البلور . والجبل الذي يحوطها حاملا ذكرى من أيام الحرب . كما أن « طنجة » تخفى وجهها . وتبدو شاحبة وهي تكذب عليك » (٢) .

وقد بدت نفس ملامح الأشخاص والأشياء في روايته الرابعة « صلاة الغائب » التي يروى فيها أيضا جزءا آخر من سيرته الذاتية . ومع ذلك فإن كل شيء يبدو أشبه بالخيال . عدا تلك الأسئلة التي تتعلق بالهوية والجذور والكتابة فهي أشبه بيوميات خاصة لشخص يبحث عن

(١) Harrouda, T. Ben Jelloun, Denöel, Paris, 1974, p. 7.

(٢) المرجع السابق .

هوية ويريد أن يعطى لجذوره معنى . فكل شخص يقدمه الكاتب يكافح في مجاله . و « يمنى » المرأة التى سوف تقود الآخرين وهى تعبر الغرب ليست صورة حقيقية من امرأة كانت تحمل نفس الاسم ، عملت فى الهوى وعاشت فى مدينة فاس . انها بالطبع صورة متكررة من حرودة . ولعلها نفس المرأة . أما سندباد فهو رجل فقد الذاكرة بعد أن صدم فى علاقة عاطفية وكأنه يتخلى بالمجتمع من حوله عن هوية ارتبط بها كى يعيش فى عالم جديد . انه يعيش فى المقابر قريبا من شخص أكثر منه فقرا . والفقر هنا هو فقر الروح . انه يحمل اسم كلبه « يوبى » . وهناك الطفل الذى عليه أن يذهب مع الثلاثة الى مقبرة الشيخ « أبو العينين » لقد ولد فى المقبرة تحت شجرة زيتون . ليس له اسم . وهو كما يصوره الكاتب انسان بكر يبدو واضح الوجه .

تتحرك هذه المجموعة بقيادة « يمنى » من الشمال نحو الجنوب . فى داخل البلاد . يرون مغرب الأمس واليوم . ينتقلون بين المدن والقرية . من أماكن حقيقية الى أخرى يتخيلونها . انهم يتمتعون حين ينسبون أن الزمن يدور من حولهم . ويروح واحد منهم يتذكر زمن المقاومة ضد الاستعمار التى كان يقودها الشيخ أبو العينين .

ويقول الكاتب حول ظروف تأليفه هذه الرواية : « كتبت هذا الكتاب ابان اضطراب فى مشاعرى ، عشته يوما مع الضياع . وطاردت أبطالى . وسافرت بنفسى معهم وعندما حانت لحظة فراقهم . طاردونى فى أحلامى ونومى وحياتى . لقد تسلطوا على . كانت تلزمنى بضعة أشهر كى أخلص نفسى منهم . فهى ليست سيرة ذاتية الا من خلال خيال يبالغ النقاء . وهذا هو السبب الذى جعلنى أكف عن النوم ، (١) .

واذا كانت هذه الروايات قد بدا فيها المكان بطلا من خلال المدينة والأشخاص الذين يعيشون فيها . فان الأسرة هى البطل الأساسى فى روايته ، أو فلنقل ثنائيتيه ، « ابن الرمل » و « ليلة القدر » فنحن هنا أمام بن جلون بشكل آخر . ذلك الصبى الذى وجد نفسه فى أسرة أنجبت عددا كبيرا من الإناث ولم تنجب سواه . فاستحق كل الرعاية والاهتمام باعتباره الذكر الوحيد فى المنزل . وقد قام الكاتب بتغيير هويته ليتخيل أحمد الطفل الذى جاء فى أسرة لم تنجب سوى البنات . وأحمد هذا ليس سوى بنت . لكن رب الأسرة أقسم على امراته ذات يوم أن تلد ولدا . حتى لو كان بنتا . فسوف يكون ولدا . لذا فعندما ولدت الأم أنثى ، كان على الأب أن يعلن على الملأ أنه رزق « أخيرا بمولود ذكر . بعد أن أعطاه الله سبع بنات » .

والثنائية الروائية تدور أحداثها على لسان هذه الأنثى - الذكر ،
أو الأنثى التى عليها أن تتصرف كأنها ولد . فهى عندما كبرت صارت رجلا
يحمل فى جسده صدر امرأة . والأب هنا مثل الأب فى كل الروايات التى
كتبها بن جلون . فهو بين «سيد» و «رب» المنزل . ويحس أن رجولته مفقودة
طالما أن امرأته لم تنجب له صبيا واحدا . يصرخ : « بطنك يا امرأة ،
تعجز عن حمل صبي » . صرخ الحاج : « لذلك قررت أن تكون الولادة
الثامنة عيدا . احتفالا عظيما يستمر سبعة أيام وسبع ليال . ستصبحين
أما حقيقية ، ستصبحين أميرة لأنك ستكونين قد انجبت صبيا . .
الطفل الذى ستضعينه سيكون ذكرا . سيكون رجلا . سيدعى أحمد حتى
ولو كان أنثى ! لقد أعددت العدة لكل شيء وهيأت لكل شيء . سنأتى
بالقابلة العجوز ، لالا راضية . فهى لن تعيش بعد ذلك أكثر من عام
أو عامين . وسأعطيها بالتالى ما يلزمها من نقود ، كى تحتفظ بالسِر . . »
ويقول الكاتب فى فقرة أخرى من نفس الفصل من الرواية المعنون
« باب يوم الخميس » : « عليك أن تبكى من الفرح . انظري . انظري .
انه طفل . لا حاجة لاختفاء وجهك . يجب أن تكونى فخرورة . لقد
أعطيتنى طفلا بعد خمسة عشر عاما . غلام . انه طفلى الأول . انظري
كم هو جميل ! . المسى أنامله . وشعره . انه رجل . ثم استدار ناحية
القابلة وطلب منها أن تسهر على الطفل وألا تترك أحدا يقترب منه .
وخرج من الغرفة تعلوه ابتسامة عريضة . يحمل كل رجولة الدنيا
فوق كتفيه . أحس وهو فى الخمسين من عمره انه شاب . لقد نسى .
أو لعله تناسى ، كل ما دبره . لقد رأى فتاة . ولكنه تصور بكل ثقة أنها
غلام » (١) .

وعندما كبر أحمد بدأ يدرك الحقيقة . وراحت الكوابيس تنهشه .
انه فتاة لم يكن أمامها سوى أن تسجل معاناتها يوما بعد يوم . فراحت
تراسل صديقا مجهولا اكتشف سرها وحرص على مقاسمتها أحزانها
وهمومها . وربما من موقع المحب العاشق «تنتقم الوجوه من حديثى بالعَبُوس
الدائم لذلك أبعدا برفق ، وأضعها جانبا . أكسها فوق بعضها البعض .
تنسحق ، تتألم . بعضها يتمكن من الصراخ . صراخ اليوم . نعاء .
اصطكاك الأسنان . وجوه بدون ملامح . ليست لرجل ولا لامرأة .
لكنها أشكال لجمال مطلق . . الأيدي تخوننى أيضا خاصة حين
أحاول تزويجها مع الوجوه . المهم هو تحاشى الفرق . احتفالية الفرق

(١) باب يوم الخميس - مجلة الأديب المعاصر - ترجمة محمود قاسم . حيران

تأخذنى • اننى مهدد بخسارة كل شيء • وليست لدى الرغبة فى أن أجد
نفسى فى الخارج مع الآخرين » (١) •

وتبدأ أحداث الجزء الثانى من الثلاثية - ليلة القدر - حين يموت
الأب • ويكون هذا الحادث بمثابة انطلاقة الشرارة لكل مشاعر الأنثى
المتفجرة فى الفتاة التى عليها أن تنتبذ اسمها الرجولى • وتعطى لنفسها
اسم زهرة • وتقرر أن تنطلق فى المدن والبلاد • وبين جلون يطلق على
بطلته اسم « زهرة الزهور » التى تحس كم ينهد صدرها فى جسدها •
وترغب أن تعيش حياتها • لكن هل يمكنها أن تهرب من المصير الذى
سجله لها أبوها • عليها أن تترك النساء المخنوقات وتذهب الى حيث
يقودها جمالها • ورغم أنها فتاة ثائرة متمردة القلب • حيوان غريب
شارد • الا أنها تشعر بأنها قريبة دائماً من الله • وتحمل معها المصحف
الشريف : « انظر كم أنا طفلة ذات هوية مزدوجة وملقحة • أنا طفلة
مقنعة - حسب رغبة أبى الذى أحس بالخزى والعار لأنه لم يرزق بولد •
وكما تعرفون ، فأنا هذا الولد الذى كان يحلم به • أما الباقي فان البعض
منكم يعرفه • وسمع الآخرون أطراف كلام من هنا أو هناك • هؤلاء
الذين يغامرون بقص حياة ابن الرمل والذين يعانون بعض المضايقات •
بعضها حقيقى والبعض الآخر فشل فى أن يفقد روحهم • لنحكى لكم
قصصا • انها ليست قصتى بالفعل • رغم اننى حبست نفسى فيها • فقد
جاءتنى الأخبار • ولست مندهشة وغير متضايقه • كنت أعرف اننى
سوف أترك خلفى الحكايات المثيرة للدهشة • ولكن لأن حياتى ليست
خزانة • فقد بدأت فى ترتيب الأحداث • واكشف لكم السر الذى ظل محفورا
خلف الجدران السوداء لبيت له سبعة أبواب » (٢) •

وحول ثنائية الحدث فى الروايتين تكلم بن جلون فى مجلة اليوم
السابع : « أما موضوع طبيعة رواية « ليلة القدر » فهي ليست تقمة لرواية
« ابن الرمل » وانما هي نظرة مكملة لها • • قد تكون تقمة للرواية الأولى
بمعنى اننى أخذت نفس الشخصية ولكنى لم أعالجها كما تركتها فى ختام
رواية « ابن الرمل » • بل وضعتها هنا وسط الأحداث وأعطيتها امكانية قص
وقائع حياتها ومعاشيتها • ستعيش الشخصية حالات صعبة ومؤرقة
لكنها ستخترق هذه الصعوبات لفرض هويتها وحتى يعترف بوجودها •
والذى سيتعرف بها فى أول الأمر هو انسان ضير • لماذا ؟ لأن شخصيته

(١) ابن شرعى لواقع معقد • كمال طويبة • مجلة « جديد » العدد ١١ ، ١٩٨٦ .

ص ٢١ •

La nuit sacrée, T. Ben Jelloun, seuil. 1987, Paris.

(٢)

« ليلة القدر » المحورية هي شخصية حجبت لفترة طويلة وعاشت في الخفاء . فليس في امكانها ان تظهر دفعة واحدة تحت الكشافات وأمام أنظار ستقصي مفاصلها لتخلع عنها الحجاب الذي كان يغلف هويتها . فمن المنطقي الا تهدي كيانها الجسدي الا الى انسان لا يبصر . هذه هي النقطة الأولى . ثم ثانيا ، فالعلاقة التي ستتوطد عراها بين الأعمى وهو القنصل وشخصية الراوية هي علاقة روحية وفكرية وشعرية (١) .

والطاهر بن جلون يتعامل مع روايته وكأنها « حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة » فنحن لو نقبنا فيها سنعثر بكل سهولة على العناصر التي طبعت الليالي العربية : الجنس في المقام الأول ، ثم الغرابة ووصف العلم وكأنه جزء من الحقيقة . ثم تحول الشخصيات والأقنعة والأسرار التي يحل بعضها صراحة وبعضها تلميحاً . ثم هناك الأمكنة : الروض والعمار ، والحمام ، والبيوت الحافلة بالغوامض وزوايا الأسوار ، والشخصيات التي تخرج من المألوف سواء أكانت شخصيات الحلم أم شخصيات الواقع : الجلسة بمظهرها الذي تطنب الرواية في وصفه ، والعم وزوجته ، وشيخ الروض المعطار ، ثم هناك الجن (في الحمام) والأشباح . وهناك الوقوف خارج الأزمنة : فالليل يختلط بالنهار ويضيع الزمن من حيث ان مرور الوقت لا يعكس أي تأثير على الأحداث كم أمضت زهرة في الروض المعطار ؟ كم أمضت في بيت الجلسة والقنصل ؟ كم أمضت في السجن ؟ لسنا ندري . والطاهر بن جلون يستعير هنا من الحكايات الشعبية العربية هذا الوقوف الملح خارج الزمن . وهناك ذلك المزج المربى بين الجنس والعاطفة وبعض الأمور الأساسية الأخرى . ولعل هذا العنصر يتخذ قوته الاستثنائية من كون الرواية تحكى لنا بصوت البطلة نفسها . وهناك أخيراً عنصر الإيهام . فتماماً كما ان ابن جلون يختتم « ابن الرمل » على حيرة القراء أمام أحمد . كذلك نراه يستمرىء اللعبة هنا فيوقعها في الإبهام إزاء العديد من الأمور . مثلاً : إزاء علاقة الجلسة بالقنصل « (٢) » .

يعود المكان واضحاً من جديد في رواية « يوم من الصمت في طنجة » المنشورة عام ١٩٨٩ والتي يتحدث فيها عن رجل عجوز مريض قابع في حجرة . وذات ليلة باردة وبينما هو في وحدته . والجدران

(١) الشاعر يشاغب ، حوار خميس خياطي . اليوم السابع . ٢٣ نوفمبر ١٩٨٧

ص ٢٨ .

(٢) رحلة العمر ، ابراهيم العريس . اليوم السابع . ٣٠/١١/١٩٨٧ ، ص ٤٢ .

تسرب الصقيع • تنتاب الرجل رغبة أن يخبر أصدقاءه • ولكنه يكتشف أن كل الأصدقاء قد ماتوا • فتنتابه الرغبة فى المرأة • ويكتشف أن الخادمة ليست سوى امرأة دمية • تنتابه الرغبة فى أن يقص الأنسجة والأقمشة مثلما كان يفعل فى شبابه فى محله ، ولكنه عندما يحاول أن يفعل هذا يكتشف أن أصابعه ترتعد • ورغم هذا فهو يصر أن يفعل ذلك ، حتى لو القى بكل الأدوية من النافذة •

ورجل مثل هذا ليس له حاضر • لابد أن يعيش فى الماضى وأن يسترجع فى ذاكرته كل ما حدث وما لم يحدث فى السنوات الخوالى • وعليه أن يعيد تجسيد الوجوه والأصوات مرة أخرى • وأن يرى ، من جديد ، كيف كان الجيران القدامى كأنه بهذا يصنع حياة داخلية من الصعب الإمساك بها الا فى الذاكرة فى يوم ملئ بالصمت • لا يجيء أحد كى يتحدث إليه • وعليه الآن أن يقبل فكرة أنه رجل عجوز • بل وأن يموت وقد اتسع صدره لنهايته الهادئة •

وهذا الرجل أقرب فى صفاته الى صورة الأب فى كل روايات بن جلون • لكنه هنا يعيش فى وحدته ويومه الأخير • فهو أيضا عاش بين فاس وطنجة • • وفتح حانوتا للحياكة فى المدينة • وفى طنجة كان هناك الكثير من الجيران الطيبين • وكانت زوجته تعاني من أنها قصيرة القامة والرجل العجوز رغم أنه يستسلم للحظة موته ، الا أن هذا لا يحدث بسهولة • فلا شك أن كل هذا الماضى الذى يقبع فى ذاكرته يجعله يقاوم كى يعيش لحظات أخرى • ويقول بن جلون ردا على أوجه المقارنة بين أبيه وبين هذا العجوز : « لقد فكرت دوما فى أبى الذى عاش دائما فى طنجة وأنا أكتب هذا النص • بالنسبة لى فأنا لم أكن أتصل به الا بصعوبة • وهذا الكتاب ليس سوى وسيلة لتحديد مشاكله • وليس من أجل حلها » (١) •

وفى روايته المنشورة عام ١٩٩١ تحت عنوان « غض البصر » ينتقل بن جلون الى إحدى المدن البربرية فى جنوب المغرب ويجعل الرواية ، مثلما حدث فى ثنائيته - تدور على لسان راوية تواجه عمته القوية الشكيمة • وتحلم بأبيها الذى رحل الى فرنسا من أجل العمل والذى يمثل بالنسبة لها شيئا مهما • تتصور الفتاة أن أسلافها القدامى قد تركوا لها كنزا فى مكان بجزال طنجة • وأنها الوحيدة التى تعرف اسم المكان الذى به الكنز • وذات يوم يعود الأب من سفره ، بعد أن يموت أخوها القزم كى ينتزع كل أبناء أسرته من جذورهم ويذهب بهم الى باريس •

(١) Un livre a Tanger, Gilles Pudlowski, le point, 8-1-1990, p. 12.

حيث سيقوم الجميع فى حى « جوت دور » - نقطة الذهب - الذى يعتبر
تجمعاً للعرب المهاجرين من شمال أفريقيا .

وما أن تصل الراوية الى باريس حتى تكتشف عالماً آخر لم تكن
تتصور قط أنه موجود . فهى ترى السيارات الفخمة لأول مرة . وتطالع
الكتب . وتصطدم بالعنصرية الأنانية والحب . وتحس كأنها ولدت من
جديد ولكن هل تنخلع من جذورها القديمة ؟

والفتاة فى هذه الرواية تتسم أن لها عينيْن جميلتين وواسعتين
وجبهة عالية مليئة بالغموض . وفى الكتب التى تبدأ فى قراءتها ، وهى
القروية البريئة ، تبدأ فى التعلم أن هناك أشياء جميلة جمال الخيال الذى
كانت تتمتع به وهى فى القرية . ولذا فإنها تصنع لنفسها ما يسمى بالبعد
الثالث ، انه يمزج بين حلمها وخيالاتها وبين ما تراه من واقع .

ولا شك أن بن جلون فى هذه الرواية « يؤكد توهانه بين منفيين
وثقافتين يحاول أن يبحث عن مكانه بين حياتين وحضارتين » (٢) .

ومثلما فعل فى « ليلة القدر » فان الكاتب يمزج بين الواقع المعاش
والأسطورة المتمثلة فى الخيلة . ويقول فرديريك فيتو ان بن جلون قد
استفاد من تجربة زلزال اغادير الذى حدث فى أوائل الستينات . فقد مات
الكثيرون ، لكن من بقوا على قيد الحياة قد فقدوا الذاكرة . وظهر هناك
ما يمكن تسميته ببائعى الذاكرة ، ومع ذلك فان البطلة هنا قد عاشت
كوابيس بدت كأنها تتبدد . فقد بذلت الراوية هنا الكثير من أجل أن تتعلم
القراءة وأن تصنع مصيرها . وهى التى لم يكن عليها سوى الامتثال
وهى طفلة صغيرة فى المدرسة ، أصبحت لها الآن شخصيتها
الواضحة (٢) .

هذا هو عالم أشهر كاتب الآن من المغاربة الذين يبدعون باللغة
الفرنسية . وقد اخترنا أن نلقى عليه أضواء عريضة لأنه بالفعل
النموذج الأكثر وضوحاً فى هذا الأدب . الأكثر إخلاصاً لمبنيته العربية .
وصحيح أن هناك أسماء أخرى مثل التى ذكرناها فى بداية حديثنا .
لكنها ليست بنفس الخصوبة والجودة . ويبقى بن جلون الاسم الأكثر
معاناة فى الأدب المغربى المكتسب بالفرنسية .

(١) L'éternelle étrangère, Michele Gazier. Telerama 2-1-1991, p. 12.

(٢) La chasse au Tresor, F. Vitaux, le nouvel observateur 10-1-1991, p. 93.

ادريس شرايبي :

ولد ادريس شرايبي في مدينة الجديدة في ١٥ يوليو ١٩٢٦ . ويقول قاموس الأدباء المغاربة الذين يكتبون بالفرنسية ان تاريخ الميلاد غير معروف بالضبط . وانه قد اخذ بالتقريب (١) ، كان له خمسة أشقاء . وقد جاء ذلك من أن أباه كان يقيما من الأب والأم فمال الى انجاب الأطفال . أما أمه فكانت امرأة من طبقة الذوات كما يقول الكاتب . وقد درس ادريس في مدرسة القرآن الكريم . ثم انتقل الى المدرسة الفرنسية . وكتب الشعر وهو في العاشرة من العمر وحصل على جائزة أدبية كشاعر . وفي سبتمبر ١٩٤٥ ترك المغرب كي يدرس علوم الكيمياء في باريس . وحصل على شهادة في الهندسة الكيماوية عام ١٩٥٠ . ثم وجه دراسته بعد ذلك الى طب الأعصاب . ولكنه لم يستكمل دراسته العليا في هذا المضمار . فراح ينتقل مسافرا بين ايطاليا وسويسرا وبلجيكا والمانيا والنمسا ويوغسلافيا وانجلترا وأسبانيا ودول أخرى مارس فيها العديد من المهن كالصحافة والهندسة والتصوير . وكبائع متجول وحارس ليل . ومدرس للغة العربية . ويقال انه عاش عامين في اسرائيل ، حسبما جاء في القاموس السابق الذكر باسم مستعار . ثم مارس الكتابة . وعمل منتجا في الاذاعة الفرنسية . وقد ظلت برامجه تبث لفترة طويلة . وقدم برامج للتعريف بالدين الاسلامي للقارئ الغربي مع الكاتب أندريه روسو . وفي عام ١٩٦٦ اهتم بالمرح الزنجي . ومسرح الشرق الأوسط . وتزوج من امرأة فرنسية أنجبت له خمسة أوفال . وعمل في عام ١٩٧٠ مدرسا للغة العربية في مقاطعة كوبيك الكندية .

نشر ادريس شرايبي روايته الأولى « الماضي البسيط » عام ١٩٥٤ . والتي أثارت ضجة كبرى في تلك الفترة حيث كان الكتاب جريئا وحاول أن يمس من هيبة الأسرة . وخاصة الأب . هذا الأب الذي يسميه الراوية بالسيد . انه يمثل نموذجا حيا للطاغية . وهذه هي المرة الأولى في بلد يقدس الأسرة والآباء يرى فيها القراء كيف يتمرد الابن على أبيه . هذا الاقطاعي الكبير . لقد كانت هذه الحالة الجديدة من التمرد بمثابة تحطيم لأشياء كثيرة مقدسة خاصة أن ادريس شرايبي قد كتب الرواية كأنها أقرب الى السيرة الذاتية مما أكسبها واقعية وصدقا صدم الناس . وقد تعرض شرايبي للكثير من الضغوط النفسية بسبب الرفض الشديد لما جاء في هذه الرواية . ورغم أنه أنكر نسبها اليه . إلا أنه راح يكتب .

Dictionnaire des auteurs maghrébiens, Jean Dejeux Karthala, (١)
Paris, 1984.

وجاءت كتبه الأخرى ومنها « التيوس » les boucs عام ١٩٥٥ .
 (رواية) ومجموعة قصص تحمل عنوان « من كل الأفق » de tous les horizons عام ١٩٥٦ . ثم « الزحام » la foule عام ١٩٦١
 (رواية) و « متابعات مفتوحة » succession ouverte (رواية)
 عام ١٩٦٢ . ثم « سيأتي صديق لرؤيتك » un ami viendra vous voir
 (رواية) ١٩٦٧ . ومجموعة مقالات تحمل عنوان « الحضارة أمي »
 la civilisation, ma mère و « الذاكرة الموشومة » عام ١٩٧٠
 la memoire totouée رواية تحمل عنوان « الموت في كندا »
 la mort au canda و « مهمة في البلاد » une enquête au jays
 ١٩٨١ و « أم الربيع » la mère du printemps عام ١٩٨٢ . و « مولد
 في الفجر » naissance a l'aube عام ١٩٨٦ و « المفتش على »
 inspecteur Ali عام ١٩٩١ .

وإدريس شرايبي يقيم في باريس بصفة دائمة منذ عام ١٩٦٥ .
 ومثل كل أقرانه . لم يشأ أن يخرج عن جلده . فهو يكتب عن البيئة
 العربية التي عاش فيها ولكن في أعماله الأخيرة امتزجت بشخصيات
 عربية وأخرى فرنسية . فعلى سبيل المثال فإن روايته « الذاكرة
 الموشومة » تدور أحداثها في قرية بشمال إفريقيا في ليلة الاستقلال
 فهناك شاب يدعى « بول ريفير » - أنه ابن الاستعمار . يرفض فكرة أن
 ينفصل عن الأرض التي ولد فيها . وكى يهرب من هذا الواقع المرير الذي
 عليه أن يواجهه ، فإنه يفكر في انشاء تمثال تذكاري على هيئة ساعة .
 وفي أحد البارات بمدينة طنجة يلتقى بامرأة بريطانية تدعى بيتي .
 وهي امرأة نفعية تحاول أن تتعرف عليه وتغويه فيقع في هواها .
 وتلاحق الأحداث بسرعة ويصبح على « بول » أن يرحل ولكن هناك شيئاً
 يمزقه . تمر عدة سنوات . رحلت زوجته مريم الى المدينة على أمل أن
 تحصل على عمل . وذهب معها زيغو صديقه الحميم . والرواية مزدحمة
 بالشخصيات فهناك ولدا العم عثمان ، وونيس الذين يعملون في اصلاح
 السيارات . أما زيغو فيصبح حارسا على مقبرة للسيارات بينما وونيس
 الشغوف بالميكانيكا يروح يبحث عن شبح «بيتى» في كل سيارة تمر أمامه
 ويحس كأنه يتشمم عطرها . ويفاجأ ذات يوم أن زيغو قد اشترى له
 سيارة قديمة أشبه بالتي كانت تقودها بيتي . ويذهب وونيس ذات ليلة الى
 أحد البارات ويكتشف أن المرأة التي تغنى كل ليلة وتصنع المتعة للزبائن
 ليست سوى «بيتى» .

ترى «بيتى» حبيبها القديم فى صورة ونيس فتحتفى به . ويعترف
انها كانت تحب أباه بول ريفيير الذى يشبهه كثيرا . وينتبه ونيس الى
خطيئته التى سيرتكبها فيشارك فى سباق السيارات ويحس أن السبارة
وهى تنطلق لتكسب السباق كأنها تخلصه من الامة الجسدية .

وفى روايته « مولد فى الفجر » يبدو الكاتب مهموما بمسألة اتصال
الشرق بالمغرب . والسياسة التى يرى أنها فى حالتى صعود وهبوط . .
وبطل الرواية سيدى قاسم رجل يبحث عن جذوره . وعن أجداده إذا
فهو يتوجه الى الجبل كى يبحث عن بقايا وآثار هؤلاء الأجداد . فهناك
قبل اثنى عشر قرنا وفى عام ٧١٢ ، حضر الأجساد لفتح الأندلس من
خلال جيوش طارق بن زياد . « كانت قوات الاسلام جميلة . وجديدة .
كان الدين مفتوحا . واستقبل فى احضانه كل المقهورين وساوى بينهم .
وحولهم الى منتصرين كبار . هذه هى العشيرة الكبرى » (١) .

والعرب فى رواية شرايبي قوم مليئون بالحياة والنشاط . استطاعوا
أن يجتازوا الزمن فوق دوابهم . ويتحدث الكاتب عن شخصية قادرة على
صنع المعجزات . ونحاول أن نعثر على عصر جديد أفضل مما يحدث الآن .
وهناك أيضا شخصية عزاويت الذى جاء من أعماق التاريخ كى يولد
من جديد ويحمل كل شىء على يديه . وتقول الناقدة آن براجانس : « يجب
أن نقول أن شرايبي يقدم هنا أحد أجمل مشاهده الطفولية التى يمكن
قراءتها . فعند لحظة الموت نعرف أن أباه هناك .

« لا فرق بين الموت والحياة فلا أحد يمكنه أن يميز بينهما . ولا أحد
يفصلهما سوى هذه المسافة وهى الحياة نفسها » (٢) .

أما روايته « المفتش على » فتدور على لسان الراوية ابراهيم عرورق
الذى أصبح مشهورا على المستوى العالمى بكتابة الروايات البوليسية
التي بطلها شخص يدعى المفتش على . والكتب التى تحكى عن هذا المفتش
تحقق كسبا عاليا . كما أنها تحصل على جوائز أدبية . لقد قضى ابراهيم
سنوات عديدة فى فرنسا . وما هو يعود الى بلاده المغرب مع زوجته
فيونا ، وهى امرأة اسكتلندية جميلة أشبه بعرائس البحر . الآن على
فيونا أن تنتظر قدوم ابنها الثالث ، كما أنها تنتظر قدوم والديها من

Naissance a l'aube, Driss charaibi, le seuil Paris, 1986.

(١)

Driss Charaibis, le monde 14-5-1986, p. 18.

(٢)

أدنيبره ، ولا شك أن مثل هذه الزيارة ستكون ساحة خصبة للصراع والمواجهة بين مجتمعين مختلفين تماما . فالزوجان - والدا فيونا - يقومان بجولة في المدينة ويعلق أحدهما قائلا : « اننا في بلاد لا تمشي فيها الأشياء ، فالناس هنا في بطالة » .

أما الكاتب على لسان الزوج المؤلف فهو يرى أن أوروبا ليست سوى قصص مرسومة . أو سلاسل من الحكايات الساذجة . ورغم أن شهرته جاءت من كتاباته التي يؤلفها لهم . وان الناس يسمونه « ملك أكشاك بيع الكتب » إلا أنه لم يلتحم تماما مع هذه الحضارة .

قائمة بأهم أدباء المغرب الذين يكتبون بالفرنسية

بارودي ، عبد الله :

سياسي وشاعر وجامعي . عاش في المنفى في فرنسا لسنوات عديدة من أعماله النثرية « المغرب تبحث عن ثورة » عام ١٩٧٢ . ومن أشعاره دواوين « المغرب أو ذاكرة المنفى » عام ١٩٧٩ . و « أشعار فوق الأرواح الميتة » عام ١٩٨٢ .

يلزميتي علوي ، محمد (١٩٥١) :

ولد في الدار البيضاء . درس الأدب في جامعة باريس ، ثم درس ١٩٧٧ . ثم « أشعار Poemes » و « اتساع الموت المعطر » ١٩٨٥ .

بلهاشي ، أحمد (١٩٢٧) :

ولد في الدار البيضاء . درس الأدب في جامعة باريس . ثم درس في كمبردج . ثم عمل بعد الاستقلال ملحقا في مجلس الوزراء للسلطان محمد الخامس . قام بتدريس الانجليزية في بريطانيا وفرنسا . عمل مديرا للمركز السينمائي بالرباط . له مسرحيتان « الأذان ذات الوشاح » عام ١٩٥٦ . و « حصن الرمل » عام ١٩٦٢ .

بلهاشي ، عبد القادر (١٩٢٧) :

ولد في الدار البيضاء . ودرس في جامعة كمبردج . عمل مديرا للمركز الثقافي المغربي بين عامي ١٩٥٨ و ١٩٥٩ . قام بتدريس اللغة الفرنسية في بريطانيا وعمل سكرتيرا لسفارة المغرب في واشنطن . نشر مسرحيته الأولى « المتبرجة » ١٩٥٢ ، ورواية « ثريا » . أو « الرواية التي لم تنته » عام ١٩٦٠ .

بن جلون ، الطاهر (١٩٤٤) :

(انظر الفصل السادس) .

بن حمزة ، عبد الرحمن (١٩٥٢) :

ولد فى مراكش . يعمل مدرسا للغة الفرنسية وناقدا . شاعر .
من اعماله « المسافر » عام ١٩٧٥ . و « أضواء هشة وصحراء شاسعة »
١٩٧٧ . ثم كتاب نثرى بعنوان « من يوم لآخر » عام ١٩٨٠ .
خطيبى ، عبد الكبير (١٩٣٨) :

ولد فى الجديدة . درس علم الاجتماع فى السربون . ثم حصل
على الدكتوراه عام ١٩٦٥ . يعمل مدرسا فى كلية الآداب بالرباط .
روائى وشاعر وباحث وناقد من رواياته « الذاكرة الموشومة » عام
١٩٧١ . و « كتاب الدم » ١٩٧٩ . ومن مسرحياته « النبى المحجب »
عام ١٩٧٩ . ومن أهم دراساته « فن النسخ الغربى » عام ١٩٧٦ .

خير الدين ، محمد (١٩٤١) :

ولد فى طفروت من أبوين نجارين . اكتشف الشاعر « رامبو » وأحبه .
ويكتب بالعربية والفرنسية ، صادق شعراء فرنسيين . وتزوج بفرنسية .
أسس مجلة « أنفاس » عام ١٩١٦ مع عبد اللطيف العيسى ثم مجلة « المياه الحية »
ثم رحل الى فرنسا عام ١٩٥٦ ، شاعر من أهم دواوينه « غثيان أشور »
١٩٦٤ ، و « شمس العناكب » عام ١٩٦٩ ، و « هذه مراكش » ١٩٧٥ ،
و « بحث الزهور البرية » عام ١٩٨١ . ومن رواياته « اجسام سلبية »
١٩٦٨ و « الخارج من الأرض » ١٩٧٣ . و « حياة وحلم وشعب »
عام ١٩٧٨ .

سفيوى ، أحمد (١٩١٥) :

ولد فى فارس فى أسرة بربرية . درس فى مدرسة قرآنية . ثم
مدرسة فرنسية . ومارس العديد من المهن . ثم بدأ فى نشر اعماله عام
١٩٤٣ فى الصحف ثم عمل فى وزارة الثقافة . يقيم فى المغرب .
روائى . من أهم اعماله : « كنيسة عنبر » ١٩٦٤ . و « علبة العجائب »
١٩٥٤ . و « مراكش » عام ١٩٥٦ ، و « الحلم بمراكش » ١٩٧٠ ،
و « منزل العبودية » ١٩٧٣ .

سليم ، جاي (١٩٥١) :

ولد مع أخيه فريد لأب مغربى وأم رومانية ، رحلت الأسرة الى
باريس عام ١٩٧٣ . شارك فى العمل فى مجلات نقدية أدبية . روائى .
وناقدا . من رواياته « الاسبوع ١٠ » و « مدام سيمون فى سن المائة » عام
١٩٧٩ ، ثم « مجنون القراءة » أو « الأربعين رواية » عام ١٩٨١ ، ثم
« ستكون طاغية يابنى » عام ١٩٨٢ .

شارايبي ، ادريس (١٩٢٦) :

(انظر الفصل السادس) .

لحبابي ، محمد عزيز (١٩٢٧ - ١٩٩٣) :

ولد في فاس . ودرس في باريس ، ثم حصل على الدكتوراه في الفلسفة . عمل مدرس فلسفة في كلية الآداب بالرباط . ثم عميدا لكلية عام ١٩٦١ . أسس اتحاد الكتاب في المغرب . وسافر الى بلاد عديدة . صار عضوا في مجمع اللغة العربية . يقيم في مراكش . كاتب مقال . وشاعر . من أعماله الشعرية « أغنيات الأمل » ١٩٥٢ . « بؤس وضياء » . « أغنيات الأمل الجديد » ١٩٥٨ ، و « صوتي يبحث عن طريق » عام ١٩٦٨ .

لعبي ، عبد اللطيف (١٩٤٢) :

ولد في فاس . ودرس في الرباط ، ثم قام بتدريس الفرنسية ، الى أن تم القبض عليه عام ١٩٧٢ . كتب أولى قصائده عام ١٩٦٢ . تزوج من فرنسية عام ١٩٦٤ التقى مع ٣ شعراء مغاربة : خير الدين ، نيسابوري ، وقرروا انشاء مجلة « نفحات » عام ١٩٦٦ . في عام ١٩٧٢ تم القبض عليه مرتين بتهمة قيامة بأعمال ضد أمن الدولة . وحكم عليه بالسجن عشر سنوات وتم الافراج عنه عام ١٩٧٥ . قسافر الى باريس . ثم عاد للإقامة في المغرب . وخرج منها مرة أخرى عام ١٩٨٢ . شاعر . من أهم دواوينه « شجرة الحديد الزهرة » عام ١٩٧٤ و « تحت الكتمان » وهي اشعار مكتوبة في السجن . ومنشور عام ١٩٨١ . أما دراساته فهناك « الشعر الفلسطيني في المعركة » عام ١٩٧٥ .

المالح ، ادمون (١٩١٧) :

(انظر الفصل الثامن) .

هاشمي ، بن سالم (١٩٤٧) :

عمل مدرسا في كلية الآداب بالرباط ، شاعر ونثر من أشعاره « اذا لم نستعرض التغيرات الكبرى » عام ١٩٨٠ ، وكتاب عن الانسان تحت عنوان « من البكل الأيديولوجي للإسلام » عام ١٩٨٠ . والذي كتب له المقدمة مكسيم رودنسون .

نيسابوري ، مصطفى (١٩٤٣) :

ولد في الدار البيضاء . التقى بمحمد خير الدين واشترك معه في تأسيس مجلة « أنفاس » ، شاعر . من دواوينه « نكريات عالية جدا » ١٩٦٨ . و « الليلة الثانية بعد الألف » عام ١٩٧٥ .

الفصل السابع :

الأدب التونسي المكتوب باللغة الفرنسية

حسب كتاب « الأدب الفرانكفوني منذ عام ١٩٤٥ » فإن الأدب المكتوب باللغة العربية في تونس سواء قبل سنوات الاستقلال (١٩٥٦) أو بعدها قد جعل من الأدب المكتوب بالفرنسية أدبا هامشيا (١) . وذلك بالطبع قياسا الى الأدب المكتوب بالفرنسية في كل من الجزائر والمغرب. وباعتبار أن دول المغرب العربي قد سيطر عليها الاستعمار الفرنسي وثقافته سنوات متقاربة زمنيا . إلا أنه لم تحدث فرنسا لتونس بنفس الدرجة التي حدثت في الجزائر على سبيل المثال . لذا فبمتابعة قاموس الأدباء المغاربة الذين يكتبون بالفرنسية الذي أعده جان ديغو عام ١٩٨٢ سنرى ليس فقط أن عدد الأدباء التونسيين الذين يعبرون بالفرنسية أقل عددا . بل أيضا أقل شهرة وأهمية من الأدباء المغربيين والجزائريين .

ومنذ بداية الاستعمار الفرنسي لتونس . فإن المدارس العربية لم تتوقف عن العمل ، وعن تلقين أبنائها اللغة العربية . وسوف نرى أن أبرز أدباء تونس يكتبون باللغة العربية مثلما يكتبون بالفرنسية . ومن بين المدارس البارزة التي لم تتوقف عن تعليم اللغة العربية مدرسة «صديقي» . كما أن هناك العديد من المدارس كانت تقوم بتعليم اللغة الفرنسية الى جوار اللغة العربية الأساسية . ولعبت جامعة الزيتونة دورا بارزا في تعليم العربية والاحتفاظ بها .

وكما سبقت الإشارة ، فإن الأدباء التونسيين كانوا يفضلون دوما اللغة العربية . حتى الكاتب اليهودي البير ميمى . فإن لغته العربية كانت مميزة أكثر من الفرنسية . وقد تغيرت الموازين الى حد ما في نهاية الستينات ، حين لاحظ التونسيون أن فرص النشر في فرنسا أفضل .

La littérature francophone depuis 1945.

(١) مرجع سابق .

فى هذه الفترة كان الصغار الذين عاصروا الاستقلال قد أصبحوا كبارا . ولم يعد هناك خوف من الثقافة الفرنسية بنفس الحساسية التى حدثت فى الجزائر . فعقب الاستقلال اهتمت الحكومة بإنشاء المزيد من المدارس العربية . ولكن هذا لم يمنع الناس ، فى ظل سياسة انفتاح ، أن ينشروا كتبهم بالفرنسية فى تونس ، خاصة أن دور النشر التى تطبع باللغة الفرنسية لم تتوقف عن العمل . ولكن هذا لم يمنع الكتاب التونسيين من البحث عن فرصة للنشر - كما سبقت الإشارة - خارج الحدود .

لعل الشعر كان الفن الأول الذى استخدمه الكاتب التونسى لمواجهة الاستعمار ، ومن أجل بث الحماس فى قلوب المناضلين ضد الاستعمار . ومن أبرز هذه الأسماء الشاعر عبد المجيد طلاطلى الذى جمع فى شعره بين الحماس والحكمة . فكرس شعره من أجل كراهيته الدم والتسلط والعنف . وهو من مواليد عام ١٩٢٨ . درس فى مدارس نابول الثانوية . وحصل عام ١٩٥٢ على جائزة قرطاج عن مجمل أعماله ولم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من العمر . وقد ألهمته هذه الجائزة ديوانه الأول المنشور فى نفس العام تحت عنوان « فوق رماد قرطاج » . وفى العام التالى نشر ديوانه الثانى « أعراس فوق رماد قرطاج » . ثم نشر فى نفس العام « رجال وأرواح » ، وكل أعماله منشورة باللغة الفرنسية فى تونس . كما ظلت أعمال كثيرة له فى الأدراج ولم تنشر حتى الآن ومنها ديوانه « سوف أصلى فوق مقبرتك » . أما الشاعر الثانى فهو كلود بناوى المولود فى عام ١٩٢٢ . والذى بدأ حياته صحفيا عام ١٩٤٧ واعتبر من أهم الأدباء الطليعيين بعد الحرب العالمية الثانية . كما اهتم مثل العديد من هؤلاء الطليعيين ، كما حدث فى مصر مع مجموعة الفن والحرية ، بالفن التشكلى . وكان صديقا للكثير من السرياليين الفرنسيين . وقد سافر كلود فى عام ١٩٥٧ الى باريس واستقر بها .

وكلود من الشعراء الذين ظهرت موهبتهم فى سن مبكرة . فقد بدأ حياته كروائى فى عام ١٩٤١ من خلال روايته « حمامات » زهرة الحب . ثم نشر ديوانه « لون الأرض » عام ١٩٥١ وتوالى دواوينه المنشورة فى تونس « لنعاود الحب » عام ١٩٥٣ ، و « الزمن كالفصول » عام ١٩٥٤ ، ثم « الصيف القادم من البحر » وهو من الشعر المنثور عام ١٩٧٢ . وقد اهتم كلود فى أعماله بالطبيعة . وبدأ مدى شغفه بالالتصاق بالحياة المليئة بالضياء والاشراق . حيث يقول فى ديوانه « الصيف القادم » وهو كما أشرنا من الشعر المنثور :

« لا الصباح يولد الليل • ولا الثمرات وطعمها • لا الثمار • ولا الملح منذ زمن المنفى كانوا قادرين على أن يخففوا من احساسى بالبهجة » .

ومن بين هؤلاء الشعراء أيضا هناك صلاح جرمدى المولود فى حلفاويين عام ١٩٣٣ • ودرس فى مدارس صديقى الثانوية • ثم حصل على شهادة لتدريس اللغة العربية واخرى فى اللغة الانجليزية • ثم عمل مساعدا فى المدرسة العليا بتونس • وقد جاءت أهميته من خلال مجموعة المقالات التى كتبها عن الأدب التونسى ومشاكل اللغة والتعريب فى العديد من المجلات • وقد ترجم الى اللغة العربية الكثير من الكتب الفرنسية فى اللغويات • وروايات مالك حداد ورشيد بوجدر • وقد نشر ديوانه الأول عام ١٩٧٠ تحت عنوان « الهامة العالية » • وفى عام ١٩٧٥ نشر ديوانه الثانى باللغة الفرنسية تحت عنوان « أجدادنا البدويون » •

وفى عام ١٩٨٢ مات صلاح جرمدى فى حادث سيارة وقد اخترنا من ديوانه « أجدادنا البدويون » قصيدته « أكون أكون » :

أنا هادىء فهل أنا هادىء ؟
هل يأتى الصخب من المدينة ؟
أنا مبتهج بشوش • فهل أنا مبتهج بشوش ؟
بكل هذه القنابل ذوات الفئيل
وهؤلاء الرجال المدججين
أنا سعيد فهل أنا سعيد ؟
لى امرأة تغنى ولها اماليها
ولى سيارة تدور على عجلاتها
وكل الأطفال الحزانى من البكارة
وهؤلاء الغرقى الذين يسبحون فوق المرعى
لقد وصلت • فهل وصلت ؟
وهذه القنابل التى تتساقط كأنها الفتحات
وهذه الواحات الحمراء حيث تحلم اللغات (١) •

وقد اقام العديد من الكتاب التونسيين لفترة فى فرنسا • ولكن الكثير منهم ما لبث أن عاد الى بلاده • مثل صونى الجولى وعبد العزيز قاسم ،

(١) Nos ancetres, les bédouins. Salah Garadi, Paris, p. Joswald., 1975.

ومنصف غانم الذى ظل فى باريس حتى وفاته . وهناك أيضا الكثير من
الأسماء التى ظلت متأثرة بلغتها الفرنسية مثل طاهر بكري وشمس نادر،
والعبرى بن على ، وأمينة سعيد ، والذين اختاروا الإقامة فى فرنسا .

ويعتبر منصف غانم المولود عام ١٩٤٧ من أبرز من حاولوا أن
يجدوا طريقا جديدا لابتداعهم الشعرى . وكما يقول عنه جان دييجى فى
قاموسه عن الأدباء المغاربة الذين يكتبون باللغة الفرنسية انه يعد من أهم
الشعراء التونسيين الذين كتبوا بالفرنسية فى الجيل الصالى .

ويهمنا هنا أن نترجم له قصيدته « من هجرنا » من ديوانه « لأن
الحياة وطن » المنشور عام ١٩٧٨ ومن أعماله الأخرى ديوان « ١٠٠
ألف عصفور » الذى نشره على نفقته الخاصة عام ١٩٧٥ . يقول
الشاعر :

أنا جائع .

جائع للافق الملىء بطيور السوس والعقاب
والفلائك

ذوات الاشرعة البيضاء

أحب الزرقة الرقيقة

وقبضات البحارة

فوق جباههم العالية

أحب الفجر

فى الباب الشاحب

والظلال

فى سلال الأطفال

فوق أهياى الأرامل المتقظات

أحب عطر السربين القواح

وميلادى

الأكثر تهيجا

من البحر

أعارض الملوك

وأجمع الأسماك المتخمة

للمرهمين واللصوص

بالأمس • عندما حلم سرطان البحر بالحبار

وحتى اغوص في الصخر

القهمت المحارات الطويلة

ويعتبر عبد المجيد الحص أيضا من بين الشعراء البارزين في اللغة الفرنسية • وهو ينتمي الى البرير ، مولود في ٢٠ يناير ١٩٤١ في بومروس • ويعمل حاليا مدرسا للأدب الفرنسي والأدب الفرانكفوني في جامعة بادو بايطاليا • وهو يكتب المقال والدراسة الأدبية • نشر ديوانه الأول « أريد أن أحكي لك سرا » عام ١٩٧٢ • ثم « صورة السكر » عام ١٩٧٣ • ثم « ايريس - أفريقيا » عام ١٩٨١ وفي هذا الديوان يقول في إحدى قصائده :

وفقدت ورق نعناعي

وزهور الياسمين التي أحملها فوق أذني اليمنى

في المساء

أشقائي وأصدقائي الذين لا أعرف أسماءهم

في منفأى البارد الغائب

في أندفاع الضباب الخفي

وفي مجال الرواية التونسية المكتوبة باللغة الفرنسية يبرز الكاتب البير ميمى كأبرز اسم في عالم الابداع الروائي - راجع الفصل الثامن حول الأدب العربي اليهودي المكتوب بالفرنسية - تجيء من بعده مجموعة من الأسماء من أبرزها : هاشمي بابكوش المولود في أسرة ثرية بتونس عام ١٩١٧ • وقد تولى رئاسة الوزارة التونسية لفترة قبل أن يتم عزله عام ١٩٥٢ قبل الاستقلال • وعندما وجد أن الناس قد نسيت عهده بالاستقلال سافر الى فرنسا عام ١٩٥٣ وتزوج من ايطالية • ونشر روايته الأولى « تبقى نمتي » عام ١٩٥٨ • كما كتب المسرحية ولكن من أهم أعماله الأخرى « سيدة من قرطاج » •

وتعتبر رواية « تبقى نمتي » واحدة من أبرز الروايات التونسية المعاصرة المكتوبة باللغة الفرنسية • وهي بمثابة سيرة ذاتية للكاتب مليئة بالمرقة والتنوع • فبطل الرواية محمد يخبرنا أنه يود أن يؤلف كتابا يريد أن ينزع من خلاله بعض مشاعر الخزي من المسلمين • وأن يمنعهم أن يقولوا أنهم يحبون فرنسا وبعض الفرنسيين • ومحمد هنا لا يخفى حبه الشديد لفرنسا • ولكنه رجل بالغ الوفاء لوطنه •

وقد بدت نفس النغمة عند الكاتب في روايته الثانية « امرأة من قرطاج » فهي تتحدث عن علاقة حب بين رجل مسلم وامرأة مسيحية ، في وقت يوافق فيه شيخ عجوز على أن يزوج ابنته من رجل غير مسلم . ويقول جان ديجو : « ان المؤلف يعطى العلاقات سمات انسانية . ففي الرواية الأولى أراد أن يفسر أسباب انحسار الاستعمار . وهو يتحدث أن الأطفال غالبا ما يكونون وليد زواج مختلط . كما يقول محمد : « انهم يتربون قبل كل شيء في ثقافة انسانية محترمة قائمة على احترام العقيدة » (١) .

ومن ابرز الروائيين الذين يكتبون باللغة الفرنسية هناك صلاح الدين يحبري ، وعادل عروى ، ثم هناك مصطفى قليلى ، وعبد الوهاب مدب ، وسعاد جلوز وهيليه بيجى .

فمصطفى تليلي ، على سبيل المثال ، مولود عام ١٩٣٧ ولكنه عاش في نيويورك ثلاثة عشر عاما عمل خلالها في الأمم المتحدة ثم استقر للقامة في باريس عام ١٩٨٢ . نشر روايته الأولى عام ١٩٧٥ تحت عنوان « غضب الأمعاء » ثم « الصخب النائم » عام ١٩٧٨ . و « مجد الرمال » . عام ١٩٨٢ . وتدور احداث روايته الأولى حول رجل جزائري يدعى جلال بن شريف يبحث لنفسه عن هوية بعد نهاية حرب الاستقلال . فيقرر أن ينضم الى الفلسطينيين من أجل محاربة اسرائيل . أما روايته الثانية فهي عن رجل انضم الى الخمير الحمر . وفي الرواية الثالثة يتحدث عن الحادث الارهابي الذي تم في مكة في الثمانينات وقيام الشاب المناضل الجزائري يوسف منتصر بالتصدي لهؤلاء الارهابيين مع قوات الأمن السعودية .

وفي حياة أبطال روايات تليلي هناك دائما امرأة ، ومواجهة ضد الهشاشة والخديعة الداخلية . ويرى الكاتب في هذه الروايات أن نيويورك مدينة رائعة من أجل المنفى . انها نفس المدينة التي عاش فيها الكاتب ثلاثة عشر عاما . وأبطال رواياته دائما من المناضلين ويؤمنون بالقضايا التي يدافعون عنها . مثل مولاي منتصر الذي مات برصاصة غادرة عند المسجد الحرام .

ويهمنا أن ننقل ذلك الحوار الراقى بين الأم وابنها . جلال في رواية « غضب الأمعاء » :

(١) المصدر السابق .

- يا بنى . سيكون الله معك لو انشغلت بتحسين نفسك .
- نعم يا أمى .
- يا بنى . تذكر اجدادك . فانت ابن شريف . ولن تفعل الشر ابدا .
- أجل . أعبدك يا أمى .
- صل ليل نهار كي يرحمك الله . وان يحفظك من الشر .
- ليكون الله معنا يا أمى .
- ليحفظك من شر هذه الأرض .
- ليكون الله معنا يا أمى . ومع كل مخلوقات الأرض ليقتلع الشر من الأرض .
- ليحفظك لأمك يا ابنى . لذا فصل ليل نهار . دائما استيقظ فى الليل بغتة بعد أحلام مزعجة . وتضرع فى الصلاة لله حتى ينبجج الصبح من أجلك ؛ لأننى ليس لى سواك يا بنى « (١) » .

وأغلب الروائيين التونسيين الذين يبدعون باللغة الفرنسية يكتبون رواياتهم عن تجاربهم الخاصة . ومثل هذه الروايات تعتبر بمثابة سيرة حياة للكاتب . مثل رواية « الطلسم » . وهى الرواية الوحيدة للكاتب عبد الوهاب مدب ، ومنشورة عام ١٩٧٩ حيث يعتبر بطلها رجلا يبحث عن جذوره بين لغته والأماكن التى ينتمى إليها .

(١) La rage aux tripes, Mustapha Tlili, Gallimard, Paris, 1975.

قائمة بأهم أدباء تونس الذين يكتبون بالفرنسية

أصـالـن ، محـمـود (١٩٠٢) :

ولد في تونس من أسرة ذات أصل تركي . والام مصرية . درس في المدارس الفرنسية العربية . ثم استكمل دراسته الثانوية في مدرسة سوق العطارين . وسافر الى باريس عام ١٩٢٣ . وعمل موظفا ثم عاد الى تونس . وظل يتنقل بين البلدين وتزوج من امرأة فرنسية . عمل في الصحافة المحلية في تونس لسنوات طويلة . كتب الرواية والمسرحية . من أهم أعماله « مشاهد من حياة الريف » عام ١٩٣٢ ، « بين عالمين » مسرحية عام ١٩٣٢ ، ورواية « عينا ليلي السودان » عام ١٩٤٠ . و « حكايات الجمعة » عام ١٩٥٤ .

برعوى ، حدى (١٩٣٢) :

ولد في صفاقس . درس في فرنسا ثم الولايات المتحدة . قام بالتدريس في جامعة تورنتو . شاعر . من أعماله الشعرية « مرتعد » عام ١٩٦٩ ، « بلا حدود » ١٩٧٩ . ثم « طريق حيتو » عام ١٩٨٠ .

بـنـاوى ، كلود (١٩٢٢) :

(انظر الفصل السابع) .

بوهنية ، عبد الوهاب (١٩٣٢) :

ولد في القيروان . وحصل على بكالوريوس في الفلسفة . ثم دكتوراه في الأدب من السربون . يدرس في جامعة تونس . كما قام بالتدريس في العديد من الجامعات الأوروبية والأفريقية . شاعر وكاتب مقال . من أهم أعماله « لآلىء الوهم » شعر ١٩٥٠ ، « الجنس في الاسلام » عام ١٩٧٥ .

جارمادى ، صلاح (١٩٣٣) :

(انظر الفصل السابع) .

الحص ، عبد المجيد (١٩٤١) :

(انظر الفصل السابع) .

خليفة ، صلاح :

شاعر . يقوم حاليا بتدريس التاريخ والجغرافيا . نشر ديوانه الأول « دائرة الجوعى » عام ١٩٧٣ . ثم « أمير الدم » عام ١٩٧٤ .

عزيزة ، محمد (١٩٤٠) :

درس فى باريس وعمل فى الاذاعة الفرنسية كمخرج . وقام بالتدريس فى الجزائر . كتب المقال والدراسات الأدبية والحكايات ، من أهم أعماله « المسرح والاسلام » عام ١٩٧٠ ، و « الاسلام والصورة » ١٩٧٨ ، و « اسطراب البحر » ١٩٨٠ .

غانم ، منصف (١٩٤٧) :

(انظر الفصل السابع) .

نعمان (١٩٣٨)

روائى ومراسل صحفى ، نشر روايته الأولى تحت اسم مستعار هو كولمان تحت عنوان « السارى » ١٩٧٠ ، ثم نشر روايته الثانية «عبودية الانسان » عام ١٩٧١ .

هاشمى باكوس (١٩١٧ -)

(انظر الفصل السابع) .

(*) ملحوظة : اعتمدنا فى الرجوع الى هذه الاسماء على كتاب le dictionnaire des auteurs maghrébienس ومن الواضح أن القسم الخاص بتونس قد ضم اسماء اقل بكثير مما جاء فى قسمي الجزائر والمغرب . وكانت اغلب الاسماء التونسية تعمل فى مجال الكتابة غير الابداعية .

أدباء عرب •• يهود •• يكتبون بالفرنسية

لم تبرز مسألة الدين لدى الأدباء العرب الذين يكتبون بالفرنسية ،
مثلاً يحدث في الكثير من الآداب العالمية •• فقد كتب كل من المسلمين
والمسيحيين واليهود باللغة الفرنسية • وذلك لأن أبناء الأديان الثلاثة قد
وجدوا أنفسهم في ظروف اجتماعية • وفي أسرات تتكلم اللغة الفرنسية •
وقد ارتبطت هذه الظاهرة بالطبقات الاجتماعية التي ينتمي إليها هؤلاء
الأدباء بصرف النظر عن أديان كل منهم • فقد كانت المدارس المسيحية في
مصر تضم في تلاميذها الكثير من المسلمين • وأيضاً من اليهود • ومن
المعروف أن المسلمين قد ارتفع عددهم كثيراً في هذه المدارس عن
المسيحيين • ولم تكن مسألة الأديان حساسة بالتالي عند الأدباء الذين
كتبوا بالفرنسية •

كما أن أغلب الأدباء الذين كتبوا بالفرنسية قد هاجروا طواعية إلى
فرنسا باعتبارها الأرض الخصبة للغتهم • وباعتبار أن دور النشر يمكن
أن تفتح لهم أبوابها مثلاً فتحت لأقرانهم الذين سبقوهم • فتدفقوا الواحد
تلو الآخر • وقد هاجر هؤلاء الكتاب من مسلمين أيضاً ومسيحيين ويهود
ومعهم أديانهم التي لم يفتقدوها فمارسوا شعائرها في أي مكان ذهبوا
إليه • ولم يكن هناك افتقار للشعور الديني • ولكن كان الاقتقاد الأكبر
هو الحنين إلى الوطن الذي عاشوا فيه • وتربوا هناك أثناء طفولتهم •
ودائماً ما تكون الطفولة أسعد الأيام ، وبها أجمل الذكريات لدى
الكثيرين •

وهناك سمة في الأدباء اليهود الذين يكتبون باللغة الفرنسية ،
والذين تركوا بلادهم العربية ، تحسب لهم • وهي أنهم جميعاً لم يهاجروا
إلى إسرائيل مثلاً فعل أغلب اليهود في الشتات • بل اتجهوا لقورهم
إلى فرنسا • وفي القائمة التي لدينا عن هؤلاء الأدباء فانهم لم يعملوا في
مجال السياسة • ولم يصل إلى خسامعنا أنهم سافروا إلى إسرائيل •

وذلك مثلما فعل أغلب الأدباء اليهود من الاشكيناز الذين باركوا قيام إسرائيل ، وأيدوها في سياستها ضد العرب . بل إن شاعرا مثل ادمون اليابس قد بكى مصر كثيرا عندما هاجر منها بعد أن طردت الثورة أبناء الجالية اليهودية في مصر وامتلات أشعاره بالحنين لبلاده حتى مات في عام ١٩٩١ .

وقد وصلت الدرجة بهؤلاء الكتاب أنهم اعتبروا أنفسهم في شتات بعد طردهم من مصر . أو بعد أن خرج منها بعضهم طواعية مثلما فعلت جويس منصور عام ١٩٥٣ . ليس الشتات المقصود به هو البعد عن إسرائيل . ولكنه شتات عن مصر . بلد طفولتهم . وصباهم .

ويمطالعة القائمة التي لدينا ، والتي سنقدم بعضا من نماذجها هنا ، سوف نرى أن هذا المهجر قد ميز الأدباء اليهود القادمين من مصر الى فرنسا . بينما أسماء اليهود القادمين من شمال المغرب قد ظلت شبه مجهولة الا من اسم أو أكثر . ففي الأدب العربي المكتوب بالفرنسية تبرز أسماء كتاب مصريين أمثال ادمون اليابس وجويس منصور والبير عدس وغيرهم . ولكن من المغرب العربي يلمع اسم الكاتب المغربي ارمان المالح . وذلك باعتبار أن المغرب لم تطرد أبناءها من اليهود . باعتبارهم مواطنين مغاربة .

وقد تركزت الطائفة اليهودية في كل من المغرب وتونس . ومن بين الأسماء التي وردت في قاموس الأدباء المغاربة « السنين يكتبون بالفرنسية » نقدم أسماء الأدباء اليهود في مراكش وهم اليزا شمنتي . وادمون ارمان المالح . وإيلي ملقا . أما محمد هاجر فيقول القاموس انه كاتب مجهول الهوية . وقد نشر كتابا عام ١٩٧٣ يحمل عنوان « مجنون . باسرائيل مجنون بالله » . وهي رواية عن لقاء اليهود بالمسلمين . « يجب الا يعتبر اليهود والعرب أنفسهم كأعداء . فنحن بشر . وفي بلادنا جميعا مغاربة » (١) .

أما الكتاب التونسيون فهناك روبرت عتال ، والبير ميمى ، وسيزار بن عطار ، وبول غيث ، وريفل - واسمه الحقيقي رفايل لينى ، وجاك فيل . وأوزيت فاسيل . وكما نرى فانها أسماء لم تصبها الشهرة العريضة مثلما حدث للأدباء القادمين من مصر . ولعل العبارة التي وردت في كتاب محمد هاجر لخير دليل على الاعتبار التي يضعها المغاربة في دخائهم . فهم في المقام الأول مغاربة . ويدينون باليهودية وقد حدث هذا أيضا لدى

Dictionnaire des auteurs maghribiens. Karthala 1983, (١)
p. 238.

الكتاب المصريين الذين احتفظوا بهويتهم حتى اللحظات الأخيرة من حياتهم .

ادمون اليابس (١٩١٢ - ١٩٩١) Edmond jabs

ولد ادمون اليابس في القاهرة في ١٦ أبريل ١٩١٢ ، من أسرة ذات أصل ايطالى . ودرس في مدارس الفرير . ثم في الليسيه الفرنسية في العاصمة . وكتب الشعر في سن مبكرة من حياته فنشر أعماله وهو في سن السابعة عشرة . ثم اكتشف الشاعر ماكس جاكوب ففتن به وبأعماله وتأثر به تأثرا واضحا . كما تأثر بالشاعر جابرييل بونور . وكان ادمون مشغوقا كثيرا بالصحراء في مدينة القاهرة . ويحب كثيرا المساحات الشاسعة من الرمل الممتدة أمام عينيه . وقد سافر ادمون الى فرنسا من أجل استكمال دراسته . وهناك سرعان ما اختلط بالحركات والمدارس الفنية التي كانت منتشرة بشكل ملحوظ ، وخاصة السرياليين التي جذبت الكثير من المصريين . وهناك التقى بـماكس جاكوب وقامت صداقة بين الاثنين استمرت عندما عاد ادمون الى القاهرة وكان لا يتوقف عن مراسلة جاكوب .

وفي مصر أصبح ادمون عضوا في جماعة « الفن والحرية » التي أسسها جورج حنين وماري كافاديا وأسس الثلاثة معا دار نشر تحمل اسم « حصّة الصحراء » في عام ١٩٤٧ . ثم مالبت أن انفصل عن الدار . وفي عام ١٩٥٧ كان على ادمون اليابس أن يترك بلده بعد أن أصدر جمال عبد الناصر أمرا بترحيل اليهود من مصر . وتقول مجلة « لونوفيل أوبسرفاتور » أن كل أعمال ادمون قد كرس من أجل الكتابة عن الشمس الأصلية في مصر (١) . أما كتاب « الأدب العربي الفرانكفوني » فيقول : « انه بالرغم من أن ادمون قد اختار لنفسه أن يكتب باللغة الفرنسية . الا أنه لم يندم على شيء قدر ندمه بأنه بعيد عن اللغة العربية ، وأنه قد أبدع أشعارا رائعة ، وأجمل الأغنيات المليئة بالأنوار والموسيقا التي لا نجد لها سوى عند الشاعر الفرنسي رينيه شار . وبول ايلوار . وأيضا جورج شحاده . ففي هذه النصوص يبدو الشرق وهو يتنفس من اتساع الصحراء . كما يبحث مبدعوها عن معاني الأشياء . » عن بياض الكلمات . وسواد المعاني .

نشر ادمون ديوانه الأول في باريس تحت عنوان « أوام عاطفية » عام ١٩٣٠ أما أعماله التالية فقد نشرت في القاهرة مثل : « ماما » التي نشرت في مجلة « الأسبوع المصري » التي كان يعمل فيها جورج

E. Jabs, le nouvel observateur, 11-7-1991, p. 86.

حنين وذلك عام ١٩٣١ . وفى « مجلة القاهرة » نشر ديوان
« الأقدام فى الهواء » مع رسالة موجهة الى ماكس جاكوب . وذلك فى
عام ١٩٣٠ ، أما أعماله التالية فقد نشرت فى القاهرة مثل : « ماما »
« أنات مصرية » . وفى عام ١٩٤٥ نشر مجموعة من الرسائل التى
أرسلها لماكس جاكوب مع مقدمة كتبها الأديب الفرنسى أتمبل . وقد
نشر فى عام ١٩٤٧ ديوانه « أعماق المياه » . ثم نشر له فى باريس
ديوانان هما « أغنية لوجبة الفول » و « ٣ بنات من حينا » . وفى
عام ١٩٤٩ نشر فى القاهرة ديوان « صوت الهلب » وبعد ذلك نشر
كتبه كلها فى باريس ومنها « أشيد مسكنى » عام ١٩٥٩ ، و « كتاب
المسائل » عام ١٩٦٣ ، وكتاب « يوكل » عام ١٩٦٤ ، ثم « عودة الكتاب »
عام ١٩٦٥ ، و « بيل » ١٩٦٧ ، و « ايلى » عام ١٩٧٢ .

والكتابة عند ادمون اليابس بمثابة غوص فى الأعماق . وهى خلق الزمن
كى يستمر العالم . وتدخل فى مسألة الخلق شعلة الحياة . وذلك مثل
خلق العالم . والكتابة عملية مستمرة متجددة فى كل لحظة . والكتابة
تعتبر بمثابة سؤال موجه الى الزمن . ومهما انتهى الكاتب من مخطوطه
فان الكتابة لا تنتهى .

وربما لهذا السبب فان أبيات قصائد الشاعر طويلة ، مثل قصيدته
الغربية « اليك أتكلم » المنشورة فى ديوانه « أشيد بيتى » ، وهى أشعار
كتبها بين عامى ١٩٤٣ و ١٩٥٧ فى مصر . ولكنه نشرها فى باريس عقب
سفره الى هناك . ويقول :

اليك أتكلم ايها الصدى .. ايتها الأغاني المنقولة . ايها الخبر
اللامع . أعلن لك رغبتى . فالبحر بلا مسيرة فى الفم .

اليك ، يا ربيبة ذروة رأسى التوعم . وحركة الجليد . هناك .
لا مثيل لك .

اليك ، ايها الحب المغناط ، والحقائق الأولى . والأجل المربوط
بالحجارة المثبتة .

اليك ، اليك وحدك ، يا صراع الشموع ، ولحن الصحراء . وبداقة
ملينة بالتوقعات .

أنا مجروح فى براعتى . وطهارتى . والروابط المتوحشة فى الهواء
والماء . انتقدت مرة . أكثر جدالا . وقد عرضت مشاعرى . وسياتى ،
ومسحبة الحميق .

وعقبة الحب فى الهروب السهل .

وفى نفس الديوان نشر ادمون قصيدة تحمل عنوان « الزقاق » تختلف
تماما فى معانيها وطول المقطع • فهو يقول :

مسقط المياه

واليهجة

وخطوة المطر

فى الألم

تؤثر بلا أمل

وتسيان الزقاق

والخطى تطيع السلالم

كل الصيحات راضية

ويختطف المجذاف الصوت

وتخطو النداءات من باب لباب

وتتبادل المجهول بين الجيران

مسقط المياه

انتقام المياه

فوق المظلات

الألم وحده

ينذ أوحاز

لقد آمن ادمون اليابس أن معرفة كلمة ، والتوغل فيها أشبه
بمعرفة كتاب بأكمله والتوغل فيه • وهو يرى أن الشعر كان سلوته وهو فى
المنفى : « يجب أن نتوه وأن نرتبط بالخير أو الدروب كما نلحظ ، فى
النهاية فأننا لا نترك ذوبنا فى أية لحظة » • وقد كتب ادمون فى ديوانه
الآخر المعنون « كتاب الضيافة » المنشور فى عام ١٩٩١ قبل وفاته بأشهر
عديدة أن كل شيء قد تمت إعادة كتابته •

وهو يقول فى هذا الديوان أن « الكتابة الآن مصنوعة من أجل أن
نعرف أنه ذات يوم سوف أتوقف عن الوجود • وأن كل شيء من أعلاى
ومن حولى قد أصبح أزرق وكثيفا ، متمددا فى فراغ كى أطير طيران
النسر ذى الجناحين القويين وهو يضرب بهما • وهو يتجه نحو
مجهول مشيرا اشارات وداع للعالم » •

« أجل • بالضبط كى نؤكد أننا توقفت عن الوجود فى اليوم الذى
يبقى فيه طير الكواسر وحيدا فى فضاء حياتى وكتابى الذى يحكم

سأدته • ويتخلص مما كان يبحث عنه فى داخلى • وقد تولد عندما كنت
أعبر • »

ومن الواضح أن الشاعر فى هذه الأعمال الأخيرة قد اختار
شكلا جديدا تماما للقصيدة • ليست بالطبع القصيدة النثرية التى كان
يكتبها أحمد راسم باللغة الفرنسية • ولكنه شعر ملىء بالموسيقا ، وقد
بدأ الشاعر فى هذه القصائد كأنه قادم الى خلود قاتم اللون • « الأسود
هو لون الخلود » • وقد اختار لديوانه الأخير عنوانا غريبا هو « رغبة
بداية المعاناة فى النهاية الوحيدة » •

الجدير بالذكر أن أدمون اليابس قد عرف نشاطا مكثفا فى الإبداع
خلال السنوات الأخيرة من حياته • وفى ١٩٨٥ نشر ديوانا
يحمل عنوان : « مسافات » ، وفى عام ١٩٨٧ نشر ديوانا يحمل عنوان :
« الصحراء فى كتاب » و « كتاب الاقتسام » • ومن عنوان الكتابين يبدو
مدى صدق الجملة التى سبق أن سقناها أن أدمون قد ظل محبوسا
بإبداعه فى صحراء مصر حيث يقول : « أنت تعتقد أن العالم مثل دودة
فى الصحراء تفكر فى المحيط • لقد خلق الله الدنيا بعد أن خلق الصحراء •
يسكن النسر فى الحجر السموان وهو يطير فوق الرمال » والصحراء
هنا هى صحراء مصر كما يقول الكاتب فى مجلة لوفيل أوبسرفاتور(١) •
وفى عام ١٩٩٠ نشر أدمون اليابس مجموعة من القصائد التى كتبها
بين عامى ١٩٤٧ و ١٩٨٨ تحت عنوان « عتبة الرمل » • والديوان ضخيم
الحجم يقع فى أكثر من ٤٠٠ صفحة وأغلب هذه القصائد من ذوات المقاطع
الطويلة • بل إن فقرة بأكملها : كما سبق أن رأينا ، يمكن أن تكون
قصيدة أو بيتا من قصيدة :

« فى الواقع فأننا لم نستسلم للقطيعة • بأن نطرد من مصر •
لقد جئنا الى باريس وعشت فى المدينة التى يعيش فيها الشعراء الذين
أرغب فى أن أكون وريثا لهم • وبدلا من أن أرتبط بهم • فعلى العكس
فأننى ابتعدت عنهم • وجدت نفسى على مسافة منهم • ليس على مسافة •
ولكن فى ابتعاد • لأننى أنا مرتبط بمكانى » (٢) •

ويقول اليابس فى نفس الكتاب عن الصحراء : « عندما نتعرف على
الصحراء • فأننا نبقى فيها الى الأبد • ومن الصعب نسيانها • فصمت
الصحراء ينخر فىك • فأنت هناك تكون نفسك • بمعنى لا شيء » •

(١) المصدر السابق •

le seuil du sable, Gallimard, Paris, 1990.

(٢)

« لأنه قبل أن تكون كلمة ، فإن الكتابة سماعية . أنا شخص مرئي . أنا أرى الكلمة . أراها تتكون وترسم . وفي نفس الوقت أسمعها . هناك أولا نوع من الحركة تخرج فجأة من الكلمة وتروح تأخذ معناها . وهكذا الشعر . كما أن بعض الشعر يبقى صامتا . ليس هناك سوى الصوت الذى يمكن أضاقته ، والخيال الذى يدخل الجزيرة فجأة .

« الكتابة حياة اختفت . الشعر يوقظ أو ينبه فينا الذكرى . وطالما أنه يمكن أن يكون أيضا . فانه يثير ذكرياتنا . وفيه تبدو الدهشة أمام الجملة التى تتفكك تقريبا دون أن تعنينا كثيرا . كى نعبر عن الحب . لا نريد أن نقول « أحبك » ثم سيصبح للشعر حركته وحببه الذاتى » (١) .

جويس منصور (١٩٢٨ - ١٩٨٦)

تنتمى الشاعرة والروائية جويس منصور الى عائلة يهودية كبرى عرفت فى مصر من خلال أنشطتها الاقتصادية والتجارية وهى عائلة عدس . فجويس هى ابنة تاجر كبير اقتضى عمل الأب أن ينتقل بين بريطانيا ومصر . وفى أثناء إحدى هذه الجولات ولدت جويس فى عام ١٩٢٨ (٢) .

ورغم أن جويس الصغيرة قد أتقنت اللغة الانجليزية بحكم ترددها الدائم على بريطانيا . الا أنها التحقت فى القاهرة باحدى المدارس الفرنسية . باعتبار ، كما أشرنا ، أن هذه اللغة تمثل انعكاسا للرقى الاجتماعى أكثر من الانجليزية فى تلك الآونة . لذا فقد قرأت الأدب الفرنسى . وراحت تعبر عن مشاعرها بهذه اللغة . ثم انتهت من كتابة أول قصيدة وهى فى الخامسة عشرة . فى عام ١٩٤٨ كانت قد انتهت من جمع ديوانها الأول « صرخات » وفى تلك الآونة كانت قد تعرفت بالشاعر السريالى جورج حنين الذى راح يشجعها . وكان أكثر الشخصيات التى تأثرت بها .

وقد تمتعت جويس منصور بقدر من الجمال قل أن تتمتع به امرأة فى عصرها . هذا الجمال كان أيضا مفتاحا للدخول الى عالم رحب وواسع . وكم أحست الفتاة أن الله وهبها كل ما تتمناه أية امرأة فى

(١) المصدر السابق .

(٢) تم الرجوع الى الأعمال الكاملة التى صدرت للشاعرة جويس منصور من خلال ما نشره هنا عن الشاعرة . والكتاب منشور عن الناشر acles sude عام ١٩٩٠ .

الوجود . . . الجمال الباهر والثراء الشديد والثقافة العميقة . . . والابداع المتميز . . . بل وأيضا الزوج الذى تحلم به كل النساء . . . فقد تزوجت من شاب مصرى أكثر جاذبية ويؤمن بموهبتها . . . فراح يشجعها ويدفعها الى السفر الى باريس عندما وجد أن فرصة نشر شعرها المكتوب بالفرنسية أفضل . . . وفى عام ١٩٥٣ نشر ديوانها الأول بعد خمس سنوات من الانتهاء من تأليفه لدى الناشر .

وفى باريس كان اللقاء عاصفا ومدويا . . . فقد علق أندريه بريتون أنه من أجمل ما قرأ من شعر فى حياته . . . وطلب لقاء الشاعرة . . . وراح يعبر عن دهشته لجمالها « الفرعونى » حين التقاها مع زوجها . . . وهو يقول : « أنت أول امرأة امكنا أن تكتب عملا غريبا كشف عن كل ما يمكنون صدرها » .

ولم تقطع جويس منصور علاقتها بالقاهرة . . . وقد كتب أنيس منصور عن الصالون الأدبى الذى كانت تعقده فى جريدة أخبار اليوم - ٦ سبتمبر ١٩٨٦ - قائلا : « كان الحاضرون من رجال ونساء يأكلون ويشربون حول حمام السباحة ويتحدثون فى الشعر والأدب والفن بالفرنسية والانجليزية والاطالية والعربية . . . وكانت معجزة هذا اللقاء أو الغذاء طفلة تلقى شعرا باللاتينية . . . فعكفنا جميعا على الترجمة والتفسير والنقد والمقارنة » .

ويقول : « كأننا نرى قمة جبال الأوليمب . . . أو جبل باراموس حيث يلتقى الآلهة وأنصاف الآلهة والشعراء والمطربون فى كورس سماوى . . . كأنهم ليسوا على هذه الأرض وكأنهم ليسوا منها . . . لم أكن أعرف ذلك . . . ولا تخيلت . . . ولكنه أمكن » .

فى العام التالى ١٩٥٤ نشرت جويس ديوانها الثانى تحت عنوان « تمزقات » الذى أثار ضجة جديدة حول هذه الموهبة وكتب عنه أدباء بارزون مثل أندريه بيري وهنرى ميشو . . . ومنذ ذلك الحين أصبحت جويس وزوجها صديقين حميمين لأندريه بريتون الذى كان لا يخفى أن المرأة هى ملهمته لكل أشعاره . . . كما انتقل هذا الإلهام لأغلب الشعراء والرسامين السرياليين الذين أعجبوا بجويس كشاعرة وكامرأة جميلة . . . فكم رسموا لها من لوحات ! . . . كما راحت الشاعرة تنشر قصائدها فى كتالوجات معارض رسامين عديدين مثل الفنان الكندى جان بنوا والإسباني « باتا » الذى صورها كثيرا تحرق صدر الفنان . . . ثم الفريديو لام . . . وبيري الشينسكى . . . وسافنبرج . . . وتوين . . . ولينور فينى .

وقد عبر أندريه بریتون عن ابداع جويس منصور قائلا انها « حديقة هذيان هذا القرن » . كما أكد أكثر من عرفها أنه لا يوجد اختلاف بين أناقة هذه المرأة كما عرفها الناس . وبين أناقة شعرها ، وكأنهما كيان واحد .

في أعمالها الكاملة نجد كافة نصوصها النثرية وقصائدها المنشورة والتي ظلت تكتبها حتى وفاتها في ٢٨ أغسطس عام ١٩٨٦ . وقد تم ترتيب هذه الأعمال حسب النوع الأدبي . فهناك نصوص قصصية نثرية نشرت عام ١٩٥٨ تحت عنوان « الراقدون الراضون » . ومسرحية قصيرة منشورة عام ١٩٦٨ تحت عنوان « أزرق الأغوار » ومجموعة قصص قصيرة منشورة عام ١٩٧٠ باسم « هذا » أما دواوينها الشعرية فهي « صرخات » عام ١٩٥٣ . ثم « تمزقات » ١٩٥٤ . و « كوابيس » ١٩٦٠ ، ثم « المريع الأبيض » ١٩٦٥ ، و « اللفتات » عام ١٩٦٧ ، و « فالوس والمومياء » عام ١٩٦٩ ، ثم مجموعات من القصائد المتناثرة كتبتها في كتالوجات معارض الفنانين - كما أشرنا - « الابن الكبير » عام ١٩٨١ ، و « نيران مستعمرة » ١٩٨٥ ، و « ثقب سرباء » عام ١٩٨٦ .

وفي ابداع جويس منصور تجد الفنان المؤمن بحرية التعبير . وبانطلاقة القدرة على العطاء ، فلا حواجز يمكن أن تقف أمامه من أجل أن يعبر عن مشاعره . فنحن في الأحلام نرى كل شيء مباحا . والكوابيس مثلا تمثل حقلا خصبا لتحطيم الأزمنة ، والأماكن والألوان والتركيبات المللوفة .

ومن المعروف أن السرياليين كانوا يؤمنون بثلاثة فنون ويتعاملون معها في المقام الأول عن بقية الفنون وهي على الترتيب الفن التشكيلي ، والقصيدة ، ثم السينما ، ففي هذه الفنون يمكن للفنان أن ينطلق دون أن تعرقه حدود . وهو لا يصبح أسيرا إلا لما يعتمل في نفسه . أما الرواية وفن القصة بشكل عام فإن الفنان غالبا ما يجد نفسه فيه مخبوسا في إطار الحدود . ومشاعر الآخرين . أما في القصيدة فإن الشاعر مجبر على أن يعبر عن نفسه في المقام الأول . وفي اللوحة فإن الريشة والألوان هما نبض الفنان وخفقات قلبه .

ولذا ، فلا يمكن أن نعتبر تلك النصوص النثرية التي قدمتها جويس منصور بمثابة ابداعات قصصية . كما لا يمكن إدراجها تحت تقسيم الشعر المنثور . فهي نصوص طويلة مختلفة الشكل ، فيها الأشخاص يتحركون ، لكننا لسنا أمام موضوع قصصي محدد ، مثلما نحن في اللوحة

السريالية ننقل من عالم هلمى لآخر دون أن نتساءل عن السبب .
ولا نعرف النتيجة .

وفى أقصوصة « ماري أو شرف الخدمة » تمزج الكاتبة بين أزمنة وأماكن عديدة . فهي تشير فى السطور الأولى الى أن الأحداث تدور فى بدء الخليقة . ثم نعرف انها تدور فى شمال أفريقيا داخل فندق صغير تحفه الشوارع الواسعة المكتظة بالناس . ومارى بطلنة القصة تتمتع بحسية واضحة . وفى القصة هناك سفاح يجالس الناس ويضحك معهم . ومارى تشعر بالقلق لأن السفاح قد يغيب بضعة أيام . تجلس الى جوار النافذة تنتظر ظهوره . تعتمد الا تحدث الى اختها جيرمى عن انتظارها . لكن قلقها لا يمكن اخفاؤه . ومارى امرأة تعشق الأحلام . . . فى كل ليلة تنام مرة واحدة . وتعيش الحلم ببيكارتة فى روحها . ترى نفسها تجرى بلا ملابس وسط رياح مستعرة أن تكشف سرها . وتحس بالمياه ثقيلة . وترى طائر الكرنندور يحلق فى السماء . والطيور تصدح . وتتقلب ماري كى تتمتع أكثر . فتقدم نفسها وعفتها فوق آخر شعلات العفة . وترى الشارع وقد افقده الأسمنت عفته . فتهرول فى ضباب المدينة . وتحس بارتعاد أصابعها وتلمس جلدها الطرى والرخو تحت أشعة القمر . فتسبح فى الرمال ، والضباب والمستنقع والسماء . وترطم المصابيح بين السحب العائرة كأنها الكعكة . وتتشكل الأزهار فى جوهر كل حقل ، وتمسك ماري بزهور المرجريت . وقد اغرورقت عيناها بالدموع . وأمسكت فى سعادة بالأوراق الوردية المثلنية .

ومن هذه الفقرة نرى أننا لا يمكن أن نعيش مثل هذه الأجواء الا فى أحلامنا . حيث تتعاقب الأشياء دون اقناع أو تتابع . وتتدفق دون ترتيب أو انتظار . فرغم أننا أمام علاقة غير موجودة بين ماري وسفاحها الذى لا نعرف عنه الكثير ، الا أن ماري فى حالة حلم وتفكير ومعايشة لخيالها طيلة أوقاتها . سواء عندما تنام أو وهى تجلس على مقربة من النافذة تنتظر وصول هذا السفاح أو طوال ساعات النهار .

حتى هذا السفاح ، فان ماري تراه بمنظورها الخاص . فهو « بشر » مثلها يمتلك خيالا واسعا . ويعيش داخل ذكرياته . يردد : أنا صاحب أسرة متزمنة ومحترمة . تتمتع بصحة طيبة . ولديها افكار تربوية . أنا رجل فريد ووحيد .

وهذا السفاح يأتى الى ماري ، ربما فى خيالها ، من أجل قضاء لحظات حب غير ملموسة . يقول لها : « قفى » سوف تعيشين تبعا

لرغبتى • تذكرى عقدنا معا • وعندما يغيب السفاح ترقد ماري فوق مضجعها • وتنظر الى الببغاء تناديه بدلا من السفاح الحاضر الغائب • وقد تقرض بعض الأشعار • وتهتف أكثر من مرة باسم السفاح • « تتنهد ماري • وتترك نفسها تسبح لحظة طويلة بين حالتين من الوعي ودون أن تضيق فى قطيفة نومها • ليست لديها قوة التفكير ولا القدرة على التنفس • تبدو أفكارها باردة كأنها أشياء تتسلق بتكاسل فوق فروة رأسها • وصور رخوة غير محددة الأشكال • »

وفى هذه الأقصوصة الغريبة لا تنسى جويس منصور أنها شاعرة • فمارى تقرض الشعر وهناك مقاطع من قصائد تنطق بها • والقصة لا تضم سوى شخصيتين فقط هما ماري والسفاح الذى ليس بقاتل • « غنى السفاح بصوته الجميل كرجل فخور بقوته • وتتبعه النساء متكاتفات الأيدي ، ووثاقات فى أنفسهن ، نظرت الى الباقيات من كوخها وقالت بحزن : لست سوى فأرة فى فندق • انسانة مسكينة ثم انسالت الدموع على خدها • وهبت رياح شريرة • الزهور والعصافير والأشياء ذات الألوان اللامعة والروائح العطرة ، هبت من الضوء المعتم فى الروح الممتدة وسط حالمتى النوم واليقظة • »

ورغم أن « ماري أو شرف الخدمة » هى الأقصوصة الأولى فى كتابها « المتمددون الراضون » ، الا أن الناقد لا يمكن أن يضعها فى تقسيم أدبى معين • فهى ليست بالأقصوصة لأنها تقع فى أكثر من سبعين صفحة ضخمة الحجم ، وهى ليست رواية بالمعنى المتعارف عليه الا اذا أدرجناها تحت تسمية « الرواية الجديدة » • أو الابداع السريالى • وكما أشرنا فان النصوص الروائية التى كتبها السرياليون نادرة للغاية •

والنساء فى بقية نصوصها القصصية غارقات فى أحلامهن مثلما كانت ماري ، وهن يعشن فى عالم غامض مثل كلارا فى أقصوصة « السرطان » ، فهى لم تخرج أبدا من منزلها ولم يسبق لها أن شاهدت احدا •

كما أن الموت موجود ككائن رئيسى فى أغلب ابداع جويس منصور النثرى • ففي أقصوصة « السرطان » تموت بين ذراعى حبيبها الرواية الذى يفاجأ بالشرطة تقبض عليه ثم تخلق سبيله عندما تعرف سر موت كلارا : « ماتت فى الرابعة صباحا • والذكرى التى احتفظ بها عن هذه الليلة هى اننى لن أستطيع أبدا أن ألقاها • هناك مقعد من الضباب حولى • وبعض الحبر الردىء فى دمي • فغدوت كالمجنون • »

أما فى مجموعة النصوص القصصية التى تحمل عنوان « يوليوس قيصر » فان الموت موجود فى الدماغ : « ماتت رأسى معه • لست سوى

كنلة من الرماد المكتوم والتي ترحل كل صباح من المصنع حتى أكسب حياتي . لأنه يجب أن نستمر على قيد الحياة . حتى ولو كنا بدون رؤوس . لقد تركت آخر أسناني اللبنية في فم زوجي الذي مات من التضخم الاقتصادي ، ورحلت أعد نفسي لإجراءات الدفن .

« ارتديت ثوبا أسود . به ألف ثنية من الذكريات ، بالغ الاتساع عند الفخذين . وبالغ الضيق على الصدر . لقد دفنت صديقي يوم خطبتنا » .

ورغم شهرة جويس منصور كشاعرة . إلا أنه بمراجعة أعمالها الكاملة فإن مساحة أعمالها النثرية تكاد تعادل كل ما أبدعته من شعر لكن يبدو أن مقولة الكاتب عباس العقاد ، أن خمسين قصة لا تعادل في قيمتها بيت شعر متميز ، صادقة . فلا تكاد تذكر جويس منصور بين كتاب القصة القصيرة ، ولا الإبداع النثري بالمرّة . رغم أهمية هذه النصوص كما رأينا . ولا تجيء أهمية هذه النصوص فقط في سلاستها ولغتها الراقية . بل لأنها بذلك تكون من بين السرياليين الذين سعوا لافساح مجال الإبداع أمام عطائهم . فكما أشرنا فإن القليلين من السرياليين قد اتجهوا إلى فن القص . وقد تعمدنا أن نعود إلى هذه النصوص ونقتطف منها لنتأكد إلى أي حد أفادت جويس منصور النثر بشاعريتها .

وجويس منصور ظلت ودية لسريالييتها حتى آخر كلمة كتبتها قبل وفاتها . ليس فقط لأنها أخذت كافة أعمالها إلى أندريه بریتون رائد الحركة السريالية . ولكن أيضا لأنها رسمت في نثرها عشرات بل مئات من اللوحات السريالية . ولم تنس أبدا أنها شاعرة وهي تكتب النثر سواء النص القصصية أو المسرحية ذات الفصل الواحد التي تضمنها الأعمال الكاملة .

لكن ، من الواضح أن نثر جويس منصور قد اختلفت أبعاده طوال السنوات الإبداعية ، ففي مجموعتها «هذا» المنشورة عام ١٩٧٠ بدت كأنها تتكلم وتصف ظواهر الأشياء أكثر من أعماقها . لكن الموت ومراسيم الدفن لا تزال ماثلة في ذهنها . ففي أقصوصة « النقطة » تصف جنازة بتفاصيل دقيقة من خلال المراسيم نفسها . ومن المعروف أنها في النصوص التي سبقتها عن مثل هذه الشعائر ، كانت تتعامل معها كأنها أشياء من الأحلام ، تابعة من الوعي، والماضي والحاضر والمستقبل معا في مزيج من الصعب تحديد هويته ، أو معرفة أبعاده . .

إلا أنها تتحدث عن هذه الأمور في هذه القصة مثلا على النحو التالي : « تم الدفن في اليوم الرابع . بدت الأم كأنها تنتحب وسط الخطبة . بدا النحيب طويلا ومثيرا للملل رغم هذا المشهد الدائر في غابة

« ماري كيلو » • قالت ماري اننى لم أسمع شيئاً عندما حضرت الحقل ، بل رأيت الأم تتمخط مرات عديدة بقوة » •

وكما نلاحظ فان أغلب هذه القصص لا تنتمى الى البيئة العربية مثلما فعل ادباء آخرون • لكننا بشكل عام أمام حالات انسانية مجردة • فرغم الأسماء غير العربية • الا أن النحيب ، مثلاً ، عند المقابر ظاهرة انسانية •

وبملاحظة القصة التى كتبتها فى الثمانينات تحت عنوان «أنقيلولة» نجد أن جويس منصور قد ابتعدت بشكل ملحوظ عن أعماق النفس البشرية وتصويرها ، واهتمت بالحديث عن البشر من الخارج أكثر • فالراوي هنا يراقب الآخرين كيف يمشون ويتحركون • وهو يسجل رؤيته لما تراه العين أكثر مما يحدث للمرء من تأثير نتيجة لهذه الرؤية • ورغم تغير أسلوب الكاتبة ، فاننا نجد نفس الهم الذى طاردها دوماً • فالكاتبة النى-أصببت بداء السرطان سنوات لا تزال تتحدث عن الموت ، وعن هذا المرض اللعين بانكسار شديد : « راح ظل السرطان ينعكس فوق شاطئ مجهول • سريره خاو الآن • • وتبدو الهموم قابضة فوق وجوه مجموعة صغيرة من الزوار • بدءوا يفهمون أن عليهم أن يتمتعوا كى يتعلموا » •

وكتبت جويس منصور مسرحيتين قصيرتين • احدهما لا يتجاوز عدد صفحاتها الاثنتين • وفى هذا النوع من المسرحيات نجد أنفسنا أمام شخصيات قليلة للغاية • فنحن فى غرفة شبه خاوية حتى الجدران فى مسرحية « أزرق الأغوار » • ومن الشخصيات هناك رجل عجوز وامرأة جميلة تدعى مود ثم ابنتها الصغيرة • أما الجو العام للمسرحية فهو الموت • فالمرأة ترتدى زى الحداد • والرجل يتألم من المرض • وهى ينظر الى ماضيه بحسرة • فقد كان يتمنى أن يصبح كاتباً ذات يوم ولكنه الآن لا ينظر سوى الذهاب الى الطبيب • أما الصغيرة جيروم فهى تنطق شعراً وترقب ما يحدث فى البيت دون أن تمتلك حلاً لما يدور حولها • تسمع أمها تقول :. « كم أحس بالبرودة • فى كل مرة أريد أن أتجمل • أحس أن على أن أحطم المرأة • لا أجرو أن أرى اثناء الأخريات أكبر من صدرى » ، ومود امرأة مليئة بالأحزان • وعليها أن تتخيل نفسها باللغة السعادة حتى تتخلص من آلامها الحقيقية •

والمسرحية بمثابة محاورة تنكشف فيها العلاقات الممزقة بين الأب وابنته وحفيدته • فهو يذكر ابنته أنه بمثابة أب • فهو الرباط الوحيد بينها وبين طفولتها • أما الصغيرة جيروم فانها تتخيل وجود شخصيات خيالية قابضة خلف زجاج نافذة غرفتهم الضيقة •

أما المسرحية الثانية « سكرة المدن الكبرى » فهي محاورة بين رجل وامرأة أثناء لحظة هوى يبدوان وكأن كلا منهما يحطم الآخر .

هذا هو عالم جويس منصور النثرى . فماذا عنها كشاعرة ؟

لا شك أن شكل القصيدة قد تغير كثيرا عند جويس منصور . ففي ديوانها الأول « صرخات » اتسمت أبياتها بالعبارات القصيرة . وبمقاطع لا تزيد عن خمسة الأبيات غالبا في كل منها . ثم أصبحت هذه المقاطع طويلة . وبشكل عام فإن جويس منصور مهمومة في شعرها بالحب والرجل ، والحياة . وايضا الموت والمرض . وفي قصائدها الأولى كانت تستعذب الحب . الا أنها في قصائدها الأخيرة استعذبت المرض والألم . وفي كل عشقها للأشياء ذهبت جويس منصور الى أقصى الحدود . أحبت حتى النخاع . ودرجة اسسالة الدماء . ولم يكن يهمها في ديوانها « صرخات » أن تعنون أشعارها . فبدأ الديوان كله وكأنه بمثابة قصيدة واحدة . ثم أصبحت لكل قصيدة في دواوينها التالية عناوين وموضوعات .

وقد تخطت جويس منصور الكثير من قيود القصيدة . وإن كانت قد التزمت بموسيقا الشعر . وفي أغلب قصائدها هناك دائما تساؤلات ممزوجة بالتعجب . لا اجابات عليها . ويهمنا هنا أن نقتطف بعضها من نماذجها الشعرية في مراحل عطائها المختلفة . ففي « صرخات » تقول :

رايتك عبر عيني المغلقة

تتسلق سور احلامك الخائف

وتفقد قدما من قدميك على العشب النائم

ترقد عيناك فوق المسامير النائنة

بينما اصرخ دون أن أفتح فمي

كي أفتح رأسك لليل .

تقبل صلواتي

التهم افكارى الملونة

ونقنى . حتى تفتح عيناى

لقريا ابتسامة السفاح الداخلية

نقية ولو لمرة .

اصلبنى يا يهوذا .

وفى نفس الديوان « صرخات » أو فلنقل فى نفس القصيدة التى
لا تكاد تنتهى تقول :

الذباب فوق السرير
فوق السقف فى فمك وعينيك
نائما فوق ملاءة حتى رقبته
هناك رجل ماكر جاهل
أترك لى جلدى
ولا تفرغ بطنى •
وليس لظلك قم
وليس لغرفتك باب
وعيناك بلا نظرات
وبلا رحمة •• بلا لون
وخطاك تسير
بلا أثر
نحو الضوء المثير
أنه جحيمي •

ويكاد يكون ديوانها الثانى « تمزقات » المنشور عام ١٩٥٤ مشابها
للديوان الأول ، سواء فى شكل القصيدة ، أو فى موضوعها وأيضا فى
لغتها • لكن كل هذا بدا يحدث شكلا جديدا فى ديوان «كواسر» المنشور عام
١٩٦٠ • فنحن أمام قصائد متعددة • ولكل منها هوية محددة • ولأول مرة
تكتب جويس منصور القصيدة ذات التفعيلات المتعددة • مثل قصائدها
« لأنه ليست لك ساقان » ، و « الموتى فى رؤوس الكلاب » و « عيرون
الأصدقاء » ، إلا أنها استعملت التفعيلة الواحدة فى ديوانها الرابع «المربع
الأبيض» المنشور عام ١٩٦٥ • ويكاد يكون هذا الديوان بمثابة تحصى
لقصائد متعددة التفعيلات • ويهمنى هنا أن نقتطف بعضا من أبيات قصيدتها
« باب الليل مقفول بالقفل » :

ابحث عن الصحراء
فوطئى جلف وسرى
والحياة هى نفسها
والمطرب نائم فى السرايات العميقة

وسجاد •

يمشى فى الحديقة المغلقة •

و •••

ولم تستطع الشاعرة أن تخفى آلام المرض فى ديوانها الأخير «ثقوب
سوداء» المنشور عام ١٩٨٦ • فقد تحولت الألام الوردية والمشاعر
الحسية التى ملأت ديوانها الأول الى تأوهات ألم • واختفت مشاعر الحب
بشكل واضح • فهى تقول فى آخر قصيدة نشرت لها قبل رحيلها :

نحن لا نعيش مع الموتى

فهم يتزلزون فوق ملاءات النسيان

نحو ثقوب سوداء

يسبحون ويرتعدون فى رياح المساء

وتخوى عيونهم كأنهم الحمام

وتختلق أعضاؤهم

فى وحل الذكريات

نحن لا نعيش مع الموتى

فأفواههم مائئة بالزبد

ومهما بذلنا من جهد

فإن تنهداتهم الجائعة تمزق الهواء

كم نقاب

لكنهم لا يذكرون شيئا

مشغولون بمن يكونون

ويتمتعون بحدادهم

مشغولون بمن يكونون

ويتمتعون بحدادهم

ومن الواضح أن الشاعرة جويس منصور قد ابتعدت كثيرا عن
عالم الباطن الذى يشغف به السرياليون كثيرا • وصنعت عالما جديدا
تماما فى قصائدها الأخيرة • عالم سوف تذهب اليه راضية • ومثلما
كرمت مشاعر الحب فى قصائدها • ومثلما مجدت الحياة فى أشعارها •
فلم لا تفعل ذلك تجاه عالمها الجديد الذى تتجه اليه فبدت كأنها تضع
لنفسها رثاءها الخاص بها •

أدمون المليح (١٩١٧) :

عرف أدمون عمران المليح في الثقافة المغربية الحديثة ، كواحد من كبار الفلاسفة ، وكبار المهتمين بالفكر الشيوعي وذلك حتى عام ١٩٨٠ . حيث نشر روايته الأولى «مسيرات ساكنة» أي وهو في الثامنة والسنتين من العمر . والطريف ان هذا الفيلسوف الذي بدأ الكتابة الإبداعية وهو في هذه السن قد نشر ثلاث روايات في خلال ست سنوات ، ففي عام ١٩٨٣ نشر روايته الثانية « عيلن عيلن أو ليلة الحكى » Ailen Ailen ou la nuit de recit وبعد ذلك بأربعة أعوام نشر روايته الثالثة « ألف عام ، يوم واحد » 1000 ans, un jour .

والمليح من مواليد مدينة صافي المغربية في عام ١٩١٧ من عائلة يهودية . وفي عام ١٩٤٥ انضم الى الحزب الشيوعي الذي كان في طور التكوين . ثم تولى وظيفته كسكرتير شباب الحزب . وفي عام ١٩٤٨ انضم الى اللجنة المركزية بالحزب . ثم الى المكتب السياسي . وقد اشترك المليح في النضال من أجل استقلال بلاده . ثم استقال من الحزب عام ١٩٥٩ . وقطع علاقته نهائيا بالسياسة . وفي عام ١٩٦٥ سافر الى فرنسا واختارها مستقرا له .

والجدير بالذكر أن الكتب الثلاثة التي نشرها المليح ، ليست روايات بالمعنى المفهوم عن فن الرواية . ولكنها أقرب الى نصوص روائية . يسترجع فيها الكاتب سنوات الحنين التي عاشها ، خاصة في المغرب . وفي هذه الروايات تتكرر نفس الشخصيات مثل شخصية « عيلن » التي كانت بطله روايته الثانية . لذا ، فكما جاء في جريدة « لوموند - ٢٣ مايو ١٩٨٦ - فان رواياته الثلاث بمثابة ثلاثية .

ورواياته ، كما أشرنا ، هي روايات نكريات . خاصة روايته الثالثة: «ألف عام ويوم واحد» . فهو يصور حياته كما عاشها «على المرء أن يكتب عن حياته دون أية علامات تنقيط» . احترام أن تطرح هذه العلاقات نفسها أمام عيني . انها مرتبطة معا بنفس الطريقة التي يرتبط فيها الزمن بالحياة . أحب الزمن الممتد أمامي . وأحب تقطيع المشاهد . لقد رفضت التقسيمات دوما . فترى هل هذا الكتاب رواية . لنقل انه نص أدبي ولكنه ليس الشكل التقليدي للرواية . فقصة الحياة تثير في الشجون . ولكنني لن أرويها بأسلوب تقسيم النبات في علم النبات ، (١) .

ويطل الرواية يدعى نسيم • وهو يبحث عن أوديسيوس كى يرحل معه فى مركبه التى تسافر عبر البحار • وان يسلم امره اليه • وبينما هو فى رحلته ، يتأمل المصير الغامض لشعب يبحث عن آثاره • فى ومضات التاريخ • وفى العنف الذى ساد البشرية • والصداق واللحظات البارزة من انتصارات واخفاق فى تاريخ البشر •

يتصرف المليح كأنه اذا أراد أن يتكلم عن نفسه ، فليجعل آخرين يفعلون ذلك نيابة عنه • ويروى الكاتب الحياة التى عاشها اليهود العرب مع أقرانهم من المسلمين فى المغرب طوال ألف عام • هذه العلاقات بدأت الآن فى التغير • ليس هذا الكتاب مصنوعا من أجل الشباب اليهود الذين لم يعرفوا هذه الجماعات • ويتساءلون مثل كل الشباب المغربى • فالمغرب التى أتكلم عنها لم تعد موجودة الآن طالما أنها افتقدت واقعها الحالى • (١)

ويتحدث المليح عن رحيل مجموعة من اليهود المغاربة • انه فى أعماقه مغربى أولا • ثم يهودى ثانية حتى لو عاش فى فرنسا أكثر من عشرين عاما • وذلك مثلما فعل الشاعر المصرى ادمون اليابس • يختلف المليح فى أن ذكرياته عن بلاده التى جاء منها ليست مليئة بالمرارة • مرارة الحنين بأنه يود أن يعود مرة أخرى • فالمليح يمكنه أن يعود • أما اليابس فليس ذلك فى مقدوره • ان ادمون المليح ملئ بمشاعر الحنين ولكن يكفيه أنه عاش هناك كل هذه السنين •

فى روايته « ألف عام يوم واحد » عام ١٩٨٦ يتحدث الكاتب عن حرب لبنان • فهو يحس ان لبنان هو أيضا وطنه • لأن هناك عربا مثله • ويتكلم بصفة خاصة عن الغزو الاسرائيلى للبنان فى صيف يونيه عام ١٩٨٢ • وكيف كان أثر ذلك على الذين عاشوا تحت سماء باريس • لقد تمزق الكاتب من ذلك العنف المتوحش « هل حقيقة ما يحدث هناك ؟ » (٢) •

وقد عبر الكاتب فى الصفحات الاولى من كتابه أن ما حدث فى لبنان كان الدافع الأول لتأليف هذه الرواية • « لا شك أن هذا الكتاب مرتبط بحرب لبنان ، لكننى لا أريد أن أغلق على نفسى باب السياسة • فليس هذا الكتاب بمثابة رواية ملتزمة ، بل انه ضد كل ما كنت أتمناه أن أخرج من كل رسوم الكاريكاتير • وأن أهرب من كل الشعارات » (٣) •

(١) المصدر السابق •

(٢) mille ans, un jour. Edmond el maleh, la pensée sauvage, 1986..

(٣) المصدر السابق.

لا شك أن عمران المليح يعرف عما يتكلم بالضبط . فقد سبق أن اشترك في تحرير وطنه ، المغرب ، من الاستعمار . ولكنه عندما كتب هذه الرواية لم تكن لديه أية قدرة كي يناضل من جديد . لذا ، فهو يكتب كتابا لعله يكون رسالة بدلا من السلاح الذي حمله فيما قبل . فهو ، على سبيل المثال ، يصف كيف بدأ اليوم جميلا في مخيم صبرا وشاتيلا قبل أن تجيء القوات الاسرائيلية . في هذا اليوم كان العشب ينمو فوق الأرض الممددة . لكنه انتهى وقد تلون باللون الأحمر من كثرة الدم . في هذا اليوم توجه نسيم بطل الرواية ، الى الشاطئ في المغرب . الناس هناك تتصرف كأن شيئا لم يحدث . فالمحلات مفتوحة ، والناس تفرح ، والاصدقاء يلتقون . ويلتهمون الفول الساخن ويستمعون الى اغنيات الحب المصرية في شرائط الكاسيت .

ويقول الكاتب ان اسم نسيم مكثف بالحروف الناطقة . اسم حقيقي يأتي منه الزمن والكلام . وكذلك اسم حامد . وهو اسم الطقل في الرواية . والجدير بالذكر ان شخصيات هذه الروايات لها موقف من العالم ومن السياسة بصفة خاصة . وهذه سمة قد لا نلاحظها ، السياسة ، كثيرا لدى الأدباء الذين يكتبون بالفرنسية . فنسيم له رأيه الخاص في الموت . وهو لا يريد أن يموت . لكنه لا يريد للآخرين ان يموتوا . وهو يتساءل هل يمكن للموت أن يصنع للآخرين هويتهم ؟ هؤلاء الآخرون الحبالى بالنسيان . كما أن موقفه مما يحدث في لبنان على أيدي قوات الغزو الاسرائيلية واضح فهو يرفضه بعنفه ووحشيته ، كما أنه يرفض سلبية العرب من وجهة نظر أخرى . ولا شك أن الكاتب يسكب من أفكاره وفلسفته على سلوك بطله . والكاتب يسمى البطل بالرجل ذي الألف قيمة . وصاحب الألف وجه والألف تيمة .

البيير ميمى (١٩٢٠) :

ولد في ١٥ ديسمبر عام ١٩٢٠ في أسرة يهودية بتونس . كان أبوه يعمل في صناعة البرادع ولغته الأساسية هي العربية . التحق بالمدرسة الحاخامية . وانضم الى حركة الشباب اليهودي . ومدرسة كارنو . درس الفلسفة في الجزائر . ثم سافر بعد الحرب الى باريس ليكمل دراسة الفلسفة في جامعة السوربون ، وتزوج من فرنسية ثم عاد الى تونس حيث عمل مدرسا و اقام معملا للدراسات النفسية الاجتماعية . كما عمل مدرسا للفلسفة . وأصبح مسئولا عن الصفحة الأدبية في صحيفة « لأكسيون » . ثم رحل الى فرنسا في عام ١٩٥٦ عقب اعلان استقلال تونس . وعمل مدرسا في جامعة نانثير . ثم مديرا لمجموعة الأبحاث حول الاستقلال والأدب في المغرب . وقد نشر البيير ميمى روايته الأولى ،

« تمثال من ملح » عام ١٩٥٣ بمقدمة من البير كامى . ثم جاءت روايته « آجار » عام ١٩٥٥ . وتتابع أعماله الروائية « صورة مستعمر تسبقها صورة استعمارى » عام ١٩٥٧ . و « صورة يهودى » عام ١٩٦٢ . و « الرجل السائد » عام ١٩٦٨ . ثم مجموعة مقالات تحمل عنوان « يهود وعرب » عام ١٩٧٤ . وقد توقف عن كتابة الرواية فى السنوات الأخيرة بعد روايته « الصحراء أو حياة مغامرات جبير على الميمى » عام ١٩٧٧ . وفى عام ١٩٨٢ نشر كتابا عن « العنصرية » .

ويقول جان ديوجو فى كتابه « قاموس الأدباء المغاربة » : « ان ميمى أراد أن يوسع مدارك الأفق ويزوج العالم . ولكنه أدرك الاختلافات فى المزيج المتحد . فتابع أبحاثه حول الاختلافات وبيكولوجية الانسان المغلوب على أمره كى يصل الى الايمان فى التفكير حول الاستقلال . وفى نفس الوقت الذى يحقر فيه مفاهيم العنصرية والاختلافات المتعارضة فى داخله » .

وفى كتاب « الأناب الفرانكفونى » أن ميمى رغم مغادرته تونس فى عام ١٩٧٦ ، إلا أنه صرح بعد ذلك بعشرين عاما أنه رجل وفى لانتمائه التونسى وليس الى إسرائيل ، فتونس هى الهامة وهى اللوحة التى يرسم عليها . فهو يقول : « أرضى هنا . وقد وجدت فيها عالمى وكتبى » (١) .

وفى نفس الكتاب إشارة ان ميمى اعتبر نفسه يهوديا . وقد عكس تجربته الخاصة فى جميع كتبه سواء أكانت روايات أم مقالات : « فى حياتى ، فان تجربتى المعاشة تعطى وحدتها لعملى » .

والكاتب فى روايته متمرد من خلال إبطاله على كل كافة أشكال الضغط على الانسان . وهو يرى أن الرواية هى وسيلة للمواجهة . وفى رواياته الأولى يمكن أن نكتشف أن للكاتب جيتو خاصا يسمى « الحارة » ، وما لبث هذا الجيتو أن اختفى فى أعماله التالية . وأصبح هناك اشراق خاص يعبر عنه . ففي روايته الأولى « تمثال من ملح » يحكى عن طفولته وسنوات المراهقة . انه شخص يحس بالمهانة والمرارة والتمرد . ويعانى كثيرا من اللغة الفرنسية التى يتكلمها فى المدرسة . ولغته العربية الأم التى يتكلمها خارج جدران المدرسة . انه طفل من أسرة بسيطة . وفقيرة . لكن هذا لا يمنعه أن يلحظ أن الثقافة الغربية التى يتلقاها فى المدرسة تسيطر على الثقافات الأخرى . لذا ، فهو يتركها خلفه ما أن يترك المدرسة . « أنا اسمى موردخاي . الكسندر بن لوشى » .

« آه ! هذه الابتسامة الرقيقة من زملائي ؟ هل هي زقاق مسدود ،
أم درب ؟ » كنت أجهل أنني أحمل اسما سخيفا . في المدرسة أعى اسمي
في المقام الأول ، لا أعرف سوى اسمي الذي أخرجه من حافظتي . ومن
خجلى . »

يجد الصغير نفسه يحمل العديد من الأسماء الثقيلة النطق .
ولا يعرف الى أى منها ينتمى . وهو لا يستطيع أن يعتاد على أى منها .
« سم نفسك بيير أو جان . وغير عاداتك وغير تمثالك الظاهر في هذا
البلد » أنا يهودى « وبشكل محدد أنا أسكن الجيتو » أو « أنا التمثال
الكريه ، أو أنا رجل شرقى العادات » أو « أنا مسكين » . وعلى أن
أرفض كل هذه المقولات الأربع . ولا أخجل منها بعد كانت مبعث احتقار .
أو أن يسخر منها البعض إبان طفولتي ، (١) .

وفي روايته الثانية « أجار » يتحدث الكاتب عن تجربة الزواج
المختلط ، والبطل هو تقريبا صورة مكررة من المراهق في الرواية الأولى،
لكنه أصبح طبييا وتزوج من فتاة فرنسية جاءت الى تونس . ويرى
الكاتب ان الزواج من أجنبية قد أعطى البطل تجربة جديدة عليه ان يتعلم
منها . فعلى الزوجة أن تواجه عالما يختلف عن عالمها . ويقول الكاتب
ان هذه الرواية بمثابة محاولة لكشف النقاب عن بعض الأمور السلبية من
أجل الوصول الى انجاح الزواج المختلط . والأخوة بين الشعوب .

وقد عاد الكاتب الى نفس الشخصية في روايته « العقرب »
المنشورة عام ١٩٦٩ . فنحن أمام الطبيب اليهودى مارسيل . انه أحد
الذين ظلوا في تونس عقب الاستقلال . وهذا الطبيب عليه أن يقوم
بترتيب أوراق أخيه الأديب اميل الذي اختفى في ظروف غامضة . ويعثر
في أحد أدراجه على بعض الأوراق . فيعكف على دراستها .

« سألته عن مهنته . كى نستريح . ولأن هذا يسبب له المتعة
دائما . لم نبق طويلا في هذا المستوى الأول . انه فقير . نصف اعمى .

(١) نفس المصدر .

رحل أبناؤه جميعا • تزوجوا • واستقروا • ولكنه لم يطلب منهم شيئا •
بدا غير يائس • ويفضل هذه الآلة التي تملأ الغرفة • كان يغزل الخيوط
الصفراء والحمراء • والخضراء • والبيضاء فى لفات طويلة •

« اذا لم تود الا يعاملوك كفقير • فالتزم الصمت » •

« ولكن هل كنت فقيرا • ضعيفا • مجهولا من الآخرين يا عم
مخلوف ؟ » •

« أجل ، يا بنى ، أجل • لكن عم تتكلم ؟ لست فقيرا ولست واهن
القوى • هل تود أن تقول انك فاقد أهلية الاحترام ؟ هذا خطأ • من المهم
أن تهين الآخرين • هل تعنى انك غاضب على نفسك ؟ أسرع وعش فى
سلام يا بنى • والا ستظل فقيرا ومنقسما » (١) •

وكما سبقت الإشارة ، فان هذه النماذج من الأدباء العرب اليهود
تؤكد أننا أمام أدباء وطنيين ، تجاه أوطانهم التى تربوا وعاشوا فيها •
وعندما رحلوا عنها ، وظلوا فوق أرضها ، فان أبداعهم مستمد من أديم
هذه الأرض العربية •

(١) نفس المصدر •

الفصل التاسع :

أدب المهجر الناطق باللغة الفرنسية

أغلب الأدباء العرب الذين كتبوا باللغة الفرنسية ، بدعوا حيواتهم الأدبية في بلادهم العربية ثم سافر الكثير منهم الى باريس الى حيث فرص النشر الأفضل . والى امكانية أحسن للتواجد . خاصة أن عملية نشر الكتب المطبوعة بالفرنسية في الوطن العربي بدأت تتقلص بعد نهاية الحرب العالمية الثانية .

ومع سنوات الستينات والسبعينات لاحت في أفق هذا الأدب ظاهرة جديدة ، وهي ظاهرة أبناء المهاجرين الى أوروبا . لقد وجد هؤلاء الأبناء أنفسهم بين ثلاثة محاور . فهم ينتمون الى مجتمع عربي مسلم جاء منه الأهل . ثم هم يعيشون في مجتمع غربي يختلف . وهناك محور ثالث يمثل مزيجا بين الاثنين السابقين .

وقد ذكرت آنى كريجيـه كرينكى أن شايـا من الجيل الثالث من المهاجرين الجزائريين قد تحدث اليها قائلاً : « نحن نتلقى ثلاثة انماط من التعليم . تعليم من آبائنا . وآخر من مدرسينا . وثالث من الحياة . وهذه الأنماط الثلاثة تتضارب » (١) .

فأبناء هذا الجيل الثانى ، أو الثالث عليهم أن يعيشوا فى ازدواجية ملحوظة . فهم فى المدرسة قد يضطرون الى تغيير اسمائهم . فيتحول محمد الى ميمو أو موريس . وجميل الى جيمى . كم هم فى أمس الحاجة الى الجماعة . وأن يذوبوا فى داخلهم . ويخشون أن يبدوا مختلفين عنها . انهم قد يخلطون من أصلهم الذين جاءوا منه . ويدفعهم هذا ، كما قالت السيدة / كرينكى ، الى تغيير اسمائهم وارقداء الزى الأوروبى

Les musulmans en France. A. K. Kriniki, maison neuve
Paris, 1986.

(١)

كالجينز والحذاء الطويل والبلوز • ويصبح من الصعب عليهم السير في ركاب آبائهم أثناء رحلات العطلات الاسبوعية وهم يرتدون زى البدو • ولا توجه هذه المشكلة الغلمان وحدهم ، بل الفتيات أيضا • فالفتاة لا ترغب أن تكون سندريلا ، ولكنها تحاول أن تبدو طبيعية في مجتمع أكثر تحررا من مجتمعها الذي يرى أنه يجب أن تتزوج الفتاة مبكرا •

ولا شك أن مثل هذه التجربة يمكن أن تولد أعمالا فنية وأدبية متميزة • فهؤلاء الأدباء من الجيل الثانى والثالث لم يعيشوا في بلادهم الا القليل من سنوات الطفولة الأولى • أو لعل بعضهم لم يطأ قط الأرض العربية لكنه يحمل هويتها وجنسيتها • وهو مسلم عليه ان يلتزم بتعاليم الدين في المجتمع الغربى •

ولذا ، فان تجربة هذا الكاتب قد اختلفت كثيرا عن أدب الأديب الذى عاش ردها من شبابه الأول في الوطن العربى • فمن المعروف أن أندريه شديد والبير قصيرى وأمين معلوف والطاهر بن جلون وكاتب ياسين وغيرهم قد تركوا بلادهم وهم في سن النضج • لذا ، فان أغلب أعمالهم تدور في الساحة العربية بغض النظر عن الزمن الذى تجرى فيه أحداث رواياتهم •

وبينما وجد الكثير من أبناء الجيل الثالث ان السينما والمسرح هما أفضل سبل الابداع • فان هناك نماذج أخرى قد اتجهت فقط الى الكتابة • وسوف نختار هنا نموذجين متقاربين متناقضين • الأول أديب نشر روايته الأولى عام ١٩٨٣ • ثم سرعان ما تحول الى السينما • فجاءت شهرته في عالم الفن السابع أكبر من شهرته ككاتب • وهو مهدي شرف • أما النموذج الثانى فهو لكاتبة عاشت أغلب سنوات حياتها في فرنسا وهى ليلي صبار •

مهدي شرف (١٩٥٢) :

يقول مهدي شرف في حديثه الى مجلة « سينما توجراف » : « ولدت في قرية صغيرة جدا على مسافة خمسين كيلو مترا من مدينة « تلمسان » في الجزائر • وذلك في عام ١٩٥٢ • وكنت أتصور اننى سأعيش وأموت في هذه القرية الصغيرة • الى ان وقع ذات يوم حادث غير مجرى حياتى • فقد ماتت أختى وقررت أمى أن ترحل عن القرية الى المدينة • ودفع هذا بأبى الى أن يسافر الى فرنسا بحثا عن فرصه عمل • حدث هذا أيام حرب التحرير • وأصبح من الصعب على أبى ان يعود الى الجزائر • لذا رحلنا الى فرنسا للحاق به • وأصبح اندماجنا صعبا في المجتمع الفرنسى • وعندما اتحدث عن العنصرية فأنا أذكر المدرسة بشكل

خاص ٠٠ كنت صبيا عربيا ٠ ولذا فقد تم ايداعى فى فصل للمتخلفين فى مركز لاصلاح الشباب المنحرف ٠٠ كان كل الصبية من أصحاب المشاكل أو من أبناء مدمنى الخمر وبنات الهوى « (١) ٠

ومهدى شرف لم يتلق تعليما منتظما ٠ ولكنه عمل فى المصانع الباريسية لسنوات عديدة ٠ حيث عمل فى البناء وفى أعمال أخرى وضيفة ٠ ومنذ صغر سنه وهو فريسة لهذا التناقض الحضارى الذى يعيش فيه ٠ وقد استفاد مهدى شرف من هذه التجربة ٠ فكتب روايته الأولى « الشاى فى مخدع آرشى أحمد » والعنوان قد يبدو غريبا بعض الشيء ٠ لكن من سياق الرواية سنعرف مدى المعاناة التى عاشها البطل الذى ليس سوى صورة من شرف نفسه ٠

فنحن هنا أمام قصة صداقة تربط بين شابين مراهقين ٠ الأول عربى مهاجر فى باريس والثانى فرنسى ٠ هذا الشابان انخرطا فى زمرة الشباب ، ولا يملكان الكثير من المفردات للتعبير عن رغباتهما ٠ أو لتحقيق أحلامهما ٠ هناك حيث البطولة سائدة فى الأحياء الشعبية أو الأحياء التى يسكنها المهاجرون العرب ٠ وفى هذه الأحياء تزداد حوادث السرقة والاغتصاب وتبرز العنصرية وعدم المساواة ٠ بينما يحاول الكثيرون من الناس المحافظة على معانى الصداقة والحب ٠

وفى الرواية نرى امرأة فرنسية تدعى جوزيت تترك ابنها لامرأة جزائرية تدعى مالكة ٠ وابن مالكة يعمل فى البناء : « ماذا هناك من فجوات فى أعمال الفرسان ٠ ففى القلب تماما مثلما فى الحياة ٠ يبدو كل شيء صغيرا ٠ ولكنه يتسع مع مرور الزمن ٠ ويزداد اتساعا ويبدو أشبه ببحيرة ٠ تمزق ٠ وندوب لا تعالج ٠٠ لقد عادت هذه الفجوات ٠ ويجب أن نهتم بها والا اختنقت ٠ لذا فالمرء تنتابه الرغبة فى الصراخ والرغبة فى الانفجار » (٢) ٠

كثيرا ما يدور حوار بين جوزيت ومالكة فى الهاتف ٠ أما الابن الصغير مجيد فانه يصحب أباه كثيرا الى مدينة الغجر التى جاء اليها الكثير من المهاجرين ٠ وبعد أن سقط الأب من السقف فان على مجيد أن يصحب أباه بنفسه ٠

والرواية تعبر عن الصعوبات التى يعانىها الشاب العربى ، وهو يتلقى تعليمه فى هذه البلاد ٠ فهو لا يمكنه أن ينطق بكلمة « ارشميدس »

Cinematograph, juillet, Paris, 1985

(١)

Le the au harem d'archi Ahmed, M. Sharef, mercure de France, Paris, 1983.

(٢)

ألا لو قسمها ونطقها بمفهومه الخاص « آرشي . أحمد » ثم يدمج الكلمتين معا .

والمهاجرون في الرواية لا يتحدثون عن الوطن . ولكنهم يتحدثون عن البلاد التي يعيشون فيها الآن . فهم يخرجون في يوم العطلة مثل الآخرين من أجل النزهة . ولكن هذه المرأة المسلمة تمارس شعائرها التي تعلمتها بنفس الطريقة . انها في البيت امرأة عربية . فهي ترى أن التليفزيون قد يكون مفسدة للأبناء عندما يعودون من الخارج . ويقول مهدي شرف في جريدة لوموند - ٢ مايو ١٩٨٥ : « لقد كتبت الرواية كي أنشرها . ولم تبع الرواية لفترة طويلة فبدأت أفكر في تحويلها الى سينما » . ويقول أيضا في نفس الجريدة : « يتخيل البعض أن الناس الذين يسكنون المناطق الشعبية يعيشون في جحيم ، أردت أن أظهر العكس وأنه يوجد في هذا المحيط الهائل حنان كبير » .

والجدير بالذكر أن هذه الرواية قد فازت بجائزة أدبية بارزة تحمل اسم الأديب جان فيجو عام ١٩٨٣ ، ثم حولها مهدي شرف الى فيلم في أول محاولة له في الاخراج السينمائي عام ١٩٨٥ وحصل من خلال هذه التجربة على جائزة أحسن مخرج في جوائز سيزار عام ١٩٨٦ . وقد أجرى تعديلا في عنوان الرواية الى « الشاي في حريم ارشميدس » .

وبعد ذلك انشغل مهدي شرف بالسينما . فأخرج فيلما عن المهاجرين عام ١٩٨٧ يحمل عنوان « الأنسة منى » ثم بدأ يقدم افلاما فرنسية الموضوعات لا توحى أن مخرجها من المهاجرين . الا أن المفاجأة الحقيقية هي عودته في عام ١٩٨٩ الى الابداع الروائي من خلال عمله الثاني « حركي مريم » le Harki de Meriem ، لدى نفس الناشر .

وفي روايته الثانية عاد مهدي شرف للحديث عما يدور في احياء العرب بباريس . ففي هذا الحى تبرز العنصرية واضحة . ويموت شاب عربي على أيدي العنصريين . تدور الأحداث هنا في سنوات الخمسينات . وسليم بطل الرواية في الثانية والعشرين من عمره . وهو ابن لرجل جزائري من المناضلين . كان أبوه متطوعا في الجيش الفرنسي في شمال أفريقيا في زمن الاستعمار . ولد عز الدين أبو سليم وتربى في فرنسا وكان يحمل الجنسية الفرنسية . إذن ، نحن هنا أمام جيلين مختلفين من العرب الذين يعيشون في فرنسا . الأول انتمى تماما الى الفرنسيين وخدم في صفوفهم . والثاني دفعته ظروفه أن يعيش في فرنسا

ووالد سليم يدعى عز الدين • كان عليه ان يعمل سائق أوتوبيس •
ويعيش مع ولديه وزوجته فى المدينة • وهو رجل جاد ويتسم بالخلق
الكريم • ولديه اعتزاز واضح بكرامته • وقد قام عز الدين بالحاق
ابنه فى مدرسة تحفيظ القرآن ، بفرنسا وذلك بدافع الا ينسى الصغير
سليم القرآن الكريم ولا اللغة العربية • ومع ذلك فان زملاءه فى الكتاب
يسمونهم « الفرنسى » •

وعندما كبر سليم قرر ان يدرس القانون بناء على رغبة أبيه الذى
تمنى أن يراه محاميا كى يمسح عن نفسه كل احساسه بالمنفى • ويدفع
هذا بسليم الى التفوق • ويزداد احساس الأب بالفخر • فيقول لزوجته
مريم : « أصبح ابننا أقوى من الفرنسيين » • ويصبح سليم محط أنظار
المدينة • فعمدة المدينة يستقبله • ومدير المدرسة يقف الى جواره كى
تلتقط له الصور •

وسليم هذا ، المتفوق ، عليه أن يدفع حياته ثمنا لعنصرية بعض
الفرنسيين ضد العرب • فى الليل وبينما هو عائدا الى بيته يفاجأ
براكب دراجة بخارية يعترضه ثم يطعنه بالمطواة •

ويقول محمد عبد القوى : « فى نهاية سنوات الخمسينات لم تكن
كلمات الحرب والاستقلال موجودة فى الريف الذى كان يعيش فيه
عز الدين • بعيدا عن العاصمة الجزائر أو عن الأوراس • لذا ، فقد كان
يسخر حين يسمع أن هناك حربا أو استقلالا • كان فى الرابعة والعشرين
من العمر عندما انضم الى الجيش الفرنسى • ليس ضد أحد • ولكن
ضد الجوع • والبطن الخاوية • وأرضه الجافة • والشمس التى جففت
النهر الذى يخرق التربة • كانت الأرض شديدة القسوة وتشبه شعبانا
يولى الفرار • ليس فيها شيء الا ونفق • مات أخواه الأكبر والاصغر •
فهرب من الريف يدفعه الجوع • وهو الذى لم يبق له شيء فى حياته
كى يعطيه لأقرانه ، (١) •

عز الدين هو بالمطبع الأدب الذى سافر الى فرنسا كما تحدث مهدى
شرف عن أبيه • فعندما هاجر الى فرنسا كان يتصور أن الحياة فتحت
أبوابها له • ولكن بعد أن أنجب لها ولدا متفوقا ومتميزا فانه يحصد
موته على أيدي نفس الأشخاص •

الأرض العربية غير موجودة بالمرّة فى هذه الروايات • ولكننا
أمام عرب يعانون فوق الأرض التى هاجروا اليها • ولا شك ان الحنين

(١) Discours de la litterature, notre libraire, 1992, Paris, p.129.

هنا أضعف كثيرا من نوع الحياة التي يحاول أبطال مهدى شرف أن
ينجحوا فيها مهما كان الثمن .

ليلي صبار (١٩٤١) :

الكاتبة الثانية التي تنتمي الى هذا الجيل الثانى من المهاجرين
هى ليلي صبار . انها لا تعرف مثل مهدى شرف من اللغة العربية سوى
كلمات مكسورة الأحرف . ولكنها تحاول أن تخرج من هذه الازدواجية
الثقافية التي تعيش فيها . والتي عبرت عنها بنفسها فى الكثير من
المواقف . فقالت فى كتاب « المسلمون فى فرنسا » : « لا يمكن أن نقول أن
مشاكل الهجرة المغربية أكثر عنفا وألمًا ، وأن هناك بلادا قد تحررت وتجاوزت
الحروب وتعيش فى حرية . فماذا عن هؤلاء القادمين من الجزائر أو
المغرب أو تونس . يشعرون انهم ليسوا على ما يرام . سواء فى فرنسا
أو فى الجزائر . لكن لماذا جاءوا الى هنا ؟ ربما لانهم لا يشعرون
بالراحة فى بلادهم الأصلية . وأن هناك نظاما سياسيا للنساء ، بشكل
خاص ، وعلى الرجال أن يعيشوا الحياة التي يرغبون فيها سياسيا
 واجتماعيا وثقافيا » (١) .

ولدت ليلي صبار فى ١٩ نوفمبر عام ١٩٤١ فى قرية آفلو لأب
جزائري وأم فرنسية . عاشت فى الجزائر الى أن بلغت سن السابعة
عشرة . ثم سافرت الى فرنسا للاستقرار هناك . حيث عملت مدرسة .
وليلي صبار تكتب المقال والرواية والشعر . نشرت مجموعة من المقالات عام
١٩٨٠ تحت عنوان « انهم يقتلون الفتيات » ثم جاءت روايتها الأولى فى
نفس السنة تحت عنوان *la pédophile et la maman* ثم نشرت روايتها
الثانية « شهر زاد » عام ١٩٨٢ . و « تكلم يا ولدى » *Parles fiston*
عام ١٩٨٤ و « شيء يبحث عن شقيقة روحه » عام ١٩٨٧ .

ويقول حسن محمد موسى أن تجربة المنفى عند ليلي صبار تنطوي
على بعد شخصي أصيل ومميز ، وهى قد ولدت وعاشت طفولتها وصباها
فى الجزائر لم تتعلم من العربية الا النزر اليسير . فالفرنسية بالنسبة
لها هى لغة التخاطب والتعبير الأدبي . والمنفى عندها يراوح بين لغتي
أمها وأبيها : « كانت أمى فى منفاها تتكلم لغتها وكان أبى يكلمنى بلغة
أمى . كان هو الآخر منفيا فى لغة أخرى ، لغة المستعمر . لغة أبى كانت
فى اذننى وعلى الدوام . لكنها بقيت قريبة ومبعثرة فى آن . ورغم ذلك
كنت أعشق سماعها ملغمة بالمفاجآت وبالمصاعب فى كل لحظة . حين
يشرع أبى يتحدث لغته ، لا أفهم سوى بعض كلمات معزولة أترجمها

(١) المرجع السابق .

أو ارتق منها خرقة معنى ، لكننى لا أبحث عن المعنى . اننى أسمع فحسب .
واندهش للأصوات والنبرات وأتمنى لو أن أبى لا ينقطع عن الكلام .

« حين حضرت الى فرنسا انقطعت زمنا عن سماع العربية ، لغة أبى ، وقد عزلتنى ذريعة الدراسات العليا عن الجزائر الأم . وخن الأب .
لم لاحظ احساسى بالوحدة فى لغة أمى ، ولأمى وطنها فأنا لست منفية هنا اذ أكتب بلغة أمى خصوصا أكاديمية للجامعة فى لغة دراسية اصطلاحية . وكنت احاول الكتابة الأدبية خارج اللغة الدراسية فتستعصى على فكأننى فقدت الذاكرة » (١) .

ومن المعروف ان ليلى صبار قد تبنت الدفاع عن حقوق المرأة وكتبت فى هذا المضمار مقالات كثيرة نشرت فى العديد من المجلات الفرنسية منها مجلة « العصور الحديثة » كما نشرت لها مقالات تحمل توقيعها فى مجلة « اليوم السابع » .

وقد اعتبر خميس خياطى أن ليلى صبار - فى مجلة اليوم السابع ، أكتوبر ١٩٨٧ - كاتبة فرنسية . . وهو يرى أن لرواياتها طعما خاصا .
طعم البحث عن الهوية والأم والابتعاد عن الأب والعالم الخارجى المأساوى والشقى . أما ثقافة الشمال الغربية فهى ممثلة فى كل صفحة مما تكتبه ليلى صبار عبر بيئة ثقيلة ، ثقل آلامى ، لكنها تحمل وراءه طعم الحرية . شهرزاد التى تجوب أنحاء فرنسا بحثا عما يكون شخصيتها العربية . فقد سافر الابن كثيرا لكنه لم يجد ما يقوله لأمه التى لا تترك له أية فرصة كي يتحدث إليها .

وفى روايات الكاتبة ، كما يقول الخياطى ، « تبحث ليلى صبار عن مخرج يمزج بين ثقافتين . وذلك حال جيل عربى يأكمله ولد فى فرنسا ولكنه لا يعتبر نفسه فرنسيا . ولد بعيدا عن موطنه الأصلى ولكنه لا يعرف عن هذا الوطن الا الخرافات والحواديت . جالس بين كرسيين ، ولا يعنى بهذا أو ذاك » (٢) .

وفى روايات الكاتبة هناك دائما النساء اللاتى يعشن بين عالمين متناقضين . وهناك مسافات فى حياة هؤلاء النساء سواء مسافات زمنية أو مكانية . ومثلما حدث فى رواية « الشاى فى حريم آرشى أحمد » ، فإن رواية « شىء يبحث عن شقيقة روحه » نجد صداقة بين فتى من أصل عربى وآخر فرنسى . وإذا كانت الصداقة قد نمت بين الشخصيتين .

(١) كتابة فى معنى اللغة - مجلة اوراق أبو ظبى - العدد ٣٠ .

(٢) جعفر رولان فى الزنزانة ، خميس خياطى ، اليوم السابع ، باريس ، . أكتوبر

١٩٨٧ .

عنده مهدي شرف في أزقة باريس العتيبة ، فان صداقة جعفر بالفرنسي رولان قد نمت في زنازة .

وفي السجن تاق جعفر الى مخاطبة العرب من امثاله . . لذا فلم يكن يميل الى محادثة المساجين الفرنسيين الذين لا يخلو سلوكهم من العنصرية ، ومن خلال قصاصات الصحف تمكن من معرفة عنوان فتاة عربية راح يرسلها ويخبرها أنه في سجنه يبحث عن شقيقة لروحه . . فتصله رسالة من فتاة عربية تسكن فرنسا تخبره انها أيضا تفتش عن هذا الشقيق .

ويبدأ جعفر في الاحتكاك بالعالم الخارجي الداخلي . فهو يريد أن يعبر عن شعوره للفتاة بأن يرسل لها قصيدة مسجلة على شريط ، الا أن صوته يزعج زميل الزنازة الفرنسي . ومن هنا تقوم الصداقة بين جعفر ورولان .

ويتعلم رولان هذه التجربة الجميلة من السجن العربي . فيرسل خطابات الى فتاة فرنسية تدعى « آني » مشغوفة بمسألة الغيبات ، رقدور الرسائل دافئة تعبر عن افكار الانسان وتعكس ما في روحه .

وعندما يخرج جعفر من السجن يفتش عن الفتاة العربية التي كانت ترسله فلا يجدها . . لعلها كانت خيالا لا وجود له . وفي وسط زحمة بحثه عنها يلتقي بفتاة تدعى « ليز » ، انها المرأة التي كانت سببا في دخول رولان ، السجن . « لقد كان للعامل الثقافي تأثيره في علاقة ليز بجعفر . ترى ليز في جعفر صورة الفارس العربي ويرى جعفر فيها الطبيعة الفرنسية والأرض الفرنسية التي يود امتلاكها . وفي فصول شيقة القراءة تصور ليلي صبار التحام جعفر بالريف الفرنسي بوالدة ليز بالطبيعة الفرنسية وكأنه وجد في كل هذه العناصر اوجها عديدة من شخصيته الدفينة . فتستغل ليز هذا التماثل وتؤثر على جعفر المقيم بسرقة أحد يائعي المجوهرات ، وتفشل السرقة ويرمى بجعفر مرة أخرى في السجن ، فيلتقي ثانية برولان ، ويتغلب عليه الصمت » (١) .

اذن ، فليلى صبار قد فعلت ما فعله مهدي شرف . فليست أرض هذا النوع من الروايات فقط هي فرنسا . بل ان الأبطال الآخرين ، غير

(١) المصدر السابق .

العرب ، هم أيضا من الفرنسيين . وقليلًا ما نجد أن هناك صداقة بين
عربي وآخر . بل على العكس ، في هذه الروايات ، ان يختار اصدقاءه
من الفرنسيين سواء من الذين يدفعونه في الحياة . أو من الذين يقتلونه ،
ويدفعون به الى الهاوية . وقد اختلفت هذه السمات عما كتب بعض
الفرنسيين أنفسهم حين صوروا حياة العرب في الأحياء التي يعيشون
فيها ومنهم مثلا رواية « هي نقطة الذهب » Gout d'or التي كتبها ميشيل
تورنبييه عام ١٩٨٥ . فالعرب في هذه الرواية يعيشون في عالم عربي لا
يخرجون منه الا عند الضرورة القصوى .

الفصل العاشر :

السينما العربية الناطقة باللغة الفرنسية

شكلت اللغة التي يقدم بها الفنان العربي أعماله في المهجر عقبة في التواصل مع المجتمع الذي ينتمي إليه ، أو ذلك الوافد تجاهه . . .
فالفنان العربي الذي هاجر الى أوروبا في ربيع القرن الأخير يمكنه أن يتقن لغة واحدة للتعبير . أما لغة البلد الذي هاجر اليه . أو يظل يحتفظ بلغته العربية في أسبقيته عند التعبير . .

وقد ظلت مشكلة اللغة تطارد الفنان العربي ، خاصة القادم من شمال أفريقيا الى فرنسا فظل الفنان يقاوم رغبته في أن يقدم إبداعه الفني بلغة أجنبية لأن فنه موجه في المقام الأول من نبع تجربته العربية سواء أكان جمهور هذا الفنان هو العربي أم أي شخص آخر في العالم . لكن هذه المقاومة بدأت تقل بصورة ملحوظة خاصة مع نظام المنح الذي تقدمه وزارة الثقافة الفرنسية للمخرجين السينمائيين الذين يعملون في أفلام تتفق مع الثقافة الفرنسية .

وهنا بدأت المقاومة تجاه استخدام اللغة الفرنسية في التعبير الفني تقل : فظهرت في السنوات الأخيرة مجموعة أفلام ناطقة بالفرنسية تتناول أحوال المهاجرين العرب الى فرنسا وأوروبا من ناحية أو التجرد من هذه القيمة التي أصبحت مستهلكة والتوغل في الحديث عن مشكلات الانسان الأوروبي المعاصرة .

تطرح الباحثة آنى كريجييه كرينكى تساؤلا في كتابها « المسلمون في فرنسا » المنشور في عام ١٩٨٥ . « هل يمكن لثقافة مهاجرة حقيقية أن تتولد فعلا ؟ لقد بدأ المهاجرون في صناعة سينما خاصة بهم تسمى بسينما المهاجرين ، وبدأ يظهر مسرح جديد به الكثير من أصالة البلاد التي جاءوا منها لكنه يختلف . وحدث نفس الأمر للفن التشكيلي . . »

أما المخرجة والروائية آسيا جبار فتقول حسبما نشرت مجلة جون أفريك : « الأهم هو تعريب العقل » وتعريب النفس ، وبعد ذلك يأتي تعريب الأعمال الأوروبية .»

وترى آسيا جبار أن السينما هي البديل الرائع للكتابة : لأن الشخصية تظهر بمختلف أبعادها ، تماما كما هو الفرق بين الرسم والنحت .»

ويمكن حصر الزوايا التي ارتبطت بها السينما العربية الناطقة باللغة الفرنسية في ثلاثة محاور أساسية هي :

★ المحور الأول: سينما الأقدام السوداء . وهي تعنى مجموعة الأفلام التي أخرجتها مجموعة من المخرجين الفرنسيين الذين عاشوا في الجزائر والمغرب العربي أبان الاستعمار الفرنسي ، وقد عاش هؤلاء الفرنسيون في الجزائر على أنها موطنهم الأول الذي تربوا فيه . ولم يعرفوا وطنًا آخر بديلا له . وكانت صدمتهم شديدة حين اضطروا للرحيل عن المغرب العربي إلى فرنسا فتمزقوا بين انتماءين : انتماء إلى الجزائر التي تربوا فيها ، وانتماء آخر إلى فرنسا التي يحملون جنسيتها . وأغلب أعمال مخرجي الأقدام السوداء تدور ضمن هذا المحتوى . وكما قال أحدهم : « لم تكن بلادنا هي وطننا . كنا نتكلم لغة جاءت من مكان بعيد ، من ناحية أخرى هناك الكثير منا لم يذهب إلى فرنسا . هذا الوطن ، وهذه اللغة بمثابة أسطورة ، فكل منا ينطقها على طريقته . حتى اقتربنا من الأصل اللاتيني الذي وضعت في البداية منه الجملة التي قد تكون أكثر أهمية » .

ويقول نفس الكاتب : « لم يكن وطننا أبدا بلدا لنا . ولم تكن جغرافية فرنسا هي تاريخنا أو جغرافيتنا . وكان أقراننا يتمتعون بعيون زرقاء وشعر أشقر ، مما جعلنا أقل عبثية بالنسبة للأطفال هناك . كانت مدننا تنتمي إلينا . وكان وجودنا هناك مؤقتا ، لذا فقد كتب أصحاب الأقدام السوداء تاريخهم وجغرافيتهم من أجل تصوير الواقع . وقد ضاع كل هذا الآن ، لم تكن إلّا ١٣٢ عاما حية هنا ، إلا أنها تمثل تاريخ البشرية » .

وقد أطلق تعبير الأقدام السوداء Pieds Noires على هؤلاء الذين عاشوا في الجزائر وقد ظهر هذا التعبير كما يقول فريدريك موسور عام ١٩٥٦ في مجلة الاكسبريس في الزمن الذي كانت فيه الجزائر جزءا من فرنسا . وذلك على غرار زنوج أمريكا . أو ما يسمى بفرنسيي الجزائر واعتقد أن بعضهم قد تجاوز هذا الاحساس وقد جاء التعبير من الميثولوجيا اليونانية عندما وُلد هيراقليس بقدميه أرض آسيا فاستعمرها لأن سكانها رأوا قدميه كبيرتين .

وأشهر مخرجي الأقدام السوداء هم الكسندر أركادى وروجيه حنان . وروبير حسين ودينز عمار . ويعتبر أركادى أكثر هؤلاء تأثيرا بحياته في الجزائر، أخرج للسينما أربعة أفلام حول هذه الظاهرة هي، «ضربة حظ» ١٩٧٩ ، «العفو الكبير» ١٩٨١ ، «المهرجان العظيم» ١٩٨٣ . و «آخر ليلة في طنجة» . واركادى - كما جاء في مجلة «ستوريا» - أغسطس ١٩٨٧ - مثل العديد من أبناء هذه الثقافة يحمل تمزقه في داخله منذ ربيع قرن . فهو لا ينسى قدا بلد طفولته . «فنحن لا نتخلص بسهولة من الجذور . لأنها أشد قوة من أن نجتثها» . ومع هذا فهو لا يحمل في داخله أى شعور بالمرارة ، وهو قادر من خلال السينما أن يصور كل أشباح الماضي، ومن خلال الكاميرا يمكنه أن يكون شاهدا على هذه اللحظات التاريخية . ويتحدث عن فيلمه الأول أنه أحس بالحاجة لإخراجه ، والرغبة في ترجمة مشاعره الى صور ، وقد أصبحت الصور رمزا للجنون والفن والمعرفة . ولكل ما عرقه أصحاب الأقدام السوداء فلكل أسرة من الأقدام السوداء عشرات الحكايات التي ترغب في أن تقوم بسردها .

ويقول أركادى انه يعود دائما الى الجزائر من أجل أسباب مهنية . ويرى أنه « يوجد اختلاف كبير بين جزائر طفولته والجزائر المعاصرة . ففي كل مرة يجد نفس الديكور واللون الأبيض الذي تطلّى به البيوت . والبحر الذي لا يزال يحتفظ بزرقتة » ، بل انه يرى نفس مقابر الفرنسيين : « لم تتغير طوال عشرين عاما . لم تود أمى التي ولدت في الجزائر أن تسمع شيئا حول العودة للماضى وقد ألححت عليها منذ عامين . وقررت الحضور الى الجزائر . ولم تندم على هذا . فقد كانت زيارتها رائعة . حيث التقت ببعض صديقاتها وعادت الى سنوات طفولتها وشبابها » .

لقد ظل كل شيء في ذاكرتها عن الجزائر محفورا دون أى ندم وإذا داعبت حنين الماضى فسوف تتعلم أن تعود لتعيش في الجزائر .

★ المحور الثانى : وهو محور العرب الذين هاجروا الى فرنسا فى اوائل الستينات . عقب تحرير الجزائر - مثلما تقول آنى كريجيه كرينكى - والذين ارتبطوا بثقافتين : ثقافة البلاد التي جاءوا منها وثقافة البلاد التي هاجروا اليها . ولغة التعبير الأولى عند هؤلاء هي الفرنسية . أما اللغة العربية فتجىء فى الدرجة الثانية خاصة عند التعبير فى الفنون كالرواية والشعر والسينما . وفى حالات الأدب كثيرا ما يصعب على هؤلاء الكتابة باللغة العربية بنفس الطلاقة التي تحدث باللغة الفرنسية مثل حالة المخرجة والكاتبة المغربية آسيا جبار .

وقد بدأت هذه الظاهرة فى جذب الانظار عندما قام شاب جزائرى يدعى عبد الكريم بهلول باخراج فيلمه الأول « شأى بالنعناع » عام ١٩٨٢ . وفى نفس العام قام شاب من العمال العرب المهاجرين الى فرنسا بنشر روايته الأولى تحت عنوان : « الشأى فى مخدع آرشى أحمد » فى دار نشر ميركور ، ولكن الرواية ذابت مثل العشرات من الروايات فى أروقة المكتبات الفرنسية الى أن عرضها مؤلفها مهدى شرف على المنتجة ميشيل راي زوجة المخرج كوستا جافراس التى تحمست لانتاجها - من الجدير بالذكر أن عشرات الروايات العربية المكتوبة بالفرنسية لم تجد طريقها بعد الى الشاشة العربية سواء الناطقة بالفرنسية أم العربية - وهنا بدأت مرحلة انتقال السينما العربية الى اللغة الفرنسية والتمويل فى أغلب هذه الأحوال يتم من قبل الحكومة الفرنسية . فمثل هذا العمل لم يكن له أن ينتج فى العالم العربى بدليل أن أحدا لم يتحمس لانتاج الروايات الأخرى المكتوبة بالفرنسية لأدباء آخرين .

ورغم أن أسماء عديدة انضمت أخيرا الى قائمة المخرجين العرب المهاجرين الى فرنسا والذين يعملون بتمويل فرنسى ، ولا يعبرون قط باللغة العربية ، الا أن مهدى شرف هو أهم هذه الأسماء فهو منذ أن أخرج فيلمه « الشأى فى مخدع أرشميدس » ١٩٨٥ يقدم فيلما جديدا كل عام . وهو يحظى فى السينما العربية الناطقة بالفرنسية بنفس المكانة التى يحظى بها الطاهر بن جلون فى الأدب العربى المكتوب بالفرنسية أما أهم الأسماء الأخرى فهناك رشيد بوشارب صاحب فيلمى « باتون روج » ١٩٨٧ و « شاب » ١٩٩٢ .

ولأن رواية مهدى شرف عربية مغتربة داخل اللغة الفرنسية ، فلا يمكن الا أن نعتبرها رواية عربية . وفى طاقم العاملين لفيلمه الأول المأخوذ عن هذه الرواية التى تغير اسمها قليلا، وهناك العشرات من الأسماء الفرنسية . . . الا أن مهدى استعان أيضا بالكثير من العرب المقيمين فى فرنسا . وهكذا حمل الفيلم الهوية العربية رغم أنه تمويل فرنسى .

ومهدى شرف مولود فى مدينة ماغينيا الجزائرية فى ٢٤ أكتوبر ١٩٥٢ . رحل الى فرنسا عام ١٩٧٠ وعمل فى العديد من المصانع الباريسية . وحتى عام ١٩٨٢ حيث نشر روايته التى استقاها من تجربته الخاصة . حول العرب المهاجرين الى فرنسا . وهذا الموضوع هو شاغل مهدى شرف فى العديد من الروايات والأفلام التى يكتبها مثلما حدث فى السيناريو الذى كتبه للمخرج السويسرى آلان تانر تحت اسم « الأرض الحرام » ، عام ١٩٨٥ ، حول بعض الشباب الذين يهربون المخدرات عند الحدود السويسرية ، ومن بينهم فتاة عربية لا ترضى أبدا لحبيبها الأوروبى

أن يفض بكارتها الا بعد الزواج . ثم أخرج مهدى أفلاما أخرى هي « الأنسة منى » عام ١٩٨٦ و « كاموميل » ١٩٨٨ .

تقول ميشيل راى : « لن ننسى ان كوستا جافراس مهاجر . وقد قرر أن يجمع كل المعلومات التى تتعلق بالجيل الثانى من المهاجرين ، عن الأطفال الذين وصلوا الى فرنسا فى نهاية الستينات وما بعدها . وكانت المصادفة أن وقعت عيناي على مقال حول كتاب مهدى شرف ، وقررت أن أنتج هذه الرواية . رغم أن الأمر بدا أشبه بنزوة » .

والجيل الثانى الذى تقصده ميشيل راى هو الذى وصل عقب نجاح الجيل الأول فى البقاء ، وقد اقترب بناء هذا الجيل الآن من العشرين ويردد أحدهم كما جاء فى كتاب « المسلمون فى فرنسا » : « نحن نتلقى ثلاثة أنماط من التعليم : تعليم آباءنا وآخر من مدرسينا وثالث من الحياة وتتضارب هذه الأنماط الثلاثة » . ومن أبرز أبناء هذا الجيل الروائية ليلى صبار .

وتتناول رواية مهدى نفس الموضوع الذى يلح على الانسان العربى فى المهجر ، فالخرج عامل بسيط استطاع أن يكافح فى حياته . ويعيش بين تضارب الثقافتين اللتين انتمى اليهما . عمل فى البذاء وعن هذا العالم صاغ أحداث روايته فالعمل ينتقل حيث توجد مبان جديدة . وفى الرواية يتحدث الراوية أن النطق باسم أرشميدس أمر بالغ الصعوبة فاختار أن ينطقه هكذا أرشى أحمد . . . لكن ما أن اندمج داخل اللغة الفرنسية حتى ينجح فى النطق الصحيح فكثيرا ما أزعجته نظرية أرشميدس . لقد كتبت الرواية كى أنشرها . ولم تبع الرواية لفترة طويلة فبدأت أفكر فى تحويلها الى سينما » (لوموند ٢ مايو ١٩٨٥) .

والفيلم حول قصة صداقة تربط بين شابين مراهقين : أحدهما عربى والثانى فرنسى . عن حياتهما وانخراطهما فى زمرة شباب حيث لا يملكان الكثير من المفردات للتعبير عن رغباتهما . وأيضا بدافع الحشمة . هناك حيث البطولة سائدة فى الأحياء الشعبية . والتهريب والسرقات والعنصرية والتعصب والظلم يحافظ بعضهم على معانى الصداقة والحب والدعابة والضحك . ويقول المخرج : « يخيّل للأشخاص الذين لا يسكنون المناطق الشعبية أن العيش فيها جسيم ، أردت أن أظهر العكس وأنه يوجد فى هذا المحيط المتسع حنان هائل » .

وعن نفس العالم أيضا تحدث شرف فى فيلمه الثانى « الأنسة منى » حيث تدور الأحداث من خلال شخصيتين احدهما عربية والأخرى فرنسية العربية هي سمير ، شاب ينتمى للعائلات المهاجرة التى تسكن الأحياء

الشعبية بباريس ، انه يعيش هناك بلا بطاقة هوية . لهذا فهو عاطل دائما .
صديق للتيه والبرد والداعرات . فيقرر ان يصادق رجلا مخنثا يدعى
الآنسة منى . وهذا الرجل يريد اخراج سمير من ظروفه . وأن يوفر
له المسكن فيحاول ، سرا ، أن يساعده رغم أنه لا يختلف كثيرا عنه . فهو
عاطل مثله ويسعى الى جمع مبلغ من المال لاجراء عملية يتوصل بعدها
الى امرأة ، ووسط البحث عن النقود تحدث جريمة قتل وتتحول الأشياء
الى سوداوية .

أما ثالث أفلام مهدى شريف «كاموميل» فهو يختلف قليلا ، حيث رأى
المخرج أن عليه أن يخرج من جعبة الهجرة والمهاجرين ولكن ليس عليه
أن يبتعد كثيرا فهناك قصة حب رقيقة بين فتاة وشاب من الأحياء الشعبية.
لقد أنقذ الشاب الفتاة من موت محقق ويحاول أن يساعدهما بدوره في
الحياة بعيدا عن المعاناة .

★ المحور الثالث : وهو يدور حول السينمائيين الذين سعوا للاستفادة
من التمويل الفرنسى للأفلام غير الفرنسية التى يتم انتاجها من قبل فنانين
متأثرين بالثقافة الفرنسية ويطلق عليهم عادة اسم الفرانكوفونيين . أو
الناطقين باللغة الفرنسية . وقد سعى أكثر رجال السينما العرب والأفارقة
لايجاد تمويل فرنسى لأفلامهم قدر الامكان . البعض نجح والبعض لا يزال
يحاول . بعض هذه الأفلام ناطق باللغة العربية . وحين يعرض فى
أوروبا تتم دبلجته الى اللغة الفرنسية . أما البعض الآخر فهو يتكلم
مباشرة باللغة الفرنسية . بل ان بعض المخرجين يستعين فى أفلامه بطاقم
فرنسى مثلما فعل محمد الأخضر جامينا فى « الصورة الأخيرة » . وقد
نجح أربعة مخرجين مصريين فى تدبير التمويل الفرنسى منهم يوسف
شساهين فى انتاج « الوداع يا بونا بورت » و « اليوم السادس »
و « المهاجر » ثم يسرى نصر الله فى «سراقات صيفية» و «مرسيدس» أما تجربة
« اخناتون » لشادى عبد السلام فلم تر النور لرحيل صاحبها . كما تم
تمويل فيلم « شحاذون ونبلاء » لأسماء البسكوى عن رواية للكاتب
البيير قصيرى من قبل القناة السابعة الفرنسية . كما تم تحويل فيلمها
الثانى « كونسرتو فى درب سعادة » من نفس القناة .

ومن فلسطين يبرز ميشيل خليفى ، كما أن هناك من الجزائر محمود
زمرى والأخضر جامينا ومرزاق علواش ، ورضا الباهى من تونس . ولأنه
من الصعب ان نتحدث عن كل هذه النماذج فسوف نختار بعضا منها .
والغريب أن بعض المخرجين يداعب أفكار الغرب ربما أكثر من الأفلام
الفرنسية . مثل قصص الحب المصنوعة على طريقة «روميو وجوليت» بين
العرب واليهود فى « حب فى باريس » « لمرزاق علواش » و « الصورة

الأخيرة « لحامينا » و « رياح السد » لنورى بوزيد . وهنا يلعب المخرج العربى المتحدث بالفرنسية لعبة مغازلة الثقافة التى تقوم بتمويله بالاضافة الى النقد الذاتى للثقافة والعادات العربية المهاجرة . أو التى تسعى للهجرة، حتى وان ظلت فى مكانها . وهكذا فان المخرج يضمن لفيلمه مغازلة الثقافة التى مولت الفيلم . ونعيد القول بأن تجربة مهدى شريف وحصوله على التوزيع العالمى المضمون من خلال شركات التوزيع الفرنسية . دفع وراءه الكثير من المخرجين المقيمين فى العالم العربى أن يسيروا فى نفس الدرب بعد أن حصل على جائزة « سيزار » عام ١٩٨٥ عن فيلمه الأول .

تقول موسوعة السينمائيين العرب التى أصدرها جان ميشيل كلونى باللغة الفرنسية ان محمد الأخضر حامينا هو صاحب الفضل فى انشاء سينما جزائرية . وقد خصصت له أكبر عدد من الصفحات ، أكثر من أى فنان سينمائى عربى آخر . وحسب البيان الفيلمى للمخرج فان كل أفلامه قد أنتجت من خلال مؤسسة السينما الجزائرية . فقد بدأ حياته السينمائية عام ١٩٦٤ بفيلم « زمن العودة » وهو فيلم قصير ، ثم فاز فيلمه الروائى الأول « رياح الأوراس » ١٩٦٧ بجائزة العمل الأول فى مهرجان كان ، كما نال جائزة أحسن سيناريو من اتحاد الكتاب السوفييت . ثم تتابعت أفلامه ومنها «وقائع السنوات الجمر» ١٩٧٥ ، ونال جائزة السعفة الذهبية فى مهرجان كان فى نفس العام . ثم كانت آخر أفلامه العربية « ربح الرمل » ١٩٨٢ .

لكن ، ما الذى دفع حامينا أن يقدم فيلما يختلف على الأقل بالنسبة للغة ؟ لقد أسند بطولة فيلمه « الصورة الأخيرة » ١٩٨٦ الى مجموعة من الممثلين الفرنسيين منهم فيرونيك جانو وميشيل بوجناح – وهو يهودى تونسى لمع فى المسرح والسينما الفرنسية . كما استعان بولديه الصغيرين مالك ومروان حادينا .

تدور أحداث الفيلم فى قرية أبو سعادة ، التى تقع على مسافة ٣٠٠ كم من مدينة الجزائر ، ويسمونها بوابة الصحراء ، كما صور أجزاء من الفيلم فى قرية ميسر التى ولد بها المخرج فى عام ١٩٣٤ .

اذن ، فالفيلم عربى رغم أن اللغة غير عربية ، ويقول المخرج ان القصة التى اختارها لفيلمه قد حدثت فى الواقع . فى نفس الأماكن التى قام بالتصوير فيها ، ويقول انه شهد أحداث هذه القصة فى عام ١٩٣٩ : « أحكى قصة كلير بوبيه من خلال منظور طفل صغير يدعى مولود يقوم

بدوره ابنى الأصغر مروان « . المدرسة هي فرونيك جانو . التى عاشت فى الجزائر ايان سنوات الاحتلال وهى تنتمى الى الاقدام السوداء » .

فى هذه القرية ، تعيش المدرسة حياة هادئة . لكن هناك بعض « الخصوم » الذين يريدون اizardها . اأدهم من الفرنسيين يحب العرب ولكن لا يميل الى اليهود منهم . ولذا يكره كلير . ويراهما عاهرة . هناك نماذج أخرى يقدمها الفيلم مثل بعض سكان القرية وبعض المدرسات وناظر المدرسة . أما الصغير مروان فانه يحب المدرسة الفرنسية أما سيمون - ميشيل بوجناح - فهو يلعب دور اليهودى الجزائرى ، الذى يلقى معاملة سيئة من الآخرين ، فيطاردونه وينغصون عليه وقته ، خاصة فيما يخص علاقته بكلير .

يقول الأخضر حامينا فى مجلة بروميير - يناير ١٩٨٦ - ان فرنسا قامت بتمويل فيلمه بمبلغ ١٣ مليون فرنك . ومع ذلك فقد بقى الفيلم جزائريا .

بدا عطاء مرزاق علواش فى السينما الروائية عام ١٩٧٦ بفيلم « عصر قتلته الرجولة » . ولم يخرج حتى الآن سوى خمسة أفلام منها « مغامرات بطل » ١٩٧٨ ، « الرجل والنوافذ » ١٩٨١ . ثم « حب فى باريس » ١٩٨٨ و « باب واد الحوم » ١٩٩٤ . والأفلام الثلاثة الأولى ناطقة باللغة العربية من انتاج مؤسسة السينما الجزائرية . أما الفيلم الرابع فهو انتاج فرنسى وناطق باللغة الفرنسية ويقول حول هذه التجربة فى مجلة اليوم السابع - ٨ فبراير ١٩٨٨ : « كل ما حدث لى مع هذا الفيلم ، يختلف اختلافا جذريا عما حدث لى مع أفلامى الأخرى لتأخذ عملية الترويج بالنسبة للأفلام الأخرى . فليست تلك مسألتى بل هى مسألة الدولة : أنها لا تمتلك ، الوقت الكافى لمحاسبة فيلم معين ، المسألة بالنسبة لى اليوم شائكة على مستويات حرية محاسبتى . هناك من يقول : لنتركه يضور فيلما فى فرنسا ، فيفشل ، الخطورة موجودة على مستوى الانتاج . ولكنها غير موجودة على مستوى الابداع . أقول انه ابتداء من فيلم « حب فى باريس » فانى سأخرج أفلامى سواء بمساعدة رسمية أو بدونها » .

ومريم بطلة هذا الفيلم فتاة يهودية جزائرية . ترحل الى باريس لأول مرة وقد اعتزمت ان تتبوء مركزا محترما فى عالم الأزياء ، وفى أول الأمر يساعدها بعض الأصدقاء من باريس فتقرر العمل فى مهنة أخرى بسيطة . حيث تعمل كموظفة خزانة محل سويسر ماركت . وهناك تلتقى بشاب فرنسى ذى أصل جزائرى خارج من السجن لتوه . يتعرفان على بعضهما ثم تقوم بينهما علاقة قوية . وهذا الشاب - على - يرفض العودة

الى بلاده . ويريد أن يصبح من رواد الفضاء ، انه حلم يراوده منذ سنوات.
الطفولة . حاول اقناع الطرف السوفيتى بتدريبه على تحقيق هذا
الحلم فلم ينجح . وعليه أن يقنع الطرف الأمريكى ، لذا ، فقد قرر السفر
الى قاعدة هيوستن لمقابلة المسؤولين هناك . ويعتدل هذا الحلم فى داخل
على لدرجة أنه يوافق على معاودة الاتصال بزملاء الشر من أجل تدبير
الأموال . وفى المطار الذى سيرحل منه مع فتاته تقف مريم تنتظر لكنه
لن يأتى . . . فهى لا تعلم أنه قد تم القبض عليه أثناء إحدى العمليات
الاجرامية .

ويقول خميس خياطى فى تعليق حول هذا الفيلم : « مريم ، هذه
الفتاة اليهودية الجزائرية تمتلك شيئاً ما يجعلها جزائرية ويهودية . ولو
الغينا أحد هذين العنصرين لأصبحت مريم فرنسية ، تحلم بأن تكون
عارضة أزياء وينتهى الأمر . كان على مرزاق علواش الذى ألفنا منه
العمل المتقن والقوى فى الشخصيات ، كان عليه أن يعطينا من خلال
هاتين الشخصيتين نظرتة لعالم هؤلاء العاملين فى الأرض ، بيد أنه
استسلم الى السهولة . . . وبعض الاستفزاز والكثير من « الغازات »
الخاصة بالحقى اللاتينى ، (اليوم السابع ٨ فبراير ١٩٨٨) .

وفى السنوات الأخيرة تغيرت معالم الكثير من السينما العربية
الناطقه باللغة الفرنسية . فقد أصبح الكثير من المخرجين العرب المهاجرين
الى فرنسا أداة اخراجية بين يدى التمويل الفرنسى . . . واستطاع هذا
المال أن يوجه المخرج حسبما يشاء . فاذا كان مهدى شرف على سبيل
المثال قد بدأ حياته بتقديم أفلام وروايات عن العرب المهاجرين . فان أفلامه
الأخيرة مثل كاموميل ، و « فى بلاد جوليت » عن الفرنسيين أنفسهم .
حدث هذا أيضا مع مارون بغدادي الذى كان عليه أن يقدم فيلما عن
«ماراصاد» وفيلما آخر يتبنى فيه وجهة نظر صحفى فرنسى اتخذته بعض
الأطراف اللبنانية رهينة أثناء الحرب الأهلية يحمل عنوان «خارج الحياة»
. . . وبدت الأعمال الأخيرة لهؤلاء المخرجين وكأنهم قد تفرنسوا . أو كأنهم
قد ذابوا داخل المجتمع الفرنسى . . . وذلك أشبه بالأوربيين الذين تمت
أمركتهم فى السينما الأمريكية . وقد حدث هذا أيضا مع أسماء عديدة
منها عبد الكريم بهلول وآخرون .

حاولنا فى هذا الفصل تناول منظور السينما العربية الناطقة
بالفرنسية من خلال علاقة التمويل باللغة وواضح من اهتمام الممول ،
وأيضا الساعى الى تمويل فيلمه (المخرج) أن اللغة هى العامل الأساسى
فى أحداث التمويل . واللغة عند الممول الفرنسى كافية تماما لصبغ الفيلم
بالفرنسية مهما كان مضمون هذا الفيلم . وذلك كنوع من الفرنسية التى

صبغها الاستعمار فى بعض الدول التى أقام فيها فترة طويلة وخاصة
الجزائر . . ومنذ أعوام قليلة أقامت فرنسا مؤتمرا للدول الناطقة
بالفرنسية . أكدت فيه أن لهذه البلاد هوية خاصة . لأنها تتكلم اللغة . .
ومن يتكلم اللغة فهو ذو ثقافة خاصة . . رغم تأكيدنا أن هذه السينما
عربية فى المقام الأول لحما ودما وتفكيراً ؛ لأن مبدعيها من العرب
وموضوعاتهم عن أبناء عشيرتهم . فان لغة المال تحكم وتسيطر . . وعلى
كل فلهذا النوع الجديد من السينما أكثر من زاوية يمكن من خلالها تحليل
ظواهر لم تكن موجودة من قبل .

المراجع

- Achour C. : Dictionnaire des oeuvres algerienne Française, Paris, L'Harmattan. 1990.
- Arnaud, Jaqueline : (Colloque) : litteratures maghrebins L'Harmattan, Paris, 1990.
- Bonn. CH., Le Roman algerien de langue française, l'Harmattan, Paris, 1985.
- Dejeux Jean : Dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française, Karthala, Paris, 1984.
- ——— : La littereture maghrébin d'expression français, que-saisje Paris, 1992.
- Dugas, G. La litterature judes-maghrebins d'expression français, Paris, L'Harmattan, Paris, 1990.
- Fakkar. R. : L'influence française sur le formation de la pesse litteraire en egypte au XIX siècle, Geuthner, Paris, 1973.
- Fontain, J. : La litterature Tunisienne Contemporaine CNRS, Paris, 1990.
- Joubert d-c : Les litteratures francophones depuis 1945, Paris, 1985.
- Khatibi A. : Le roman maghrebin, SAER Rabal, 1979.
- Kriniki A. : Les musulmen en france, maison-neuve, Paris, 1985.
- Luthi, Jean Jaques : Le français en egypte, Beyrouth, 1982.
- ——— : introduction a la litterature d'expression français en egypte, edition de l'école, Paris, 1974.
- Memi, Albert, Ecrivains francophons du Maghreb 'Anthologie, Seghers, Paris, 1985.
- Selim Abou : Le bilinguisme arabe — français au Liben. Du. F. 1962.
- Yequotte, Ragaa : Albert Cossery, Alazhar, 1990.

مراجع عربية

تتمثل المراجع العربية فى كافة المجلات ، والصحف ، المشار اليها داخل متن الكتاب ، خاصة مجلة « اليوم السابع » ، ومجلة « أوراق » ، والعدد ٢٩٢ من مجلة رسالة اليونسكو حول « المهاجرون بين ثقافتين » ، ومطبوعات أخرى عديدة .

المؤلف

في الرواية :

- ١ - لماذا
(دار المطبوعات الجديدة ١٩٨١)
- ٢ - أوديسانا
(دار المطبوعات الجديدة ١٩٨٢)
- ٣ - الثسيرة
(المجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٣)
- ٤ - البديـل
(هيئة الكتاب ١٩٨٧)
- ٥ - وقائع سنوات الصبا
(مركز الانماء الحضارى - حلب ١٩٩٤)
- ٦ - زمن عبد الحليم حافظ
(المركز الفضى ١٩٩٦)

في الترجمة :

- ١ - آلهة الذباب ط٢ (عن ويليام جولدنج)
(دار الهلال ١٩٨٤ - ١٩٩١)
- ٢ - شحانون ومعترون (عن ألبير قصيرى)
(هيئة الكتاب ١٩٨٧)
- ٣ - العاشق (عن مرجريت دوراس)
(هيئة الكتاب ١٩٩٠)
- ٤ - منزل الموت الأكيد (عن ألبير قصيرى)
(سعاد الصباح ١٩٩٢)

٥ - العنف والسخرية (عن ألبير قصيري)
(دار الهلال ١٩٩٣)

٦ - اللا أخلاقى (عن أندريه جيد)
(الدار المصرية اللبنانية - ١٩٩٤)

فى الدراسات :

١ - الرواية اليهودية فى الولايات المتحدة وفرنسا ط١
(آفاق عربية ١٩٨٦) ٠

٢ - الاقتباس فى السينما المصرية ط٣
(نهضة مصر ١٩٩١)

٣ - رواية التجسس والصراع العربى الاسرائيلى
(نهضة مصر ١٩٩١)

٤ - الخيال العلمى ٠ أدب القرن العشرين
(الدار العربية للكتاب ١٩٩٣)

٥ - جائزة نوبل ٠ أضواء وأسرار
(دار المعارف ١٩٩٣)

٦ - موسوعة الأفلام العربية (مع آخرين)
(بيت المعرفة ١٩٩٤)

٧ - موسوعة جائزة نوبل
(مكتبة مدبولى ١٩٩٦)

٨ - سينما عادل امام
(المركز الفضى - ١٩٦٦)

فى أدب الأطفال :

— أجمل حكايات الدنيا (٥٠ كتابا)
(نهضة مصر ١٩٩١)

- المغاز الشروق (٢٠ كتابا)
(دار الشروق ١٩٩٣ - ١٩٩٦)
- مغامرات رأفت الهجان
(دار الهلال ١٩٩١)
- اجمل حكايات البحر/حكايات سينمائية مثيرة/بستان الحكايات/
حكايات غيرت الدنيا (ج ٢) شارلى المتشرد - العملاق - آلة الزمن
العجيبة .
(دار الهلال) .
- خيسال x خيال (٦ كتب)
(دار الشروق - ١٩٩٦)
- طه حسين - حسين القبانى (عظماء عاشوا بالأمل) .
(دار المعارف ١٩٩٥)
- حكايات علمية مثيرة
(دار عثمان - ١٩٩٥)
- اعرف عصرك (٥ كتب)
(دار الهلال - ١٩٩٦)
- مغامرات آلة الزمن العجيبة
(هيئة الكتاب - ١٩٦٦)

اقرأ فى هذه السلسلة

برتراند رسل	احلام الاعلام وقصص اخرى
ى • رادونسكايا	الالكترونيات والحياة الحديثة
الدس هكسلى	نقطة مقابل نقطة
ت • و • فريمان	الجغرافيا فى مائة عام
رايموند وليامز	الثقافة والمجتمع
ر • ج • فوربس	تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
ليسترديل راى	الأرض الغامضة
والتر ألن	الرواية الانجليزية
لويس فارجاس	المرشد الى فن المسرح
فرانسوا دumas	آلهة مصر
د • قدرئ حفى وآخرون	الانسان المصرى على الشاشة
أولج فولكف	القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة
هاشم النحاس	الهوية القومية فى السينما العربية
ديفيد وليام ماكذوال	مجموعات النقود
عزيز الشوان	الموسيقى - تعبير نغمى - ومنطق
د • محسن جاسم الموسوى	عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى
اشراف س • بى • كوكس	ديلان توماس
جون لويس	الانسان ذلك الكائن الفريد
جول ويست	الرواية الحديثة
د • عبد المعطى شعراوى	المسرح المصرى المعاصر
أنور المعداوى	على محمود طه
بيل شول وأدنييت	القوة النفسية للأهرام
د • صفاء خلوصى	فن الترجمة
رالف ثى ماتلو	تولستوى
فيكتور برومبير	ستندال

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضممار	
الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
القرات الغامض ماركس والماركسيون	سيدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف . ع أدنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د . نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د . فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د . روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا . سبنسر
النحل والطب	د . ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف دامموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء	
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤	د . لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د . جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن	
التشكيلى	د . غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية	
وبعدها	د . رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د . محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل . باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى	
١٨٨٥ - ١٩٨٥	شوكت الربيعى
المتشئة الاسرية والابناء الصغار	د . محيى الدين أحمد حسين

ج. دابلي أندرو	نظريات الفيلم الكبرى
جوزيف كونراد	مختارات من الأدب القصصى
د. جوهان دورشتر	الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد
طائفة من العلماء الأمريكىين	حرب الفضاء
د. السنيد عليوة	ادارة الصراعات الدوائية
د. مصطفى عنانى	الميكروكمبيوتر
صبرى الفضل	مختارات من الأدب اليابانى
فرانكلين ل. باومر	الفكر الأوروبى الحديث ٢ ج
جابريل باير	تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة
انطونى دى كرسبنى	اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
دوايت سوين	كتابة السيناريو للسينما
زافيلسكى ف. س	الزمن وقياسه
ابراهيم القرضاوى	أجهزة تكييف الهواء
بيتر رداى	الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
جوزيف داهموس	سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
س. م. بورا	التجربة اليونانية
د. عاصم محمد رزق	مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية
رونالد د. سمبسون	العلم والطلاب والمدارس
ونورمان د. اندرسون	الشارع المصرى والفكر
د. أنور عبد الملك	حوار حول التنمية الاقتصادية
والث وثمان روسكو	تبسيط الكيمياء
فريد س هيس	العادات والتقاليد المصرية
جون يوركهارت	التخطيط السياحى
آلان كاسپيار	التذوق السينمائى
سامى عبد المعطى	البذور الكونية
فريد هويل	
شاندراماسينج	دراما الشاشة (٢ ج)
حسين حلمى المهندس	الهيرويين والايدز
روى روبرتسون	نجيب محفوظ على الشاشة
هاشم النحاس	صور أفريقية
دوركاس ماكلينتوك	

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية اسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر . بورر
الفكر التاريخى عند الاغريق	وميلتون جولد ينجر
قضايا وملامح الفن التشكلى	ارنولد توينبى
التغذية فى البلدان النامية	د . صالح رضا
بداية بلا نهاية	م . هـ . كنج وآخرون
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	جوزيف داهموس
حوار حول النظامين الرئيسيين	د . السيد طه أبو سديرة
للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخذاتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيسلر
التوافق النفسى	توماس ا . هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	مikhail البى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الاوركستراالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر	جاك كرايس جونيور

من النقد السينمائي الأمريكي	ادوارد ميرى
قرايم زرادشت	اختيار / د. فيليب عطية
السينما العربية	اعداد / موني پراخ وآخرون
دليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص أخرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبئر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن أوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	توني بار
العثمانيون فى أوربا	بول كولنر
صناع الخلود	موريس بير براير
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفريد ج. بتلر
رحلات فارتيماس	رودريجو فارتيماس
انهم يصنعون البشر (٢ ج)	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار / د. رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتر نيكوللز
السلطة والفرد	برتداند راصل
الأزهر فى ألف عام	بينارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخ
سفر نامة	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانية	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر جاك كرابس جونيور	هيربرت شيلر
الاتصال والهيمنة الثقافية	اختيار / صبرى الفضل
مختارات من الآداب الآسيوية	أحمد محمد الشنوانى
كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ ج)	اسحق عظيموف
الشموس المتغيرة	لويغو تود
مدخل الى علم اللغة	

اعداد/ سوريال عبد الملك
د . أبرار كريم الله
اعداد/ جابر محمد الجزار
ه . ج . ولز
ستيفن رانسيمان
جوستاف جرونيياوم
ريتشارد ف . بيرتون
أدمز متز
ارنولد جنزل
بادي اونيمود
فيليب عطية
جلال عبد الفتاح
محمد زينهم
مارتن فان كريفلد
سونداري
فرانسيس ج . برجين
ج . كارفيل
توماس ليههارت
الفين توفلر
ادوارد وبونو
كريستيان سالين
جوزيف . م . بوجز
بول وارن
جورج ستايز
ويليام ه . ماثيوز
جاري ب . ناش
ستالين جين سولومون

حديث النهر
من هم القطار
ماستريخت
معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)
الحمالات الصليبية
دخانة الاسلام
رحلة بيرتون (٣ ج)
الحضارة الاسلامية
الطفل (٢ ج)
افريقيا الطريق الآخر
السحر والعلم والدين
الكون ذلك المجهول
تكنولوجيا فن الزجاج
حرب المستقبل
التسفة الجوهرية
الاعلام التطبيقي
تبسيط المفاهيم الهندسية
فن المايم واليسانتومايم
تحول السلطة
التفكير المتجدد
السيناريو في السينما الفرنسية
فن الفرجة على الأفلام
خفايا نظام النجم الأمريكي
بين تولستوى ودستوفسكي (٢ ج)
ما هي الجيولوجيا
الاحمر والبيض والسود
انواع الفيلم الأمريكي

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٣٩٤٨

ISBN — 977 — 01 — 4745 — 1

ليس الكتاب الذى بين يديك فقط هو الأول من نوعه فى المكتبة العربية بل هو أيضاً الأول من نوعه الذى يفرد مثل هذه الصفحات عن الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية فى كل الوطن العربى وخارجه وقد أوضح هذا الكتاب فى فصوله العديدة أن الأدب «العربى» المكتوب باللغة الفرنسية ليس أبداً أدباً فرنسياً رغم أنه منشور فى دور النشر الفرنسية ورغم أنه مكتوب باللغة الفرنسية لكن اللغة لم تصنع أبداً هوية قومية مختلفة للكتاب الذى ولد عربياً وقد حاول هذا الكتاب أن يرصد بانوراميا الكثير من الأسماء المهمة فى عالم الأدب العربى المكتوب باللغة الفرنسية من خلال شبه قاموس لكل بلد فى نهاية الفصل الخاص به هذا بالإضافة إلى إلقاء الأضواء مركزة على أبرز الأسماء فى بلادها من خلال البحث والتحليل والرصد لهذا الأدب.

من أهم هذه الأسماء: قوت القلوب الدمرداشية والبير قصيرى وأندريه شديد وأحمد راسم وجورج حنين من مصر ومن لبنان جورج شحادة وفؤاد أبو زيد وجان أركاش وايفيلين بطرس ومن فلسطين إبراهيم الصوص ومن الجزائر محمد ديب ورشيد بوجدره وجان حمروش ومن المغرب عبدالله بارودى وعلوى بلزمين وعبدالقادر بلهاس ومن أدباء المهجر مهدي شرف.